يوسف ابراهيم يزبك

الجذور التاريخية للحرب اللبنانية

من الفتح العثماني الى بروز القضية اللبنانية



نوفل

يوسف ابرهيم يزبك

الجذور التاريخية للحرب اللبنانية

من الفتح العثماني الى بروز القضية اللبنانية

نوفل

كلمة الشيخ عبد اللّه العلايلي

وكلمة ظهر الغلاف بريشة

ابرهيم يوسف يزبك

إن الآراء الواردة في هذا الكتاب تعبّر عن وجهة نظر الكاتب

الطبعة الأولى

١٩٩٣





بناية نوفل - شارع المعماري

تلفون (الحمراء): ٣٥٤٨٩٨ - ٣٥٤٣٩٤

(سن الفيل): ٤٩٩٠٧٤

ص.ب: ٢١٦١ / ١١ أو ٥٤٢٢ / ١١٣

بيروت - لبنان

مَن يَنقد عليكَ هو كمَن يؤلّفُ معكَ... خطّةٌ دَرَجَ عليها كلُّ مَن أخذ قضيّةَ الفكر مِن أنحائِهِ بقداسة. وفي القداسةِ كما تعلم تجرّدٌ وسموٌّ فوق مسافّ الأعصاب، وفيها إلى هذا كلّه تبتّلٌ لعلّة العبادة. فيكون مَن يبحث كمَن يُصلّي، كلاهما يستهدِف الجوهرَ الحقّ متخطّياً إليه ما اعترضَ مِن حوائلِ الأشياء.

أمّا الذين يأخذون القولَ عنتاً ويتنفّضون تنفُّضَ العصبِ الهائجِ المضطرب، فهؤلاء لا يعنون بموضوعٍ، وإن زعموا، وإنما يعنون بأشخاصهم في الموضوع. فهم لذلك أنانيّون، ومن الخير أن نكِلَهُم إلى اضطرابِ أعصابِهم.

عبد الله العلايلي

من رسالة الى يوسف ابرهيم يزبك

مقدمة

لما وصل جيش الاسكندر المقدوني الى صور قال له الصوريون:

«لك منا الاعتراف بسلطانك، فأنت دوّخت العالم ومن حقك أن تسوده. واما أن يدخل جيشك مدينتنا، ويدنو من معابدنا، ويقرب الى نسائنا فهذا نأباه ونرفضه رفضاً شديداً.»

وكان القائد الجبار قد أسكرته الفتوح المتتابعة فهجم على صور وضرب عليها حصاراً مرهقاً طالت عذاباته سبعة أشهر حتى انقطع عن المدينة كل عيش، وانتشرت المجاعة فيها، ولكن شعبها الابي لم يلن ولم يعنُ حتى استطاع المقدونيون فتح ثغرة في السور وانسلوا منها الى المدينة البطلة.

☆ ☆ ☆

ان لبنان، هذا البلد الصغير، المؤلف من طوائف عديدة ذات ذهنيات متناقضة، ورواسب مبهمة، وروحيات واضحة الجوهر، ومضلّلة التفسير فاسدة التوجيه، هو الذي أتى في ذلك الزمان بالمعجزة.

☆ ☆ ☆

عشرات الدورات، مع مطاوي الدهور، استقبلنا جماعات الغزاة محررين وأصدقاء، فقبضوا على مقدراتنا من الباب الى المحراب، وعاملونا معاملة المواشي، وصرنا لا يحق لنا أن نرفع رأسنا حتى وان كان للتضرع الى الله!

☆ ☆ ☆

نعرف عن حياة أجدادنا الابعدين أنها شاقة مضنية، على التوالي، قلّ أن شعباً عرف مثلها. وقلّ أن صبر على مرّها قوم.

من أقدمهم الذين صاروا يحملون اسم «روم» في المدن. أما الجبليون فأكثرهم الساحق لجأ الى لبنان في نزحات رئيسية ثلاث:

أ – اصحاب النزحة الاولى يمانيون من بني كلب غادروا أرضهم هرباً من ظلم الطبيعة وليس من ظلم الانسان، فاستقروا في الجنوب اللبناني يعايشون أصحابه الاولين من قوم آرام. ثم لبوا الدعوة الاسلامية منذ ساعتها الاولى متشيعين لعلي بن أبي طالب، فكانوا اوائل المسلمين خارج الجزيرة العربية، وسيعرفون باسم المتاولة*.

ب – اصحاب النزحة الثانية سريان اتبعوا تعاليم راهب سوري اسمه مارون، وقد هربوا من أخوتهم وأبناء أعمامهم على ضفاف العاصي ولجأوا الى جبالنا الشمالية منضمين الى سكانها الاولين من قوم آرام، وسيعرفون باسم الموارنة.

جـ – اصحاب النزحة الثالثة عرب من تغلب فرّوا من الجبل الأعلى في شمال سورية وحطوا في جبالنا الوسطى، وسيعرفون باسم الدروز.

جميعهم طحنوا صخور جبالهم الفقيرة وحرثوها. تجرعوا شظف العيش على رجاء أن يخلصوا من الأذى والشرور.

حكامهم كانوا من طينتهم وأكثرهم يخاف الله.

ثم لحقت بالجميع نزحات صغيرة ومتفرقة. والنازحون جميعاً على تعدد نزحاتهم، استقروا في الجهات الثلاث بعيدين عن العيون لئلا يصيبهم اضطهاد بسبب مذاهبهم الدينية التي اعتنقوها.

☆ ☆ ☆

الفريق الآخر من جدودنا، هم سكان المدن والسواحل والموانىء، وقد انضمت اليهم بعد الفتح الاسلامي، وعلى مر الأجيال، جماعات من المشرق

(*) قيل أنهم سموا متاولة لأنهم تولوا عليا وأهل بيته، اي اتخذوهم اولياء. وقد حرّف العامة اللفظة من متول الى متوالي. وهذا الاسم لا يطلق إلا على الشيعة في لبنان فقط.

والمغرب غير مضطهدة ولا لاجئة، وانما هي ساعية في مناكبها للارتزاق. بعضهم عمل مع العاملين في زرع الأرض السهلة، وقسم اشترك في احتراف الصناعة اليدوية، وبعض ثالث صارع البحر مع مصارعيه في خدمة التجارة، وجميعهم خضعوا لحكام غرباء اللسان عنهم، في أكثر الأوقات، لا يربطهم بهم سوى زعم الحكام أنهم في خدمة الاسلام وهم بأكثرهم في خدمة جيوبهم.

مرت أجيال. وبدأت العواصف تسكن. صار جدودنا يتعايشون «على البركة» متآخين، تماشي قناعتهم بطولة. ترافق تقشفهم وضيق ذات يدهم ضيافة كريمة. في تعاملهم وفاء، وفي تحزبهم عدل. توطد مجتمعهم نزعات تعاونية آية في إنسانيتها.

☆ ☆ ☆

جيلا بعد جيل توارث البنون عادات الأجداد في تعايشهم حتى صارت العادات تقاليد راسخة وشبه مقدسة، وتألقت منها مميزات حضارية هي واحدة من أنقى الحضارات في العالم، حملت الجيران عل التلهف: «هنيئاً لمن له مرقد عنزة في جبل لبنان!»

ولم يُصب صفاء ذلك التعايش الأخوي مرة بتعكير إلا من الخارج، من الغرب أو من الشرق.

☆ ☆ ☆

اين لبنان اليوم من ماضيه وتقاليده؟

من هم سكانه في البدء – جماعات الأقليات المذهبية – وكيف صاروا شعباً رائدا؟

من هم اللبنانيون الحاليون؟

ان الجواب عن هذه الاسئلة تقرأه في الصفحات الآتية، ولكن لا بد لي من أن أمهد للجواب برأي أعلنته من عشرين سنة، وكررته في مناسبات عديدة، عما نعرفه من حياتنا الماضية، فقلت:

«ان تاريخ بلادنا ناقص نقصاناً كبيرا. وفيه تقطّع، وحلقات مفقودة، وفيه اعراضٌ عن شروح ضرورية لا يستقيم الواقع الحقيقي باهمالها. وهذا كله يجيز لنا القول بأسف لا يضاهيه أسف: ان لبنان يفتقر الى كتابة تاريخه الكامل والصحيح.

اما الكتب التي وسمت بالطابع التاريخي لوطننا الجميل الكريم فمعظمها حجارة خام، غير مصقولة، في بناء. ناهيك بأن في صفحات كثيرة منها نزعات تخالف الواقع، أو لا تتفق مع مقومات التعايش الأخوي الذي يجب أن يبنى عليه وطن مثل لبنان. وما وضع المؤرخون كتبهم بذلك الشكل إلا لجهلهم حقيقة الحوادث وأسبابها، أو لرغبة بعضهم، من مختلف التيارات، في التضليل لأجل التعكير. ومعظم جهلهم سببه في الدرجة الاولى يرجع الى فقدان الأصول ونقصان المواد التي يبنى التاريخ بها.»

☆ ☆ ☆

الى تلك الحقيقة المؤسفة الاولى، حقيقة أخرى أشد وادهى: وهي أن الجيل اللبناني الذي ترك المدرسة قبل سنة ١٩٤٥ لا يعرف تاريخ قومه، ولا درس حتى «التاريخ» الناقص المعتل الذي ما تزال جميع مدارسنا تدرسه، وانما هو درس كتباً مسمومة، وهذا ان درس.

ولا تزال الكثرة الكبرى، من اللبنانيين تجهل تاريخ وطنها جهلاً مطبقا. وقد كتب علي أن أعرف معرفة شخصية خمسة وتسعين في المئة من الرؤساء والوزراء والنواب الذين ولّوا مقدرات لبنان بعد استقلاله فما عرفت أكثر من سبعة أو ثمانية محترمين منهم قرأوا «تاريخ» الشعب الذي تدبّروا ويتدبرون أمره!

بلى: هناك معظم رجال الأديان، من مختلف المذاهب، يعرفون تاريخ نشوء مذاهبهم، وأحداثها، ورجالاتها، ولكنهم يعرفونه بصيغته الطائفية التي لا تخلو من «قيود»، وتعام...

قد يسأل الآن سائل:

– اذا صحّ أن تاريخ لبنان هو ما قلته قبل عشرين سنة، وما زلت تقوله، فما هذا الذي تقدمه لنا اليوم؟

وأجيب:

– لا أقدمه تاريخا. وانما هي محاولة مخلصة تكتب بالمنهجية التاريخية الجديدة، وتعرض فيها حوادث فعلت في ايصال لبنان الى استقلاله الحالي، وأرجو أن تكون أقرب الى حقيقة الواقع من كتابات أخرى في موضوعها.

ويؤكد المؤلف أنه التزم في عمله واجباً يراه مقدساً: وهو قول ما رآه واعتقده أنه الحقيقة، بجميع ألوانها في جميع ظروفها. وقد قلته بدون خجل ولا وجل ولا مجاملة. وقلته بعد أن سلخت أربعين سنة في درس المجتمع اللبناني بتكوينه الطبيعي وأديانه ومذاهبه، ومنابته وجباله ومدنه وسهوله، وغُزاته وطغاته وكرامه ولئامه، وموارد العيش فيه. وبعد أن غربلت وقمّشت ثلاثين تاريخاً ودراسة أكاديمية وضعها أصحابها عن لبنان بلغات مختلفة، وبعد أن راجعت أيضاً وقمّشت في حذر وتشكيك أكثر من مئة وخمسين وثيقة قنصلية ودبلوماسية وتجارية محفوظات في اضبارات وزارات خارجية فرنسا وانكلترة والمانيا. واكثر من مئة رسالة وتقرير ومخطوط بلغات مختلفة رجعت اليها في المكتبة الڤاتيكانية والمكتبات الوطنية والبلدية في مدن روما وفلورنسة والبندقية، ولوندن، ومرسيلية وباريس وروان، وأوبسالا، فتفاعلت كلها في فكري مع السنين، وهي تشترك اليوم في إعداد مادة هذا الكتاب.

وينبه المؤلف الى أن الكشف عن الطابع الطائفي، بمعنى المذهب الديني، الذي انطبعت به أحداث كثيرة من كتابه، ما كان يبدو لولا اصرارنا على وجوب قول الحقيقة، كاملة، وعدم الخروج عن مسارها، ايمانا منا بأن هذا

القول وحده، وحده، يساعدنا على الوصول الى الجهر ليرينا جزءاً من الأمراض التي تفتك ببلاهتنا وتعامينا، وتشنج تحسسات أرثية كلما ذكرنا الدين والطائفة.

ولا بد من الإشارة أيضاً الى أن مادة هذا الكتاب تناولت في درجة رئيسية ومقصودة أحداث جبل لبنان في أيام الفتح العثماني لأن الحكم «الوطني» قام فيه دون سواه – الا ما ندر – من الكيان الحالي ولأن حول هذه الأرض وهي من أبواب المشرق، قام الصراع الذي يُكشف عن مبهماته الآن. ولأن للجبلي طبيعة خاصة فيها قسوة، تختلف نفسياً وعقلياً ومخيلة، ونشاطاً وتربية ومناخاً، عن طبيعة أبناء المدن البحرية التي يهتم سكانها بالتجارة وكسب المال وطلب الرخاء ونعيم العيش. وهذا واقع جغرافي عالمي يستوي فيه أبناء المذاهب المختلفة. واذا لم تثر النعرة الدينية بين المواطنين، فان المسلم والمسيحي البيروتيين، مثلا، حليفان على المسيحي والدرزي الجبليين.

أضف الى ما تقدم أن أبناء الجبال بمعظمهم الساحق يملك كل منهم أرضاً، وإنْ هي قطعة صغيرة من بضعة امتار، يقوم عليها بيت، وان كوخاً، وقد صارت منزلة هذه الأرض وكوخها من نفسه جزءاً من قلبه ودينه. وليس هنا، ولا بعض هذا، في المدن التي تعيش جماعتها الساحقة مستأجرة منازلها وصار ضرورياً، بعد الذي بسطناه، ان نكشف الحجاب عن تطور حياة الموارنة، وأسبابه، بقدر المستطاع، لأنهم أكثر أصحاب الجبل عدداً، وقد قاموا بدور انشائي كامل في هذا الوطن «الجديد» تجاوز السياسة – المخططة عادة – الى الثقافة والتجارة والعمران الخير، والى مختلف معالم الحضارة.

☆ ☆ ☆

واقول للّبنانيين جميعاً على اختلاف مذاهبهم أن الطائفية موجودة عند جميع الشعوب التي يُعتنق فيها أكثر من مذهب ديني. وانها جميعها تنافرت وتشادت، بل تقاتلت (النصارى في القرون الاولى. السنة والشيعة. الكاثوليك والارثوذوكس. الكاثوليك والبروتسطان. ثم المسيحية والاسلام. الاسلام والهندوسية والبوذية. المسيحية واليهودية الخ.. الخ...) والرواسب

ما تزال نائمة. الا أن الجماعات التي تمدنت عقلاً لا فولكلوراً، ونضج تفكيرها نضجاً ايجابياً لا غيبياً، فنظرت بعين جريئة الى حقيقة النزاع الطائفي ادركت أن هذا النزاع هو في أواخر القرن العشرين نتيجة تحجر مستبد، ووصولية فردية عمياء. وادركت أن ازدهار وطنٍ ما، لا يحققه استيلاء فلان على وظيفة، ولا بقاء فلان آخر في وظيفة، بقدرِ تحرر المواطن – كل مواطن – من التنين الذي يبتلعه دون أن ينظر الى دينه، ومن التشريع الاقطاعي العصري الذي يستغله ويذلّه، ويبقيه في المستوى الأدنى، لأنه تشريع دولة منحطة يسيطر عليها المستثمرون.

وبعد، فبضمير المؤرخ الواعي رسالته، غير المتحيز ولا المحازب إلا لأمرِ رأيته حقيقة، استطيع أن أرد على السائل قائلاً له:

– ان هذا الذي أقدمه الآن ليس تاريخا، وانما هي محاولة أرجو أن تكون قريبة من الحقيقة الكاملة.

الحدث: ختام سنة ١٩٧٥ المشؤومة.

ي.ا.ي.

من ظلام إلى ظلام

في مرج دابق البعيد سبع ساعات عن حلب، على درب عينتاب، وفي ٢٤ آب من سنة ١٥١٦، انتصر جيش السلطان العثماني سليم الاول - ويسميه مؤرخو عصره بسلطان بلاد الروم[١] - على جيش السلطان قانصوه الغوري[٢] آخر سلاطين المماليك الجراكسة على مصر وبلاد الشام، فانفتحت أمام المنتصر هذه المنطقة العربية ودانت له.

ولم يكن خضوع بلادنا للغازي الجديد وليد الجبن والخيانة وحدهما، بل هو في الاكثر نفور من المماليك الذين لم تعرف مصر وبلاد الشام حكما يشبه حكمهم في جوره وفوضاه وتدنّيه. والذين قصّوا علينا حكايات الفتح العثماني أجمعوا على أن جدودنا استقبلوه منقذا، بعد أن أرهقهم حكم المماليك وجعلهم يترقبون الفرج من أي غازٍ جديد، وان هو الشيطان!

وظن حكام البلاد أن الفرج جاءهم مع السلطان المذكور فاستنكفوا عن محاربته، وقيل إن السوريين المحاربين في جيش قانصوه الغوري بقيادة خاير بيك* نائبه على حلب انضموا مع هذا القائد الخائن الى جيش العدو وأفسحوا له في الانتصار، ولولا خيانة المملوك خاير بيك وبعض رفاقه المماليك لصعب النصر على الفاتح.

وما إن شاع أن الغوري قُتل في المعركة وأن جنده تشتت، حتى أسرعت الوفود الى الغازي العثماني من جميع الانحاء، علماء وأعيانا، مرحبة به. وكان بينها وفد لبناني من أصحاب اقطاعات الشوف والمتن

(*) الارجح فيه أنه تحريف كلمة خير، أو كلمة: خيري.

وكسروان وسواها. وامتنع بنو بحتر التنوخيون حكام بيروت واقطاعة الغرب، فقد كرهوا أن يخونوا عهد سادتهم المنكسرين، وأن يثبوا، كما وثب سواهم من أنسبائهم وجيرانهم، من جبهة الى أخرى بين ليلة وضحاها...

ونلفت النظر، هنا بالتخصيص، الى الاستقبال الولائي الذي لقيه السلطان سليم، فسيجري مثله استقبالات عديدة في المستقبل في مناسبات شبيهة. وقد حدثنا المؤرخ المصري ابن أياس، المعاصر تلك الأيام أنه:

خُطب باسم السلطان الجديد في جامع اطروش بحلب وزيّنت له المدينة، ووقد له الشموع على الدكاكين، وارتفعت الأصوات له بالدعاء (...) وصاروا يحطون على الغوري ويذكرون أفعاله الشنيعة لابن عثمان...»

«بدائع الزهور»: ج ٥، أخبار شهر شعبان ٩٢٢، تحقيق محمد مصطفى، القاهرة.

جرى ذلك لأن الزمان المولّي لم يكن منه في بلادنا ما يبعث على الطمأنينة ولا على التفاؤل، لا من الداخل ولا من الخارج، بل إن كل شيء عندنا، وحولنا – ولا سيما حولنا – يثير القلق والاضطراب والخوف والهم، بسبب قيام «الدولة» البدائية الحاكمة بقوة السيف: فكان غلاء ورزايا، وفقر وانحطاط، وفتن في أثر شرور، وشعوب قبلية، عشائرية، تكاد تكون السائمة، واقطاعية مبعثرة متباغضة متقاتلة، وحولنا أيضاً ملكٌ (أو نائبه) يسقط وآخر يقوم، ولا يحكم هذا الحاكم أكثر من أسابيع ويثور عليه عماله، أو رعيته، فيخلعونه أو يسجنونه أو يقطعون رأسه، حتى قال ابن الوردي:

«هذه أمور عظام — من بعضها القلب ذائب
ما حال قطر يليه — في كل شهرين نائب؟»

وهكذا كان الملوك ونوابهم يتتابعون، والمؤرخون يقولون في كل منهم: «... وكانت الدنيا على أيامه ماحلة، وحقوق الناس ضائعة، وكان شأن الظلم في الرعايا عجيبا، والمصادرات قائمة على ساق وقدم (...) وكم قَتَلَ ويتّم حتى خربت البلاد وخربت أوقاف الناس، وجرت في أيامه نكبات ...»*.

وقال المؤرخ المقريزي، الذي عاش في عهدهم وخبر مظالمهم:

«... فبدلت الأرض غير الأرض، وصارت المماليك ارذل الناس، وأدناهم وأخسهم قدراً، وأشحّهم نفساً، وأجهلهم بأمر الدنيا وأكثرهم إعراضاً عن الدين، ما فيهم الا من هو أزنى من قرد، وألعن من فارة، وأفسد من ذئب. فلا جرم أن خربت أرض مصر والشام بسوء إدارة الحكام وشدة عبث الولاة وسوء تصرف أولي الأمر الخ...».

«المواعظ والاعتبار»، ج ٢، ص ٢٢٩.

ووصف الجبرتي الحاذق، قيام عهد المماليك الشراكسة بقوله:

«... ووصل كل صعلوك منهم الى مراتع الملوك (...) وأخذوا لأنفسهم الأمريات والمناصب. والذين كانوا بالأمس أسفل الناس أصبحوا ملوك الأرض، تجبى اليهم ثمرات كل شيء...»

ج ١، ص ٢٠، المطبعة العامرة الشرفية، بمصر.

ومعقول جداً أن المماليك عاشوا في مركب نقص بسبب جهل كثيرين منهم أنسابهم.

(*) في كتاب «خطط الشام»، لمحمد كرد علي: ج ٢، ص ١٩٠ – ٢٠٤، فصل عنوانه: «عهد المماليك الأخير» بسط فيه الكثير من المخازي. ومع بعد حكامه ونوابهم عن جبل لبنان ذاق اللبنانيون أمر الفتك منه!

ومن عجائب الأقدار في ذلك الزمان الذي فشى فيه الظلم وسادت الفوضى، ان يعيش النصف الثاني من لبنان، في جبل الشمال، عيش الهدوء والطمأنينة والعمل الثقافي البناء. قال البطريرك الدويهي عميد المؤرخين اللبنانيين في «تاريخ الأزمنة»:

«... ومن أخبار هذا الجيل (القرن الخامس عشر) نستدل أن في دولة المقدمين وأحكامهم العادلة، استراح أهل جبل لبنان، وعمرت الكنائس والمدارس، حتى أن في قرية حدشيت (قرب إهدن) انعدّوا عشرين كاهن، وفي كنايس بشري مدابح في عدد أيام السنة وفي الحدت ستماية فدان. وفي اهدن، في الحارة الفوقا سبعين بغل، وضبطنا أسامي النسّاخ الذين وقفنا على كتبهم ينوفوا على ماية وعشرة. وكانت الناس تقصد السكنة فيه من بلدان بعيدة».

ط. توتل: ص ٢١٤.

قلنا: ودخل السلطان سليم دمشق فرحبت به ترحيب حلب، لخلاصها من المماليك، ونقل إلينا الرواة أنه وقع بعد دخوله حادثان جللان:

اولهما، إن السلطان سليما صلى أول جمعة في المسجد الأموي فمالأه خطيب الجامع ولقّبه بأنه «خادم الحرمين الشريفين» فرافق هذا اللقب جميع الخلفاء العثمانيين من بعده (١٥١٦ – ١٩٢٤). وقيل إن السلطان لما سمع كلام الخطيب بكى – أي شرف هو، له ولجميع آل عثمان! – وخلع على الامام حلته السلطانية التي كان يلبسها وقيمتها خمسون ألف درهم.

والحادث الآخر مجيء الأمير اللبناني فخر الدين المعني الأول سيد معاملة الشوف، في جملة الأمراء وأصحاب الاقطاع الذين وفدوا الى دمشق من لبنان وجواره للترحيب بالسلطان، فألقى بين يديه دعاء ممالأة قال فيه:

«اللهم، أدم على الدوام من أخترته لملكك، وجعلته خليفة عهدك، وسلطته على عبادك وأرضك، وقلدته بسنتك وفرضك، ناصر الشريعة النيرة الغراء، وقائد الأمة الطاهرة الظافرة سيدنا وولي نعمتنا أمير المؤمنين، الامام العادل، من ملك الملك بالعقل والتدقيق، ومدّه الله بالاقبال والتوفيق، أعاننا الله بالدعاء لدوام دولته بالسعد والتخليد بأنعم العز والتمهيد!»

وايا كان ميلنا الى التشكك في صحة هذه الرواية، فالواقع الصحيح أن سلاطين بني عثمان الأتراك عاشوا بهذا الدعاء (اللبناني؟) أربعة دهور كاملة خلفاء وأمراء المؤمنين في كثير من بلدان العالم الإسلامي. ولا نعرف سبباً لذلك الازدلاف من فخر الدين المعني إلا نفسية الخوف التي أوجدتها فينا عهود التخلف والانحطاط بعد أن تلاشى حكم العرب العادل. وهذه النفسية عينها – ازدلاف الخوف – ستسوقنا الى الترحيب بابرهيم بن محمد علي والي مصر «محررا»، وبجيوش القائد الانكليزي اللنبي فجيوش فرنسا في ختام الحرب العالمية الاولى «محررة»، وبعهد الشيخ بشارة الخوري ورياض الصلح «محررا»، وبخلفائهما من بعدهما، ثم تسوقنا الى الانتفاض عليهم جميعا، واحدهم في أثر الآخر!

هل كتب علينا تكريس المثل العامي القائل: «من أخذ أمي صار عمي»؟

يقول الرواة أن السلطان العثماني سرَّ بالغ السرور بدعاء فخر الدين المعني فسمح له بأن يقبّل طرف ردائه (اوكمّه)، وأبقاه سيدا على مقاطعة الشوف ولقبه بـ «سلطان البر» مما زاد في شأوه، وهو المعروف في قومه وجواره بالفطنة والجرأة، وجعله مرجعاً للقريب والبعيد، وكذلك أثبت السلطان له ولرفقائه الوافدين معه من أمراء الاقطاعات الأخرى امتيازاتهم التي كانت لهم في زمن المماليك، وقبله.

ان حوادث كثيرة تدل على أن ذلك السلطان كان يعرف أحوال البلاد التي زحف يغزوها معرفة كاملة. وهو داهية ماكر، أبقى كل شيء فيها على حاله: وما خلعه لقب «سلطان البر» على فخر الدين الا محاكاة لسلاطين المماليك في تلقيبهم زعماء البدو والعشائر بلقب «أمير الصحراء» أو «ملك البدو».

☆ ☆ ☆

في ذلك الزمان – وقبله، وبعده أيضا – لم يكن للبنان حدود ثابتة، فهو يكبر ويصغر، ويمتد ويتقلص، حسب قوة شكيمة أصحابه. ومثله كانت البلدان العربية الأخرى، بل أكثر بلدان الأرض. والمؤرخ الفقيه حمزة سباط العاليهي[٣] يذكر في الجزء الثاني من مخطوطه* ان حدود لبنان، قبل الفتح العثماني، تبدأ «من جيرة صفد الى أطراف حلب وحدود طرابلس، والى شوف بعلبك (وهو البقاع الغربي) وأطراف دمشق.» أنظر «ولي من لبنان» ليوسف ابرهيم يزبك، ط ٣، ص ٦٨.

ثم تقلصت تلك الحدود. ثم عادت واتسعت في حكم فخر الدين الثاني حتى زادت على أراضي الجمهورية الحالية. والصحيح فيها أنها لم تكن حدود «وطن» بقدر ما كانت حدود أرض يملكها حاكم، فكم خرجت بيروت، مثلا، من يد المعنيين وعادت اليهم، ثم عادت الى يد الشهابيين وأفلتت منهم.

وعند الفتح العثماني لبلاد الشام لم يكن قد مرّ ربع قرن على اكتشاف أميركا. وكان سكان أميركا بدائيين من الهنود الحمر، واما الأقطار العربية فوارثة مجموعة من الحضارات التي حررت البشر.

يوم ذلك الفتح كان الموارنة على علاقة روحية واتصال كنسي ببابا رومة في ايطالية، يرجعان الى بضعة دهور سلفت.

(*) محفوظ في المكتبة الوطنية بباريس تحت رقم ١٨٢١، وصفحاته بلا ترقيم في الأصل.

ولبنان، يوم ذلك الفتح، مجموعة اقطاعات يحكمها «امراء» «ومقدمون». واللقبان في الأصل البعيد عسكريان غير ارستوقراطيين، ثم صارا يشيران الى وجاهة. وقد زيد عليهما لقب شيخ في أيام فخر الدين الثاني. والنظام مزيج من الاقطاعية الصليبية والاقطاعية المماليكية.

عاش اولئك الحكام مستقلين في ادارة اقطاعاتهم استقلالاً تاماً، الا في الحكم بالموت على أحد أبناء «رعيتهم» فعليهم أن يرجعوا بشأنه الى الأمير الكبير، كما كان عليهم أيضاً أن يؤدّوا له مبلغاً من المال يقرر مبلغه في كل سنة. ويقدموا له الرجال في الحرب، فرساناً ومشاة، وهؤلاء يعيشون من رزقهم أو موردهم الخاص، الا الفقراء منهم فسيدهم المحلي يساعدهم.

وكما حكم لبنان الجنوبي الاقطاعيون الموحّدون (الدروز) حكم لبنان الشمالي المقدمون الموارنة. وفي الكورة حكم المشايخ الارثوذكس. وتاريخ المعاملة الشمالية ليس كله كاملاً بسبب الحروب والاضطرابات التي خربتها، وما سلم من أوراقها ومخطوطاتها فيه ثغرات تجعل تاريخ عهد المقدمين ناقصا، ومثله تاريخ حكم الحماديين الشيعيين[٤].

☆ ☆ ☆

مات السلطان سليم الاول (أيلول ١٥٢٠) وخلفه ابنه سليمان الذي لقبوه بالقانوني لأنه أعاد النظر في تنظيم السلطنة والبلدان العربية خاصة، اداريا وقضائياً وعسكرياً، ولكنه لم يقرب من لبنان بل أبقى له إمتيازاته السابقة كلها – (القديم على قدمه بتقاليده وقوانينه). قال فيليب قعدان الخازن:

«... لقد استبدل السلطان سليمان بالولاة المماليك الذين استبقاهم والده السلطان سليم الاول في إدارة الولاية السورية، حكاماً أتراكاً على طريقة تلزيم بعض أقسامها الى عمالٍ منهم قابلي العزل، يعطون لقب باشا. اما أصحاب الاقطاع في الولايات التابعة لهؤلاء الولاة فكان لقبهم بك أو آغا. في حين أن متولي الشؤون اللبنانية

العامة كان وطنياً يعرف بأمير البلاد، أو «الحاكم الكبير». واحتفظ أصحاب الاقطاع في لبنان بلقب أمير ومقدم وشيخ. وما برح الامراء الذين تولوا هذا الجبل من الوطنيين ينتخبهم أصحاب الاقطاع عند انقراض الأسرة الأميرية. وكانت هذه الولاية تستمر متوارثة فيهم، والباب العالي[5] يوفد مندوباً لاقرارهم فيها. وكانت قد جرت العادة عند وفاة أمير وتولي غيره على طريق التوارث أن تعجل الدولة (العثمانية) بالباس الأمير الجديد خلعة على يد أحد ولاة الجوار حفظاً لسيادتها الاسمية. أما مخابرة هؤلاء الامراء مع الدولة فكانت مباشرة، كما يتضح من الكتابات السلطانية (...)»

«ولئن منح سلاطين آل عثمان الامم المسيحية في سلطنتهم حرية الجري في عبادتها على طرقها الخاصة، وسمحوا لها أن تحتفظ بشرائعها وقضاتها في أمورها الدينية، فانهم كانوا يوجبون على رؤساء الدين طلب براءة التثبت في مرتباتهم، اذ بدونها ما كان هؤلاء الرؤساء يستطيعون استعمال سلطتهم الدينية والمدنية. وكانت طريقة انتخابهم خاضعة للباب العالي».

«ولم يكن للمسيحيين حق المساواة بالمسلمين: فلم يكن لهم أن يلبسوا لبسهم، ولا أن يركبوا الخيل، ولا أن يتقلدوا السلاح مثلهم. وما كانت شهادتهم مقبولة لدى المحاكم. واذا شاءت إحدى الملل المسيحية بناء كنيسة أو معبد، أو ترميمهما، كان عليها أن تستحصل على فرمان سلطاني[6]. أما في لبنان فلم يكن شيء من هذا، اذ إن اعتراف امرائه المستقلين بسلطة رؤساء الدين فيه وبرتبهم الدينية أغنى هؤلاء عن التماس البراءة[7] وفرمان التثبيت. وكانت الحكومة اللبنانية تعامل المسيحيين والدروز بالسواء. ولم يكن لإحدى الملل ميزة على الأخرى بلبسها، ولا في سوى ذلك من الاختصاصات التي لمسلمي الولايات العثمانية (...)

«... والولاة الأتراك كانوا مستخدمي الحكومة العثمانية، تنصبهم وتعزلهم متى شاءت، بخلاف امراء لبنان الذين كان ينتخبهم أصحاب الاقطاع فيتوارثون الامارة دون أن يكون للدولة (العثمانية) حق فصلهم، وانما كانوا يؤدون الجزية للباب العالي ويعترفون بسلطة الحكومة الاسمية فقط.»

«وكان القضاة في ولايات الدولة (العثمانية) يقضون في أمور الرعايا وفصل دعاويهم، أما في لبنان، فان أصحاب الاقطاع كانوا يفصلون في الدعاوى المدنية والجنائية حسب العادات اللبنانية المألوفة. وكان الامراء يحكمون بالاعدام والتمثيل بدون مرد لحكمهم...»

(لمحة تاريخية في استمرار استقلال لبنان التشريعي والقضائي منذ الفتح العثماني سنة ١٥١٦). الطبعة الثانية بعنوان «كتاب الشهيد» منشورات أوراق لبنانية: ١٩٥٧، ص ٢٢ و ٢٣.

وصار كلما توالت الايام، ازدادت الاقطاعية اللبنانية تطوراً وزادت بأساً، حتى بدا لبنان ممتازاً في محيطه، وصار استقلاله ممنَّعاً. وقد ذكر هذا في تاريخه الشهير الوزير التركي جودت باشا، وهو الذي ولي الحكم في ولايتي حلب وسورية وتقلب في المناصب الرئيسية العليا، وفي الكراسي الوزارية طوال نصف قرن. قال جودت باشا:

«... وكانوا (الحكام اللبنانيون من بني شهاب) في ادارتهم الداخلية وأحكامهم مستقلين، فلا يقدر أحد من حكام الدولة أن يتداخل في أمورهم الداخلية، حتى إن الجناة الذين يلجأون اليهم خوفاً من الولاة كانوا يأمنون على أنفسهم لأن من الوصول المرعية عندهم حماية من يهرب اليهم لاجئاً، فلا يقدر الولاة على استردادهم. وكان لهم امتيازات على هذا الوجه في جميع الخصوصيات. وحاكم الجبل في ذلك الزمان مرجع لحكام العشائر في نواحيه.

ومثلهم الامراء والمشايخ القاطنون في أطراف الجبل كانوا خاضعين لهذه الطائفة الشهابية، فلا يستطيع أحد منهم مقاومتها، بل أنهم يوافقون امراءها على ما أرادوه، وعلى الأخص مشايخ بلاد بشارة (جبل عامل) وحاصبيا وراشيا أهل وادي التيم. وكذلك كان مشايخ بعلبك ومشايخ الضنية يراجعون الأمير الشهابي حاكم الجبل في عظائم الأمور ويعظمونه تعظيماً كاملا...»*

وقبل الاستخلاص من هذا الفصل يجب التذكير:

أ – بأن القومية في ذلك الزمان لم يكن لها معالم، ولا مفهوم سياسي، في المشرق الاسلامي حيث الجامعة الوطنية هي الجامعة الاسلامية وحدها لا شريك لها.

ب – بان الشريعة والقانون في ذلك المشرق هما شريعة الاسلام وقانونه. ولم يشذ عن واقعهما إلا حكم المقدمين الموارنة في لبنان الشمالي فهو مسيحي بحت.

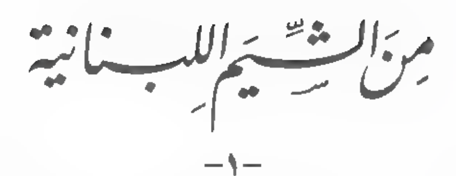
جـ – بأن في حكم السلطان سليمان القانوني، وبتأثير المعاهدة التي عقدها سنة ١٥٣٥ مع «صديقه» الملك فرنسوا الاول، ومنح فيها رعايا فرنسا طلائع الامتيازات الأجنبية (حرية التجارة والاقامة وممارسة الدين الخ.) انتشرت الارساليات الكاثوليكية في المشرق.

د – بان لبنان كان يمتد ويتقلص مع الأحداث والظروف، وقد ذكرنا حدوده قبل صفحات نقلاً عن ابن سباط، فصار ابناؤه يفترق بعضهم عن بعض وأخذ نظام حكمهم يتبدل فتحفر هوة في تكوينهم الاجتماعي وفي الرابطة الأصلية التي تربط بينهم.

(*) تاريخ جودت: ص ٣٥٤، ج ١، طبعة جريدة بيروت، ترجمة عبد القادر الدنا ١٣٠٨هـ (١٨٩٠م).

وقد نتج من جراء ذلك أن استقلال لبنان الاقطاعي – ومن الحق أن نقول: استقلال حكامه الاقطاعيين، وقوة امتيازاتهم التي ذكرها المؤرخان جودت باشا والشهيد الخازني – كوّن للبنان شخصية معينة، وصار له طابع خاص يميّزانه عن جيرانه الأقربين الذين هم في الأصل أخوته واشقاؤه. ونحن نطمئن الى هذا التنسيب.

اما اللاجىء المستجير وحمايته التي امتاز بها جبلنا فميزة عربية ورثناها من جدودنا، واشتهرنا بها في اختلاف مناطقنا منذ عصرنا الاول. ولم ينفرد بها المعنيون ولا الشهابيون، ولا الاقطاعيون الآخرون، بل هي ميزة الشعب كله. كل لبناني يحمي من يلوذ به ايًّا كان هذا المحتمي، حتى وان كان قاتلاً ابنه. ولكن ميزتنا هذه امّحت مع الأيام في التربة التي عاشت تحت حكم الباشاوات العثمانيين، ولم تبق إلا في الإمارة اللبنانية، فبقيت عنوان المرؤة والمعروف. وفي كتب التاريخ قصص كثيرة عن حماية لبنان للاجئين اليه.



-١-

«نحن، في لبنان، لم يسمع عنا أنا غدرنا بالناس، فكيف باللائذين بنا؟»

فخري الدين المعني

-٢-

«ليس أمنع من نزيل بيت معن في لبنان»

الامير مدلج ظاهر الحياري:

«اوراق لبنانية»، ٣ ص ٥٢٩.

-٣-

«مقام النزيل في لبنان عزيز جدا»

تاريخ الشيخ ظاهر العمر الزيداني: ص ١٢٢.

-٤-

«شيمة بلادنا قبول القاصدين وحماية الخايفين»

بشير الشهابي: حيدر الشهابي: ج ٢، ص ٥٢٦.

-٥-

«ان لبنان يقبل كل من أتى اليه»

منتخبات من «الجواب على اقتراح الأحباب» ص ٤٩.

-٦-

«اني أهدر مالي ورجالي لحماية نزيلي، ولا يقال أني سلمته»

بشير الشهابي: حيدر الشهابي:

ج ٣، ص ٥٩٨.

-٧-

«من الأصول المرعية (عند الحكام الشهابيين) حماية من يهرب اليهم»

تاريخ الوزير جودت باشا: ص ٣٥٤.

-٨-

«حِماه حمى يوقَى به كل ملتجِ ويُؤمَنُ فيه كل خطبٍ مداهم»

نقولا الترك سنة ١٨١١

من الجذور

ابقى الفتح العثماني للاقطاعية اللبنانية، وهي بأغلبها عربية النجار، جميع صلاحياتها في حكم نفسها بنفسها، وجميع امتيازاتها السابقة التي كانت تتمتع بها في أيام المماليك.

والى جانب تلك الامتيازات والصلاحيات الاقطاعية كان استقلال ديني «قومي» عند الموحّدين (الدروز) والمسيحيين، والفريقان هم سكان المقاطعات اللبنانية.

ان الاستقلال الديني لدى الموحدين سيأتي خبره بعد قليل، وأما المسيحيون في الجبل فكانت لهم بيعتان فقط لا ثالثة لهما: احداهما أرثوذكسية انطاكية أصيلة، وما انطاكية سوى الينبوع الروحي لجميع الكنائس، والأخرى مارونية سريانية وبنت انطاكية، نشأت في جبل لبنان متلبننةً منضمة الى تعاليم الكثلكة وخاضعة للكرسي الرسولي بروما.

وبسبب التجمع الارثوذكسي في المدن الخاضعة للحكم العثماني المباشر – ذلك الحكم الزاعم واهماً أنه وارث عهد الفجر الاسلامي النقي – وبسبب استقرار الكرسي البطريركي في دمشق استقراراً نهائياً، واستئثار الروم البيزنطيين واليونانيين بالكرسي الانطاكي، ولا سيما في الفترة التي امتدت من سنة ١٧٢٤ الى ١٨٩٨، حتى كاد الكرسي يصير يونانياً إذ لم ينتخب فيها بطريرك عربي واحد، مما سبب للارثوذكسيين العثمانيين أوجاع رأس – لتلك الأسباب، ولسواها، وجب على البطريرك الانطاكي ومعاونيه رؤساء الأبرشيات أن يطلبوا من استنبول اجازة سلطانية اسمها «براءة» تسمح لهم بممارسة مهامهم الكنسية.

اما الاستقلال الديني «القومي» عند الموارنة، فخبره أن كنيستهم تمتعت به بسبب نشأتها واقامتها في الجبال البعيدة عن العيون. وهو استقلال في الأصل طقسيات خاصة سنّتها الجماعة المارونية وصار لها سلطان القانون، كما فرضت قدسية معلمها الراهب السرياني مار مارون ونادت به اباً وطنياً فصار البابوات يركعون أمام صورته.

وكان الموارنة الأولون يتكلمون السريانية. وهم آخر من تكلم العربية في جبلهم. وقد مارسوا في محيطهم استقلالهم الديني، في معظم الحالات، بدون اعتراض ولا خوف ولا تذعير، وذلك بحكم عزلتهم، كما قلنا، في كهوف القمم التي لا يصل اليها الا النسور، و «البعيدة عن ممر الأمم والشعوب الأخرى».

ان ايضاح الحالة السائدة في ذلك الزمن الماضي يساعدنا على الوصول الى رؤية الرماد النائمة عليه الأزمات الطائفية المستحدثة، التي عادت تعصف بلبنان بعد الجلاء العثماني والجلاء الفرنسي عنه:

ان اليهود والمسيحيين العرب في خارج جبل لبنان كانوا يعاملون معاملة أبناء الذمة، الا أنه كثيراً ما شذّت فئات اسلامية عن تعاليم دينها الحنيف في تلك المعاملة، وكثيراً أيضاً ما استنكر عقلاؤها الصالحون شذوذها الغوغائي.

واكثر النصارى الذين عاشوا في الولايات العثمانية، أي خارج جبل لبنان، قصّوا على أبنائهم الذين نشأوا بعد الجلاء العثماني ما كانوا يلقونه من صنوف التذليل المرير، وقصّوا عليهم كيف كان أي كبير قوم فيهم يصفعه الاوباش وفيهم العساكر المرتزقة الغريبة عن البلاد، ويأمرونهم صارخين وباصقين في وجوههم: «أشمل يا كافر»! أو: «طورق يا كلب!» وكان الضمير الاسلامي النقي يثور دائماً على تلك الأعمال الشائنة، ويعترض ويؤنب الذين يقترفون التبليص والتسخير وانتهاك الأعراض

والاغتصابات «الشنيعة» وشتم الصليب الخ... إلا أن إغضاء الحكام عليها - ان لم يكونوا المحرّضين على ارتكابها - صار يزيد في همجية الغوغاء، وجلهم كما قلنا من العساكر المرتزقة ومن ذراري عسكر المماليك والمتشردين الذين انقطعت بهم السبل في هذه البلاد، فيضطر كرام المسلمين الى الاعتذار عنهم - وكم اعتذر كرام المسلمين، وكم كان في اعتذاراتهم من كبر وعبر، وهم يذوبون خجلاً واشمئزازاً! - ولكن، ما كان باستطاعة أريج الوردة أن يحجب كراهة الاقذار.

وكان اولئك الاوباش يعتدون على كرامة بعض المسلمين أيضا. وكاتب هذه السطور سمع من أخوانه المسلمين كثيراً من اخبارهم* غير أن المسلم المعتدى على كرامته كان يرى الاعتداء على حقيقة الواقع، أي أنه شراسة وعدم تهذيب، وأما المسيحي فينسبه الى كون صاحبه مسلماً متعصباً يقصد إهانة مسيحي، في حين أنه يجهل تعاليم دينه جهلاً مطبقاً. وكذلك فسر المسيحيون، جهلا، بأن اعتراض كرام المسلمين وغضبهم على موبقات الزعران هما تصرف «اوادم» وأبناء بيوت وجيهة، وبان الزعران يرتكبون الاثم لأنهم مسلمون!

(*) سمعت من المغفور له الشيخ عبد القادر الكيلاني نائب حماة في الجمعية التأسيسية السورية وهو من الوزراء السابقين، خلاصته:

ذهبت في شبابي للحج فركبت الباخرة من طرابلس ولما وصلنا الى بيروت نزلنا الى اليابسة وكان الطقس حاراً وشاهدت تلالاً من البطيخ مكومة أمام الدكاكين للبيع فدنوت من احداها وأمسكت ببطيخة لأفحصها وسألت البائع: «بكم الرطل يا عم؟» وأدرك العم من لهجتي أني غريب فطلب مني ثمناً غالياً جدا، فتركت البطيخة وهممت بمتابعة دربي واذا به يصرخ: «لوين يا عک..؟ والله العظيم! ما بتمشي فشخة قبل ما تشتري البطيخة اللي فحصتها...» وكدت أصعق من هول ما سمعت فقلت له معاتبا: «مش عيب عليك يا عم، مش شايف عمامتي؟» وهاج الرجل وكرّر الاهانة. فقلت له ملاطفا: اتق الله يا عم، انا رايح أزور البيت الحرام. «فازداد العم شتماً واهانة. واتفق أن تاجراً بيروتيا مر من قربنا وسمع الشتائم فانتهر الشاتم وهدده. وسكت هذا وهو يتميز غيظاً. ولما شكرت منقذي من تلك الورطة اعتذر الكريم خجلاً وتوسل اليّ أن أنسى ما سمعت، ثم انحنى على يدي يريد تقبيلها. وهذا الشهم صار من أعز أصدقائي وتبادلنا الزيارات مراراً بين حماة وبيروت، وهو الوجيه المرحوم الحاج مصباح قرنفل.

وصار ذلك التصرف المخجل – وتكراراً نؤكد أن الاسلام بريء منه – يعطي قناصل اوروبة المسيحية حججاً جديدة للتدخل في شؤون البلاد. ولم تكن دولهم تطلب أكثر من ذلك حتى تتسع دائرة الامتيازات الأجنبية[1] في تحقيق مطامعها.

والمؤلم في ذلك الماضي، وقد بدأ منذ أمد بعيد، أن سلاطين وملوكاً حملوا لقب الخلافة تصرفوا مع الذميين، ومع النصارى خاصة، بتعصبٍ قاس وبدوا أجهل من السواد في هدم الكنائس وفي الأذى والاساءة الى رعاياهم الذميين، جاهلين أو متجاهلين روح الاسلام ورسالته السمحاء.

وتتابع ذلك الجهل مستمراً عهداً بعد عهد حتى آخر الحكم العثماني أي حتى الاحتلال الفرنسي. وجاء هذا ليساعد، أو يعمل، على قلب الآية، وكان ان استأسد مذلولو الامس، وقام أغبياؤهم وجهلاؤهم، وفيهم وجوه(!) ومتزعمون ورجال دين، ويا للأسف، ينتقمون، ويكيلون الكيل كيلين. وفي الصفحات الآتية بيان.

☆ ☆ ☆

في تلك الأيام المملوكية والعثمانية، والابعد منها، عاشت المجموعة المسيحية في حبل لبنان – «لبنانها» – أرثوذكسية ومارونية فقط، كما رأينا، والمتكثلكون الجدد من روم وسريان وأرمن وكلدان الخ... لم يكونوا قد انتقلوا الى مذهبهم الروماني الجديد – عاشت المجموعة الاولى قانعة، مع ضيقها، بانها تمارس عبادتها وطقوسها الدينية بملء الحرية في أية ساعة شاءت، وبأنها تجهر بمعتقدها دون وجل، ودون أية باطنية، وأية تقيّة، وأي تحفظ، وترتدي من الثياب ما يوافق مزاجها من ألوانها، لا كما يعيش الذميون خارج أرض الجبل.

وكذلك عاش قسم من تلك المجموعة في لبنان الوسط (جبل الدروز) مع مواطنيهم الموحّدين عيش الاخاء الصادق والولاء الصافي، كأنهم أسرة

واحدة واقعاً لا كلاما، وقد وحّد بينهم ظلم الحكام المجاورين، وتراث التعايش العربي الاول. وكان السيد الاقطاعي الدرزي يهمه إنتاج الفلاح المسيحي الذي يحرث أرضه بنشاط واخلاص، ولا يهمه دينه.

واخذ ينمو المجتمع الماروني في الشمال أسرة واحدة أيضا. وصار بعض أبناء المقدمين يختارون حياة الكهنوت، وينادى بأفراد منهم أساقفةً وبطاركة، ومن هؤلاء من يتزوج كنسياً وينجب البنين، فامتزجت الرسالة الدينية بالمهام الزمنية وصار البطاركة يتقدمون «قطيعهم» في مواقع الدفاع عن حياضه، كما صار هذا القطيع، الجبلي العيش والمزاج، المفضل حرية التعبد على هناء الدنيا وملذاتها بدون هذه الحرية، يرى في دفاع راعيه عنه ظاهرة دينية أوصلت القائد الى أن يصير «سيدنا البطرك» فصار، وحده، الآمر المطلق بتطبيق قوانين بيعته الزمنية، من المهد الى اللحد، وبممارسة جميع سلطاتها الروحية، وصار، وحده، الراعي على جميع الأبرشيات، وما المطارنة سوى وكلائه يوفدهم بمهمات معينة ومحدودة الى أبرشيات يختارها لهم، ثم يوفدهم بمهمات أخرى الى أبرشيات أخرى، مما جعله رأس الكنيسة المارونية وزعيم طائفتها في آن واحد.

وساعد البطريرك على الوصول الى هذا المقام كون بعض المقدمين الاتقياء هم من ذرية أساقفة وبطاركة، أو انهم من حلفائه، وان ليس في لبنان بطريرك إلاّه، وليس في الشرق كله بطريرك «روماني» سواه، تربطه علاقة بنوية بالدولة البابوية ذات النفوذ البعيد والسلطان العظيم على نفوس المؤمنين. وفي تلك المكانة التي وصل اليها المقام البطريركي الماروني قال العلامة الأب فيليب السمراني:

«... أصبح لبنان بفضل سلطان السيد البطريرك الماروني المطلق، وطن الكثلكة والمسيحية في الشرق، بنوع أنه من ترعة السويس الى شواطىء الهند والسند، لا بل الى شواطىء الباسيفيكي المتكسرة أمواجه على جزيرة اليابان وشواطىء الصين، لا توجد بقعة من

الأرض نظير لبنان، نامية فيها المسيحية والكثلكة نظير ما هي فيه. فهو بعدد كنائسه، ومعابده، وأجراسه، ورعاياه، وكهنته، ورهبانه، وأخوياته، وجمعياته الخيرية، ومدارسه، يفاخر أحسن أبرشيات ايطاليا وفرنسا تدينا وغيرة. مع أن ما احتمله من الاضطهاد وما قاساه من تدمير وخراب لم يجرِ جزء منه فيهما. وازدهاره هذا راجع الى حسن اداراته الروحية بتوحيد السلطة بيد السيد البطريرك...»*

☆ ☆ ☆

في ذلك الزمان كان البابا ملكاً زمنياً وارثاً عرش أباطرة الرومان، وهو كعاهل زمني تهمه كثيراً شؤون مقاطعاته وأراضيه، مع كونه رئيس البيعة التي قال مسيحها: «مملكتي ليست من هذا العالم.»

ثم تطورت الكنيسة الكاثوليكية تطور الدولة البابوية. ويصح العكس. وصارت ذات ثروة وبأس: تعاليمها توجه أوروبة المسيحية كلها. وكلمتها عند شعوبها وأمرائها وملوكها أمر.

وبعد انحدار الغزوة الاوروبية التي زعمت أنها «صليبية!»، ظلت الدولة البابوية تحن الى وطن المسيح - الى الأرض التي ولد يسوع فيها وعاش، وجاب قراها وشطآنها ومناطقها وجبالها، ماشيا على قدميه، أو راكباً آتانه، مبشراً بانجيل المحبة والسلام، لاعناً مكتنزي الفضة، والكذابين، والظالمين، وداعياً الى التوبة والعمل الصالح والاحسان - ظل الباباوات يفكرون بالوطن ذي التربة المقدسة التي يذكرونها في صلواتهم مراراً كل يوم: أواه، لو أن حكم روما يشمل فلسطين!

(*) ص ٧ من مقدمة الأب فيليب السمراني لكتاب «الذكرى القرنية للمجمع الاقليمي في لبنان» بقلم الأخ بولس مسعد.

وكان جبل لبنان الذي عطرت اسمه التوراة عشرات المرات، وتغنى الأنبياء بأرزه وحنّوا اليه، أقرب أرض شرقية، بعد الأراضي المقدسة، الى قلب سيد روما، ناهيك بأن معظم سكان هذا الجبل خاضعون لتعاليم كنيسته، يعلنون على سن الرمح: «إيمان بطرس ايماني» - وكم اوذوا من جراء ذلك الاعلان وثبتوا عليه! - فبديهي أن ينظر كل خليفة لبطرس بعين العطف والمحبة الى الجبل البابوي المذهب، والى أبنائه الذين شبهتهم الكنيسة الكاثوليكية بالوردة بين الأشواك. والأشواك في حكم روما هنا جميع الطوائف غير البابوية.

لجميع الأسباب التي أشرنا اليها، ولاسباب أخرى بسطها كثيرون من البطاركة المارونيين على التوالي في التماسات رفعوها الى السدة البطرسية، استجاب البابا اوربانوس الثالث عشر لتوسل ابنائه، ابناء «الوردة بين الأشواك» وأسّس لهم المدرسة المارونية في روما. وتم ذلك الحدث العظيم سنة ١٥٨٥، بعد تسع وسبعين سنة من الفتح العثماني*.

وكان لتلك المدرسة التي أنجبت العباقرة، والملافنة، تاريخ.

والموارنة الأميون من متزعمي لبنان، والمتحكمين برقاب شعبه، يجهلون شأنها وجليل خدماتها وتاريخها. وأكثر متزعمي العالم العربي يجهلون أن المدرسة المارونية الرومانية هي المشاركة الاولى في تنظيم علم الاستشراق وضبطه في جامعات أوروبة، وفي نشر لغات الغرب وعلومه في الشرق العربي، وفي لمّ مخطوطات كنوز الفكر العربي المبعثرة في مختلف الاصقاع وانقاذها من الضياع والاتلاف لحفظها في المكتبات الأمينة، لترجمة روائعها، واطلاع الغربيين على الحضارة العربية والاسلامية - تلك

(*) في سنة ١٦٣٩، بعد أربع وخمسين سنة على تأسيس هذه المدرسة، انشئت مدرسة مارونية أخرى بالثروة التي تركها العالم الأب نصرالله شلق، العاقوري، احد توابغ مدرسة روما المذكورة والمشهور باللاتينية باسم فكتور شيالاك، وقد اوصى بانشائها في مدينة رافينه الايطالية لتعليم ابناء طائفته. («الجامع المفصل» للمطران الدبس: ٣٥٤ و ٣٨١).

المدرسة المارونية زرعت الغرب بعلمائها يخدمون الاستشراق والاستعراب ترجمة وتأليفاً وتدريسا، مما حمل القنصل الفرنسي العالم رينه ريستلهوبر، صاحب كتاب «تقاليد فرنسية في لبنان»، على الاعتراف بأن «التآليف التي وضعها العلماء خريجو المدرسة المارونية كانت من أنفس المساعدات لمستشرقي اوروبة»*.

وما خدمة فريق من تلاميذ تلك المدرسة في الجامعات وقصور البابوات وأبلطة الملوك في الغرب إلا اقتفاء لاسلافهم العلماء الموارنة في خدمة الخلفاء العباسيين، ومن المعهم حبيب الله (توافيلوس) الرهاوي الماروني الذي أشاد به أبو الفرج في «تاريخ الدول» وقال عنه أنه خدم في بلاط المهدي مترجماً وعالماً في الفلكيات، وترجم الالياذة الى السريانية. وبعد توافيلس (حبيب الله) لمع المؤرخ الماروني قيس الذي أثنى المسعودي في «التنبيه والاشراف» على حسن كتابته التاريخ («الجامع المفصل» للدبس ص ١٦ و ١٧٥).

اما رفقاء تلاميذ روما الآخرون فكانوا يرجعون الى الوطن لإدارة كنيستهم أساقفة وبطاركة، ولتأسيس المدارس وتغيير أسلوب التدريس المتخلف والنهوض به الى المستوى الاوروبي، وللترجمة والتأليف، ونقل علوم عصر النهضة الى لغة الضاد.

ان اولئك الطلاب العرب الرواد، الذين تأوربوا وتلحقوا بالحضارة الغربية اذ درسوا أريسطوطاليسها وتفاعلوا بفلسفتها وتثقفوا بعلومها، حملوا في الوقت عينه كثيراً من بذور الحضارات الشرقية، ووليداتها العربية واليهودية والاسلامية، وصاروا عنواناً لبدء التفاعل الحضاري العالمي في حبلهم وجوارهم القريب الرازح تحت مؤثرات رواسب مماليكية، فعملوا على إنهاض الجبل والجوار بالعقلين اللذين يحملونهما.

(*) هذا الكتاب ترجمه بعنوان «تقاليد فرنسا في لبنان» (١٩٢١) الملفان القس بولس عبود رئيس الكنيسة المارونية في يافا وصاحب الصوت الجريء في الأصوات الاولى بالتنبيه الى مطامع الصهيونية في فلسطين. (ص ١٠٧).

وخلف اولئك الرواد تلاميذ. وعمل هؤلاء في مدارس عينطورة وزغرته وعين ورقة والحكمة والمزار، وسابقاتها ورفيقاتها واللاحقات بها، وقد دُمغوا بطابع معلميهم المفتقر محيطهم اليه.

وما لبثت المدارس الجديدة التي انتشرت في الجبل على غرار مدارس الغرب أن بدأت تثمر، وصارت بدورها تخرج الملافنة والفلاسفة والادباء والشعراء لينشئوا هم أيضاً مدارس في قراهم تعلم السريانية – لغة الكنيسة المارونية – والعربية والايطالية والفرنسية، فتنشىء أجيالاً عصرية غير بعيدة عن تفهم أوروبة والعالم.

ولا مجال هنا لبسط جلائل الخدمات التي اداها خريجو المدرسة المارونية للبنان، بالتالي وللعالم العربي، بتأسيسهم المدارس «العصرية» هم وتلاميذهم وتلاميذ تلاميذهم، مما زاد في توطيد كيان البطريركية المارونية ولكننا نلمح الى مدرسة عين ورقة التي درس فيها فطاحل النهضة الأدبية العربية في مطلع القرن التاسع عشر. كما نذكر أول مطبعة في الشرق كله وهي مطبعة دير مار انطونيوس قزحيا (وادي قاديشا) سنة ١٦١٠، يوم كان أكثر العالم المتمدن الآن، يرى في تلك الآلة شيطاناً مخرّباً ومهدّما. ولم تنشأ مطبعة في السلطنة العثمانية إلا سنة ١٧١٧، اي بعد مئة وسبع سنوات من تأسيس أول مطبعة لبنانية، وقد سمح بتأسيس مطبعة استنبول بموجب فرمان من السلطان وبشروط وتحفظ.

فالمطبعة في دير قزحيا والمدرسة في عين ورقة هما من ثمار اولئك العلماء المفضلين، وليس من منصف يخطر بباله أن ينكر أن في التيار التحرري الذي بدأ يعصف منذ أواخر القرن الماضي بالعالم العربي لأجل ايصاله الى المستوى الانساني الكريم قبساً من تلك الشعلة، وان بعض أسس في «ورشة» النهضة الثورية التي يحاول أحرار العالم العربي أن يبنوها اليوم قد اعدّتها تلك البذور.

ولم يكن من طائفة، في جميع الطوائف العائشة في هذه الديار، تعنى بمثل تلك النهضة العلمية التي ولدتها المدرسة المذكورة أسلوباً ومواد ولغات. الا أن «العلماء» في بلاد بشارة (جبل عامل) لم ينقطعوا عن التعليم، برغم الاضطهاد والتضييق والمطاردة الحالّة بحبلهم من الوزراء العثمانيين بسبب كونهم شيعيين، ناهيك باعتداءات جيرانهم عليهم. وكان تعليم علماء الشيعة بأسلوب قديم جدا، مغلق وشديد الصعوبة، محصوراً في الفقه واللغة ومبادىء الحساب وتاريخ الشيعة، وذلك ليحسنوا الجدل دفاعاً عن صحة مذهبهم. ومن الحق الاعتراف لأولئك العلماء المعزولين بأنهم خدموا العربية، مع خدمتهم التشيع، خدمات جلى.

واما الطوائف الأخرى فكتاتيبها قبل منتصف القرن الأخير قليلة لا تذكر باستثناء بعض مدارس ارثوذوكسية.

والتعليم عند الجميع في يد الكهنة والمشايخ وهم بأكثرهم الساحق أميون، وأفقهم ضيق.

☆ ☆ ☆

لنفتح هنا نافذة كي نطلّ منها على الغرب.

الغرب المجدد طمعه، بل صاحب الطمع الدائم بالشرق.

على الغرب المنظم لهذا الطمع، ذي الشعارات الانسانية، والتحضيرية، والسلمية، التي تستر كسب التجارة.

وهي تجارة تسخر الكنيسة، والعلم، والدبلوماسية. تتسلل بالثقافة والكنائس والمستشفيات والاحسان، وبأية وسيلة أخرى تملكها لتحقيق هدفها.

ومع أن الثورة الصناعية في الغرب قد أثّرت تأثيراً كبيراً في نفسية شعوبه، وخلقت فلسفة اشتراكية ستقلب العالم، فقد بقيت في نفس

كثيرين من رجال ذلك الغرب التاجر، حتى في العلمانيين منهم والدهريين* العاملين في الشرق العثماني، ذكريات صليبية، وهذا يعني أن الغرب الذي تبدلت، أو تطورت وتعدلت ذهنيته وسياساته وأنظمته في كثير من بلدانه، لم يتبدل طمعه بالشرق.

الشرق ظل، ويظل، شرقاً!

ولنبدأ بفرنسا التي لعبتها منذ القدم بجذب الموارنة اليها:

فمن ذكريات التاريخ أن الحملة الصليبية التي مرت بلبنان في طريقها الى القدس، اوجدت عشقاً وغراماً بينها وبين الموارنة – ومن الضروري هنا التذكير أن ذينك العشق والغرام قد وجدا أيضاً ومراراً، ولمقتضى الظروف (طبعا ...) بين المسلمين والصليبيين، على اختلاف مذاهب الاولين وقوميات الآخرين – وصار الفرنسيون يحيون تلك الذكريات القديمة كلما احتاجوا الى موطىء قدم في المشرق سبيلاً الى تجارتهم. (لم يكن النفط معروفاً، وانما التجارة يومها مصنوعات يدوية بدائية، وجوخ، وحرير، وصابون الخ...) فما لوّح قس فرنسي بذكرى صليبية الا هبّ الاحفاد على بكرة أبيهم يجيبون بملء أصواتهم وبدموعهم!

واخذ العشق والغرام يفيقان:

إن في فرنسا دهاة وعباقرة من تلاميذ ريشليو[٢] ومازاران[٣] (!!) أخذوا يضعون خطط «التسلل السلمي» الى المشرق العربي على أكتاف أعزائهم الموارنة، وهؤلاء في فقر وخوف دائمين، فلم لا يلبون صوت الدولة (الحامية والصديقة) ذات الصولة والمال والايمان الكاثوليكي المستقيم؟ ألا: ما احسن الدين والدنيا اذا اجتمعا!*

(*) هم الذين لا يؤمنون بالله تعالي.

(*) في ١٥ حزيران (يونيو) ١٦١٦ انشئت أول قنصلية فرنسية في «شواطىء فونيقية» (صيدا وفلسطين). وكان مركز القنصلية قبل ذلك التاريخ في مدينة حلب، وهي تحمي وترعى مصالح الفرنسيين في سورية ولبنان وفلسطين.

وبدأت اللعبة الرسمية ببراءة أصدرها الملك لويس الرابع عشر في ٢٨ من نيسان (ابريل) ١٦٤٩ لحماية الموارنة قال فيها:

«لويس، بنعمة الله ملك فرنسا ونافار Navarre، الى جميع الذين يطلعون على هذه الرسائل سلاماً اننا نعلن بموافقة الملكة الوصية، سيدتنا الوالدة الكلية التشريف، اننا كنا قد أخذنا ووضعنا، كما نأخذ الآن ونضع بواسطة هذه الرسائل الموقع عليها بخط يدنا، تحت حمايتنا ورعايتنا الخاصة، السيد البطريرك الكلي الاحترام، وجميع الأساقفة والاكليروس والعامة من المسيحيين الموارنة الساكنين بصورة خاصة في جبل لبنان. ونريد أن يشعروا بهذه الحماية في كل حادث. ولهذا نسأل حبيبنا والمخلص لنا السيد دي لاهاي فانتيليّ المستشار في مجالسنا وسفيرنا في المشرق، والى جميع الذين يخلفونه في هذا المنصب، كي يسعفوهم جماعةً وأفراداً، بعنايتهم ومساعداتهم وحمايتهم، سواء لدى باب عزيزنا جداً وصديقنا الأكمل السلطان الاعظم، أو في أي مكان آخر تقتضيه الحاجة، بحيث لا يعاملون أية معاملة سيئة. بل يجب أن يكونوا بعكس ذلك قادرين على إكمال أعمالهم وواجباتهم الروحية بحرية. ونأمر قناصل الأمة الفرنسية، ونواب القناصل، المقيمين في مرافىء المشرق وأساطله، وفي سواها من الأماكن المستظلة بالراية الفرنسية، الآن وفي المستقبل، ان يساعدوا بكل طاقتهم السيد البطريرك المذكور، وجميع المسيحيين الموارنة سكان جبل لبنان. وان ينقلوا على المراكب الفرنسية، أو على سواها، الشبان الموارنة وسواهم من جميع المسيحيين المارونيين الذين يريدون الانتقال الى البلاد المسيحية، إما للدرس أو لأية أغراض اخرى، وأن لا يطلبوا منهم أجراً إلاّ ما يستطيعون تأديته. ويجب أن يعاملوهم بكل لطف ومحبة. ونطلب ونرجو من السادة العظام

الاجلاء، باشاوات الذات العلية السلطانية وقوادها، ان يسعفوا ويساعدوا السيد رئيس أساقفة طرابلس وجميع رجال الاكليروس والشعب الماروني. ونحن نعدهم بدورنا بأننا نعمل شبيه هذا العمل مع الذين يحملون الينا توصية منهم»(*).

ان هذه «البراءة» لم تكن بيضة الديك من فرنسا، وقد صار لهذه الحامية الكريمة «ابناء» جدد بعد الموارنة، وهم أبناء الطوائف الكاثوليكية المستجدة، فشملتهم بحمايتها من بشاعات تصرف الحكام العثمانيين، ومن ظلمهم وسوء ادارتهم، فاعترف لها السلاطين بهذه الحماية وصارت حقاً لها مشروعاً بموجب فرمانات ملكية.

وحذا قياصرة الروس حذو فرنسا، وطالبوا بحماية الارثوذكسيين العثمانيين ولكنهم فقدوا الدهاء الدبلوماسي. واستغل الدهاء الانكليزي ذلك الفقدان فأضلَّ أصحابه غير مرة.

وكان القيصر بطرس الكبير (١٦٨٢ - ١٧٢٥) الذي عايش هذه المساعي لحماية كاثوليك الشرق، وقدّر استفادة فرنسا منها، قد قرر استغلال الارثوذكسية العالمية لتحقيق المطامع الروسية، فترك في وصيته السرية لخلفائه، نصاً يتعلق بهذا الاستغلال قال فيه:

«... البند الثاني عشر: ينبغي أن نستميل لجهتنا جميع المسيحيين الذين هم من مذهب الروم المنكرين رياسة البابا الروحية، والمنتشرين في بلاد المجر والممالك العثمانية وفي جنوبي ممالك بولونية، ونجعلهم أن يتخذوا دولة روسية مرجعاً ومعيناً لهم. ومن اللازم قبل كل شيء إِحداث رياسة مذهبية حتى نتمكن من اجراء نوع نفوذ

(*) رينه ريستلهوبر: «تقاليد فرنسية في لبنان»، ص ١١٧ و ١١٨ - اما رئيس أساقفة طرابلس المذكور هنا فهو المطران اسحق الشدراوي الذي كان رسول البطريرك الى الملك. وكان بديهيا أن لا ينسى نفسه ... وفي اضبارات وزارة الخارجية الفرنسية، ووزارة البحر، والمكتبة الوطنية بباريس، نسخة عن هذه التوصية الملكية.

وحكومة رهبانية عليهم، فنسعى بهذه الواسطة لاكتساب أصدقاء كثيرين ذوي غيرة نستعين بهم في ولاية كل من اعدائنا.»*

ونال الروس هذه الأمنية مقتفين أثر الفرنسيين. وصارت لهم مواقف غاية في التناقض والغباء، في البلقان وأرمينية ولبنان، وبخاصة في لبنان.

ودولة واحدة عرفت ماذا تريد، وكيف تحقق ما تريد، ثم تدافع عنه، وكيف تحرق مدينة لتشعل سيكارتها، وتوقظ الفتنة في ابناء البلد الواحد فيذبح بعضهم بعضاً ليصير بلدهم في قبضة يدها، وكيف تشرد قوماً عن ديارهم وتأتي بشذّاذ من أقطار كثيرة بعيدة وتقيمهم في هذه الديار:

انها انكلترة التي ضربت فرنسا بروسية وبالسلطنة العثمانية طوال قرن ونصف القرن ولم تشبع من قهر اللبنانيين. - ان انكلترة التي فشلت مساعيها باقصاء النفوذ الفرنسي عن بلادنا قررت بدورها أن تكون، هي أيضا، حامية إحدى أقليات لبنان واختارت الموحّدين (الدروز)!

ولكن لا نستبقن الحوادث...

أما السلطنة العثمانية المترامية الأطراف، والتي لا تغيب الشمس عن ممتلكاتها ذات القوميات المتضاربة الأصول والمعتقدات الدينية، فكانت في جهل، وفوضى، وانحطاط.

(*) «تاريخ الدولة العثمانية» لمحمد فريد بك: ص ١٥٥ (ط ٣) - «وتاريخ جودت» ص ٣٩٥.

الى الاستقلال اللبناني

فخر الدين المعني الاول، حكيم الازدلاف الى الفاتح العثماني، وفيلسوف الدعاء العذب له، توفي سنة ١٥٤٤ تاركاً إمارته، سلطنة البر، لوحيده قرقماس* وفيها بعض اهتزاز وهدوء غير تام، فيما المنطقة التي تحيط بها مضطربة غير مستقرة، تمر بانتفاضات محلية شبه متعاقبة، سواء في سورية أم في فلسطين.

وبديهي أن تتأثر الامارة المعنية باضطرابات الجوار: فالمحيط الذي أخذنا عن الغربيين تسميته بالعالم العربي كان محيطاً بدوياً الى مدى بعيد، باستثناء مدنه القليلة، يعيش سكانه (ومنهم جدودنا في بعض الحالات) عيشاً عشائرياً مصطبغاً بشبه مظاهر حضرية، فهم ينتقلون بخيامهم وعيالهم ومواشيهم من برية الى أخرى بدون جواز سفر ولا تضييق، الا اذا خصّت التربة الجديدة قبيلة بالذات، أو أنها من مراعي قبيلة أخرى، فهي عندئذ محرّمة عليها بموجب عرف القبائل، وكثيراً ما كانت تعقد المصاهرات بين امراء العشران - شيوخ القبائل - من مختلف الديار، حتى يسهل الاختلاط في ما بينهم ويؤدي الى تحالف، أو مودة في الأقل، وعنا أخذت أوروبة هذا النوع من المصاهرة المألوفة عند العرب منذ القدم البعيد.

وسبب أكثر الاضطراب الثائر في جوار الإمارة المعنية أن حكامه المحليين فوجئوا بأن «حساب الحقلة لم يستوِ وحساب البيدر» اذ بدأ الفتح العثماني ينجلي بحقيقته لهم، وأول عيوبه كونه من أسلوب حكم المماليك السيء - سنّة سنّها أباطرة الرومان لما حكموا هذه البلاد واقتفاها الفاتح الأخير -

(*) اسم تركي معناه: جريء، لا يخاف.

قانعاً بالضريبة التي تؤديها له الأرض المحتلة، وناعماً بلقب حامي الحرمين الشريفين وامارة المؤمنين بعد أن «غنم ما تيسر من ثروة المماليك وأغنياء البلاد، وزاد في الضرائب والمكوس، ونصّب حكاماً ممن استأمنوا اليه، أو خانوا الدولة الأولى وتقربوا اليه من أهل البلاد ومن الحكام» – محمد كرد علي في «خطط الشام»: ج ٢، ص ٢٣١.

اضف الى تلك الحالة المضطربة في الجوار تبدلاً طرأ على التوازن بين دَيكة المشيخات المحلية في لبنان بسبب تقديم فخر الدين المعني عليهم سلطاناً على البر، واكثرهم أو بعضهم لا يقر له بهذا التعظيم.

وان صح الاستنتاج أن السلطان أراد من تقديم ابن معن على زملائه الحكام الآخرين أن تسهل على حكومة السلطنة مراجعة حاكم واحد بدلاً من مراجعة عشرة حكام في منطقة واحدة، فالواقع أدّى الى أن ترئيس فخر الدين طبع لبنان كله، ولأول مرة في تاريخه، بطابع شبه وطني بالمعنى الصحيح، وصيره شبه «دولة» اذ وحّده بعد أن كان مجموعة إمارات محلية مبعثرة ومتناحرة، صدق فيها قول الشاعر:

قـام بـكـل بـقـعـة مـلـيـك   وصاح فوق كل غصن ديك!

ونتج عن إعلان فخر الدين سلطاناً على البر أن غصَّ ابن حنش[1] شيخ العربان في البقاعين[2] وصيدا، وغصّ ابن حرفوش شيخ شيعة بعلبك، وغص ابن سَيفا[3] (بفتح السين) الحاكم الكردي في طرابلس، وابن عساف[4] التركماني القائم سعيداً في عاصمته غزير، وابن شعيب الكردي الحاكم في عكار وكلّهم يريد أن يكون مع ابن معن على قدم المساواة، ان لم يتفوّق عليه.

وعن اولئك الغاصين شذَّ الموارنة في الشمال، العائشون في قممهم بعيدين عن الفتح والفاتح. وسيحالفون المعنيين طوال عهدهم محالفة الصدق والوفاء. فهم، على عيشهم في الأعالي المثلجة وحياتهم الجبلية

القاسية يفتتون الصخور ويحرثون تربتهم الضيقة المتعبة، ساهيرين على شجرة التوت ودودة الحرير – هم قانعون بالشظف لأجل أن يتمتعوا بحريتهم الدينية، بعيدين عن المسيئين اليها. ولم يعرف الموارنة منذ أن لجأوا الى لبنان حكاماً أعدل وأسمح وأرحب صدراً من بني معن، كما أن المعنيين لم يعرفوا أوفى بهم، وأحبَّ لهم وأخلص، من الموارنة.

وزاد في حسد الاقطاعيين المحليين لابن معن طمع وجبن وطيش وتقلّب، فقد استشرت ريح العصبية بين اليمانية والقيسية التي نقلتها القبائل العربية الى هذه البلاد قبل ظهور الاسلام فقسمت لبنان قسمين، وكذلك قسمت سورية وفلسطين، وبخاصة فلسطين.

ان قرقماس المعني أتبع نهج والده في توطيد استقلاله، عادلاً في الرعية وساعياً الى العمران، مراعياً خاطر الدولة العثمانية، بتأديته لها الأموال الأميرية في مواقيتها، بعد جبايتها من الحكام المحليين بدون ارهاق ولا تبليص، بينما هؤلاء يبتزّون الفلاح.

واستمر هذا السلوك الحكيم أربعين سنة الى أن حلّت الكارثة التي قضت عليه، وموجز خبرها المبهم أن شرذمة من الجند العثماني كانت تنقل «الخزينة السلطانية»* من مصر الى استنبول، وفي وصولها الى جون عكار سطا عليها أناس مجهولون أتفق المؤرخون على القول أنهم لصوص ونهبوها.

لصوص؟ إنّا لنرتاب في حقيقة النعت. فمتى عفت القبائل الضاربة في السهول عن مثل ذلك السطو؟ ولماذا نستبعد صحة اتهام حكومة استنبول أكراد يوسف باشا سيفا حاكم عكار بأنهم الساطون الناهبون؟ هل يعقل أن يأتي اللصوص من خارج المنطقة النائية للسلب والنهب واسم اميرها البطّاش القهّار يوسف باشا يلقي الذعر في القلوب؟

(*) هي مجموع الضرائب السنوية التي يجبيها ولاة المقاطعات من الفلاحين فريضةً للسلطان.

ايًّا كان لون السالبين فان عملهم خرب لبنان اذ أغضب السلطان غضباً شديدا، ولو قيل له إن سكان عكار، ومعهم سكان طرابلس جميعاً، هلكوا في كارثة لما أحس بأقل شعور يحرّكه، واما أن يفقد مالاً من خزينته فيا ويل الفاعلين!

ولهذا زحف حاكم طرابلس الى عكار وبدأ باحراق منازلها فأرسل يوسف سيفا من يهمس في أذنه بأن اللصوص إنما هم الشوفيون رجال المعني والكسروانيون رجال ابن عساف التركماني.

واوصلوا الوشاية على جناح السرعة الى والي مصر مرسل الخزينة المسروقة، وهو بطاش مخيف اسمه ابرهيم باشا خطر بباله ذات يوم أن يهدم الاهرام (!) فهبَّ للانتقام من المتهمين ومعه:

«عساكر جرارة من مصر وقبرص وحلب ودمشق وخيم في البقاع وضربت له الطبول فدبّ الرعب في قلوب الناس. وارسل الى الحكام في الشوف وكسروان يطلب منهم تسليمه سالبي الخزينة ويضرب عليهم نفقة عساكره، ولا سيما من الأمير قرقماس المعني. وأمسك على الدروز طريق البحر والبقاع فحضر اليه الأمير محمد ابن جمال الدين (التنوخي) من عرمون وابن عمه الامير منذر من عبيه والأمير محمد عساف التركماني من غزير (المتهم مع المعني). ولما رأى الأمير قرقماس المعني أن امراء لبنان انحازوا الى الوزير التركي وغادروه منفردا، فرَّ بعياله ومدبره الى مغارة تيرون (نيحا) تحت جزين واختبأ فيها (...) فانحدر الوزير ابرهيم باشا من البقاع على طريق بيروت على عين صوفر فقدم عقال الدروز ووجهاؤهم فغدر بهم وقتل نحو ستمائة نفر كما ذكر ابن سباط، وصادرهم بمليون قرش ورتّب عليهم مالاً استقر عليهم لاختلافهم وتفرق كلمتهم ... اما الامير قرقماس فتأثر لما جرى له مع الوزير ومرض

وتوفي قهراً في مخباه سنة ٩٢٢هـ. (١٥٨٤م) فحزن الشوفيون عليه ورثاه الشعراء.»

الشدياق: ص ٢٥٢، وعيسى اسكندر المعلوف: ص ٤٦ (ط ٢).

«... وأبحر (الوزير التركي ابرهيم باشا) من بيروت الى استنبول في اسطول من عشرين مركباً تركيًّا حاملاً معه ثلاثة امراء أسرى ومديري جمركَي طرابلس وبيروت، واكثر من مليون ذهب. ما عدا الهدايا والأمتعة الثمينة من حرير ومنسوجات، فوصلت هذه التحف بوقتها لسد حاجات السلطان في حروبه فضلاً عما نهبه الباشا من بلاد الدروز من المال والأمتعة التي صادرها منهم...»

المعلوف: ص ٤٧.

☆ ☆ ☆

مات قرقماس المعني في مغارة نيحا مكسور الخاطر مقهوراً، تاركاً يتيمين، احدهما ابن اثنتي عشرة سنة اسمه فخر الدين، سيتلألأ نجمه في التاريخ، والآخر اسمه يونس وعمره ثماني سنين، ومعهما والدتهما الأميرة نسب التنوخية احدى أعقل النساء وأفضلهن واطهرهن.

وهنا، بعد مأساة الامير قرقماس في المغارة، تُستبهمُ الحالة على المؤرخ، فلا ندري حقيقة ما جرى بالتدقيق. يقول الرواة إن أخا الست نسب، خال اليتيمين[5] خلف صهره قرقماس بولاية الشوف، وان المقاطعة استأسد اعداؤها وتدنّت شأنا. فرأت الست نسب الحصيفة أن تخبىء اليتيمين خشية شر ينزله بهما خصوم والدهما، واتفقت مع أخيها على إبعادهما الى مقاطعة أخرى لا يعرفهما فيها أحد. وقيل أيضاً إن أحد موالي البيت المعني ويكنى بأبي مصلح، حقق للوالدة أمنيتها وخبأ الصغيرين في انطلياس عند صديق له إسمه ابرهيم الشدياق سركيس الخازن[6] ثم انتقل هذا بهما الى مزرعة صغيرة نائية عن العيون في أحراج كسروان اسمها بلونة، على مقربة من قرية عجلتون.

ومرت ست سنين ورجع أحد اليتيمين، فخر الدين، الى قومه في بعقلين شابا، وساعده خاله وجماعتهما القيسية على ولاية حكم الشوف، ثم لحق به أخوه يونس وعمل ذراعا يمنى له في تقوية حكمه.

شبّ فخر الدين الثاني يكره عمال الحكم العثماني والاقطاعيين البلديين الذين حقدوا على والده وتآمروا، وفي مقدمتهم ابن حرفوش (بعلبك) وابن فريخ (البقاع) وابن سيفا (طرابلس). وقالت له امّه ان السلطان العثماني سليماً الذي جعل فخر الدين المعني الاول «سلطان البر» ومكن له في الأرض ما نهج نهجه الفطن الا لكون أسلوبه يقوّي السيطرة العثمانية على بلاد الشام ومصر، المنطقة المنفتحة على بحر الروم، لتمر بها تجارة الشرق والغرب ذهاباً واياباً، وان الوزراء الذين صارت تعيّنهم استنبول عمالاً لها في دمشق والقاهرة هم بأكثرهم جراكسة وترك من بقايا المماليك الذين ضجت منهم الناس في كل منطقة حكموها.

وكذلك راجع الأمير الشاب مع والدته العاقلة جميع الأحداث التي مرت بالشوف ولبنان، وبالمنطقة كلها، منذ معركة مرج دابق حتى يومهما الذي هما فيه فوجداها أزمات منبثقة من عدة أسباب، أهمها أن وزراء استنبول الى هذه البلاد يشترون وظائفهم بباهظ الرشى وثمين الهدايا الى السلطان وحريمه[٧] وحاشيته ذات النفوذ الاول في حكم السلطنة المترامية الأطراف، ولا يهدف الوزراء الى سوى استرجاع ما بذلوه مضاعفاً بفرضهم على الاقطاعيين البلديين ضرائب منوعة لقاء تأجيرهم المقاطعات ليحكموها ويستغلوها. وهؤلاء الحكام يسترجعون، بدورهم، من وكلائهم ضامني النواحي أضعاف ما ادّوه للوزراء. ومن الشعب الكادح، النشيط، يسترجع الوكلاء أضعاف أضعاف الضريبة التي دفعوها. وفي تلك الحالة قال جدودنا: «من هالك الى مالك، الى قبّاض الارواح»!

وصار هذا الأسلوب يشجّع المتطوحين من اقطاعيين البلديين والمتبلدين، عربا وجراكسة وتركمانيين، على استئجار المقاطعات لأجل الابتزاز،

وللتباهي بالمقام ولقبه وسلطانه، دون أن تخطر ببالهم أية عناية بالزراعة والصناعة، ولا بالأمن والعدل، لتأمين الرغيف للناس.

فماذا يعمل فخر الدين وهذا حال المنطقة كلها بما فيها مقاطعته؟

لقد رأى مع والدته العاقلة أن يكون رأس الحكمة عنده أخذ الناس بالعدل، وإحكام محالفاته المحلية في وجه أعداء بيته ومنافسيه ولا سيما الجماعات اليمانية، ومعاملة استنبول ووزرائها على الشام معاملة لبقة حذرة: ان يؤدي لهم الجزية صاغراً في مواقيتها، ويجزل في العطاء للموظفين العثمانيين الموفدين اليه.

ومع ذلك التملق والحذر - والمنافقة هنا بعض فضيلة - انتدب وكيلا (سفيراً) عنه الى استنبول يقيم فيها، مهمته الظاهرة متابعة المعاملات الرسمية وتعجيلها، وايصال هداياه الى أصحاب المناصب في المعايدات والمناسبات المنوعة، وله مهمة أخرى سرية لتسقّط الأخبار التي تتعلق بسيده وبالمنطقة. وبذلك التصرف الحكيم عاش فخر الدين مصافياً أولي الامر، في مدالسةٍ وتنبّه: يجامل ولا يطمئن، ولا يقع في الفخ. ولعله أول حاكم في لبنان عمل بالتقيّة[٨].

ومرت الأيام.

لمع فخر الدين الثاني حاكماً بانيا، ممتازا بجرأة وذكاء وتسامح ديني مثالي[٩]، فامتد حكمه شرقاً وشمالاً وجنوبا. ووطد الامن. وعني بالزراعة والصناعة مستعيناً بخبراء من ايطالية. ونشط بخاصة الى تشجيع التجارة المحلية والتجارة العابرة (الترانزيت) بين اوروبة وآسية، فسهّل للغربيين حرية الاقامة الآمنة، والممارسة الدينية الكاملة بلا تضييق ولا إهانة، ومنع من تبليصهم والاعتداء عليهم وعلى نسائهم وأولادهم. وجعل من صيدا

وبيروت مرفأين مزدهرين، اتخذهما عاصمتين لإمارته اللامتناهية والناهضة الى العمران العصري، حتى صار لبنان في أيامه اللؤلؤة الحقيقية الوحيدة في الشرق المتخلف.

وخفقت رايات فخر الدين بمن جمع من جنود لبنانيين ومن مغاربة وجراكسة وكرد مأجورين، وتعالت فوق حصون كثيرة في سورية: في حوران وصافيتا وبانياس وانطاكية وحماة وحلب وسلمية وتدمر الخ... كما رفّت فوق قلاع عجلون وصفد وحيفا في فلسطين.

وحالف الاقوياء من جيرانه، وحطّم اعداءه ورجّف منافسيه رعباً.

وبعد، فالى اين يا فخر الدين؟

الى تحقيق حلم لم يحلمه حاكم لبناني: فقد شجعه القناصل ورهبان الارساليات والتجار الاوروبيون العائشون سعداء في إمارته، وشجعته حالة الاضطراب المستفحل في جميع أنحاء المنطقة، وأزمات السلطان العثماني مع دولة الفرس في الشرق، وهي العدوة اللدودة في نظر بني عثمان منذ ساعتهم الاولى في أرث الامبراطورية البيزنطية، ومع دولة المجر في الغرب وهي طريقهم لاكتساح اوروبة - تلك الحالات مجتمعة شجّعت فخر الدين على مدّ بصره الى الدول ذات العلاقة التجارية والقنصلية به، وفي مقدمتها دويلات ايطالية التي ورثت حلم الصليبيين التجاري الديني في الاستيلاء على فلسطين وما يحيط بها من بلدان الشرق العربي، فعاهد الغراندوق فرديناندو أمير مقاطعة توسكانية على أنه يحقق له مصالحه، وهي مخيفة وكثيرة، في قبرص وسورية وفلسطين، لقاء توطيد الامارة المعنية وإبعاد الترك عن المنطقة العربية كلها.

وكذلك، وللغاية عينها، فاوض فخر الدين ملك اسبانية المسيطر على أكثر ايطالية الجنوبية وصاحب المطامع المنوعة في الشرق. وفاوض أيضاً البابا بولس الخامس في روما، وهو يومها ملك زمني. وفي رسالة كتبها اليه

البابا المذكور يشكره فيها «على عطفك العظيم على أولادنا المسيحيين، وخاصة الموارنة»، نقرأ في رأسها هذا العنوان: «الى فخر الدين أمير الدروز ونيقوميديا وفلسطين وفينيقية»*

فذلك النشاط المكشوف فتح عين استنبول على الأمير الطموح، ناهيك بالوشايات المحلية من خصومه واعدائه، فطاردته الحكومة العثمانية واضطرته الى الهرب الى مملكة توسكانة (١٦١٣). وفي ايطالية عاش خمس سنين يفاوض أعداء استنبول والحاقدين المتربصين بها كي يعدّوا بالاتفاق معه حملة على المشرق. ولم يوفق.

وبمساع حثيثة نال عفوا من السلطان مراد الرابع فرجع الى لبنان بعد غياب طال خمس سنين، أتاحت له أن يخبر بنفسه ويرى تنامي النهضة الاوروبية فنقل ما استطاع نقله منها الى بلاده. ولكن رجوعه المشحون بالاحقاد وأحلام النسور زاده تهوّرا:

فهوذا يوسف باشا سيفا، عدوه وقريبه بالمصاهرة، الامير النهاب الوهاب حاكم طرابلس وعكار وجوارهما، لا يغفر له المعني ما جرعه من المصائب من جراء منافسته وعدائه وتعذيبه والدته الست نسب في غيابه حتى سبب سجنها في دمشق فيزحف فخر الدين عليه الى عكار ويحصره في حصن الأكراد حتى طرده مع ذويه من لبنان كله وهدم بلدته فيتغنى شعراء المعني بأنه نقل حجارتها الى دير القمر ليبنيها بها!

وهوذا عدوه الآخر وقريبه بالمصاهرة، يونس الحرفوش، الذي بقي عدواً لدوداً له، يحرّض عليه عمال السلطان في دمشق فتقع الحرب بين فخر

(*) نيقوميدية: الاسم القديم لمدينة أزميت التركية على بحر ايجه، ولا نعرف من أدخل في روع البابا أن فخر الدين يحكم مدناً تركية!.. وأما رسالة البابا اليه فترجمها الخوري بولس قرالي في كتابه «فخر الدين المعني الثاني حاكم لبنان، ودولة تسكانه»: ج ٢، ص ١٧٤ - وهذا الكتاب اكمل ما كتب حتى الآن عن فخر الدين، على ما فيه من تعديل وتغيير في بعض نصوص الوثائق التي استند اليها. وقد صار المرجع الرئيسي لمعرفة فخر الدين، وعنه يأخذ الكتّاب الجدد.

الدين وبينهم في عنجر فيهزمهم شر هزيمة (١٦٢٣) ويأسر مصطفى باشا والي الشام وقائد الحملة، إلا أنه يعامله بمنتهى الاجلال والاعتذار لأنه وزير جلالة السلطان.

ويضرب فخر الدين هنا وهناك، ويستولي على مقاطعات جديدة في الشمال والجنوب، ويولي الأنصار والأصدقاء ويعزل الأعداء والحساد، وصارت أمارته أكبر مقاطعة عربية في السلطنة فلقّبه سيد استنبول بسلطان البر، لقب جده فخر الدين الاول. وقال المؤرخ الدمشقي محمد المحبّي في خلاصته «... وبالجملة فقد بلغ (فخر الدين) مبلغاً لم يبق وراءه إلا دعوى السلطنة».

«خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر»: ج ١، ص ٣٦٨، (بيروت، دار صادر).

ولم تطل الأيام.

ابلغ السلطان مراد الذي عفا عن فخر الدين أن الرجل الذي عامله بالحلم صار خطراً على عرشه، فأمر باعتقاله ونقله مع بنيه الى دار الخلافة. وأحسن الأسير رد التهم عنه فسامحه السلطان ثانية. ولكنه لم يلبث أن غضب عليه من جديد، اذ أخبروه أن الأمير ملحم يونس، ابن أخي فخر الدين وخلفه في الإمارة، يعيث فساداً في المنطقة، فأمر السلطان بشنق ضيفه سلطان البر وشنق أبنائه معه (١٦٣٥) إلا صغيرهم الأمير حسن الذي خلص من المصير المشؤوم وعاش في استنبول موظفاً متتركاً وكاتباً عالما، وترك أبناء وحفدة قد يكون من هم من نسلهم اليوم*.

(*) فخر الدين وعهده يحتاجان الى دراسة موضوعية. فالكتّاب الذين لم يحبوه، وهم بأكثرهم من معاصريه، حملوا عليه حملات ظالمة. واما الذين أحبوه فأوصلوه الى السماكين حتى صيّروه أسطورة أو شبه اسطورة، مدفوعين بعاطفة وطنية جامحة اذ مثل في نظرهم أنه البطل اللبناني الانوف أبو الوحدة الوطنية. وجميع الكتّاب ظلموه!

وفرح بتلك النهاية المؤلمة كثيرون. ولم يكن فرحهم الا شماتة مخجلة. ففخر الدين كان على أخطائه الكبيرة رجلاً عظيماً أريحيا.

واتبع خلفه الأمير ملحم سياسة الخضوع للسلطنة العثمانية وعدم إغضاب عمالها، ولا عمالهم، وتعلم حنكة عمه في الرشو والهدايا اليهم. وحكم ربع قرن باذلاً جهده في استبقاء الأصدقاء والحلفاء القيسين، وفي انقاذ ما يستطيع انقاذه من التركة الكبيرة، ولكن الفاجعة شجعت متزعمي المنطقة على الاستنسار والاستشاد. وصار «الشاطر» من يزيد في التملق لموظفي استنبول، ومن يتبرأ من عهد «سلطان البر» أو من يخونه في قبره، لعلهم يحظون بعظمة من مغارته..

توفي ملحم في صيدا ودفن فيها (١٦٥٩) وخلفه ولداه قرقماس وأحمد. ثم بقي احمد وحده في الحكم بعد وفاة أخيه، واقتفى أثر والده ساهراً ومحافظاً على قيادة الحزبية القيسية التي ظلت شعار المعنيين. وحكم الأمير أحمد ثماني وثلاثين سنة ومات (١٦٩٧) بلا عقب ذكر.

وانتقل الحكم الى ابن أخته الأمير بشير بن حسين الشهابي من راشيا المشهور بنزعته القيسية.

ومما يشار اليه في أواخر حكم أحمد المعني أنه في سنة ١٦٩٥، في عهد البطريرك الملفان اسطفانوس الدويهي، تأسست أول رهبانية مارونية. وسيكون لنتائج هذا التأسيس يد في تطوير الطائفة المارونية، أقوى طائفة في الشرق كله باتحاد ايمانها بايمان الكرسي الرسولي بروما.

قَيْسِي ويَماني

القيسية واليمانية مسمى لحزبية عربية نشأت في الجاهلية وانتقلت الى لبنان وسورية وفلسطين قبل الفتح الاسلامي فعاشت قرونا عديدة فيها وأثّرت كثيراً في حياة سكانها:

ان اليمانية قبائل من بني مضر المنحدرة من قحطان نزحت من ديارها في جنوبي الجزيرة العربية، قبل الاسلام، طلبا لمساقط الغيث ومنابت الكلأ لمواشيها. واعظم تلك القبائل واكبرها «بنو كلب»، وقد ضربت في الأراضي التي سماها العرب بلاد الشام ويطلق عليها الجغرافيون الغربيون اليوم اسم «سورية الطبيعية».

وكان في تلك القبائل جماعات تعمل في الصياغة والحياكة والنجارة والبناء والحدادة (صناعة السيف والخنجر والرمح) وفي مختلف الحرف التي تحتاج اليها، مما يدل على أنها متحضرة «نسبيا»، ولم تكن بدوية راعية ماشية فقط، كما زعم دائماً العلاّمة الأب لامنس المستشرق البلجيكي غفر الله له، ولنا!

وعلى توالي السنين تبلّد النازحون المذكورون وصاروا من «أهل الشام»، ولكنهم ظلوا على تقاليدهم ونزعاتهم وعاداتهم القبلية، ونشروا بعضها في جوارهم. وبلغ من تكاثرهم أن قويت بطونهم وامتدت أفخاذهم وانشأوا امارات في حمص وتدمر والبتراء ولبنان. وما الغساسنة، وهم من أزد، الذين ضربوا في جانب الشام سوى من عشرانهم، اعتنقوا المسيحية اليعقوبية، وبنوا دولة في حوران والاردن، ومنهم انحدرت أسر كثيرة

انتقلت الى لبنان على التوالي، منها أسر عديدة تمورنت وبعضها صار ذا شأن في المجتمع الماروني، فالمجتمع اللبناني، وتصدّر.

ومثل الغساسنة المناذرة الذين بنوا دولة الحيرة في العراق.

ويجوز القول إن الغساسنة الذين تبلّدوا ديار الشام واعتنقوا الدين المسيحي – وظلت الناس تسميهم باليمانية – صاروا طلائع البورجوازية الجديدة فيها، ووجودهم سيساعد جيوش الفتح الاسلامي، وهي جميعها عربية، على تحقيق مهمتها. ذلك لأن الغساسنة كانوا يعتبرونها جيوش «تحرير قومي».

وبديهي أن يكون الغساسنة النصارى على ذلك الرأي، فالدين وحده ما استطاع، وهيهات أن يستطيع، حملهم على نكران قوميتهم. والبيزنطيون أوروبيون وان شرّقوا، والغساسنة عرب وان تنصّروا. ناهيك بأن نصرانيتهم يعقوبية بعيدة في ذلك الزمان عن نصرانية القسطنطينية.

ويؤكد لك ذلك الرأي الغساني في جيش الفتح ما رواه أبو عبيد القاسم بن سلام في كتابه «الأموال» قائلاً:

«حدثنا هشام بن عبد الملك بن قيس قال: كنت في من تلقى عمراً مع أبي عبيدة (الجراح) في مقدمه الشام، بينما عمر يسير، اذ لقيه المقلنسون الكهنة الذين يعتمرون القلانس من أهل اذرعات بالسيوف والرياحين.» ط. القاهرة، تحقيق محمد خليل، ص ٢٢٣.

ونصارى اذرعات هم من بني تميم وغسان وتغلب.

وقبل هذا الخبر روى ابن سلام أيضاً خبراً آخر خطيراً، قال:

«... وقال زرعة بن النعمان لعمر بن الخطاب: يا أمير المؤمنين ان بني تغلب (النصارى) قوم عرب يأنفون الجزية. وليست لهم أموال. انما هم أصحاب حروث ومواش. ولهم نكاية في العدو (البيزنطي)

فلا تُعن عدوّك بهم عليك. فصالحهم عمر على أن ضاعف عليهم الصدقة، مشترطاً أن لا ينصّروا أولادهم.» ص ٤٠.

فرفع الجزية عن النصارى العرب، وشأن الجزية في الاسلام معروف، يرينا مدى حرص الخليفة على ضمهم اليه.

ومع تنصر كثير من تلك القبائل وعيشها دهوراً بالايمان المسيحي، ثم اعتناق معظمها الاسلام بعد انتصاره في الشام انتصاراً كاملاً وتمكنّه فيها، فان الدينَين قصّرا عن القضاء على ذهنيتها القبلية المترسخة في أعماقها. وما يزال فينا من بقاياها حتى اليوم، على اختلاف مذاهبنا، أخطاء التجمع القبلي الأعمى، والغرور، والحسد، والافتخار بالنسب، والانتهازية، وطلب الثأر. واذا سألت عن مروءاتها ووفائها النادرة المثال أجبناك: ان حضارة النفط والسيجار والكاديلاك كفلت طمسها!

اما القيسية فهم عرب الشمال (الحجاز) أصحاب اللغة التي نزل بها القرآن الكريم. وهم حملة السيوف الاولى لفتح ربوع الشام. وكما اعتقدنا أن الغساسنة هم طلائع البورجوازية فمن الجائز أن نرى في القيسية جماعة الثقافة الجديدة. ثم ان هؤلاء لمن ذوي القربى للقائدين الامويين يزيد ومعاوية ابني أبي سفيان.

ولما خلف معاوية أخاه يزيدا على ولاية الشام سعى الى مجاملة اليمانية أصحاب القدم الراسخة في البلاد وذوي الشأن الذي لا ينكر فيها. ثم قرّبهم اليه أملاً باكتسابهم لأنه أخذ يتوقع بعين بصيرته ما تتمخّض به مكة والمدينة من تيارات متعاكسة مؤلمة، فاستطاع بسيوف القيسيين واليمانيين معا اغتصاب الخلافة.

وقد استاء محازبو معاوية ورفقاؤه القيسيون من تقريبه اليمانية، وأيقظ عمله كوامن التباغض الذي كان بينهم في الجاهلية. غير أن حنكة معاوية ودهاءه وسخاءه على أنصاره وذوي قرباه هدأت الغاضبين بعض التهدئة وأرجأت انفجارهم.

وبعد وفاة معاوية بدأ الخلفاء الامويون وعمالهم يعرضون عن اليمانية، فأعرض هؤلاء بدورهم عن الامويين، ولم يلبث التباغض أن استحكم حتى بعث أبو مسلم الخرساني يحرض اليمانية على بني أمية فانضموا الى مسعاه، وساعدوه على تحطيم العرش الأموي بدمشق.

وتصح الإشارة هنا الى أن اليمانية بعد تبلدهم المشرق، وتطبّعهم بطبائع من أبنائه، أيّد كثيرون منهم مذهب التشيع لعلي بن أبي طالب وانشقوا عن السنة.

ثم انبثق جماعة من اولئك الشيعة حملوا راية الاسماعيلية فالدرزية والنصيرية العلوية. وهم جدود لكثيرين من اللبنانيين والسوريين والفلسطينيين.

ان الذين كتبوا عن ذلك النزاع القبلي يجمعون على أن الحزبية المذكورة عملت أكثر عملها الطويل العمر في لبنان وفلسطين. وقد ضمّت عندنا محازبين من طوائف مختلفة في الجبهة الواحدة، ضد طوائف مختلفة في الجبهة المعادية، فحارب المسلم والمسيحي القيسيان مسلماً ومسيحياً آخرين من جماعة الحزبية اليمانية.

وعلى ذلك الغرار نشأت حزبية لبنانية جديدة عرفت بالجنبلاطية واليزبكية. والتسمية في اللفظ درزية شوفية، وفي الواقع لبنانية. وعرفت أيضاً باسم الغرضية، وهي تعبير صحيح أيضاً: فالتحزب الأهوج في الانضمام الى إحدى الجبهتين، أو في وراثته عن الأهل، يبطن أيضاً «غرضاً» لا تحسن الجماهير المتحازبة البوح به.

قال فيليب قعدان الخازن:

«واجمع كثيرون من المؤرخين على أن أمراء لبنان من الحزبين، اليمني والقيسي، الذين حكموا الجبل بالتناوب، كان لهم عَلَم خاص وشارة: فاليمنيون الذين استؤصلوا في واقعة عين دارة سنة

١٧١١ كان علمهم أبيض وشارتهم زهرة الخشخاش الأبيض. اما القيسيون فقد استمر حزبهم ببقاء الأسرة الشهابية التي تولت إمارة الجبل، وعلمهم كان أحمر وشارتهم قرنفلة حمرا.» («منشورات أوراق لبنانية»، ص ٤٩).

ومن أشهر المعارك بين القيسية واليمانية في لبنان:

١- معركة العاقورة سنة ١٥٣٤، وقد امتد شرها الى الجبال المجاورة، وحارب فيها المسيحيون والشيعة القيسيون خصومهم اليمانيين من شيعيين ومسيحيين. قال الدويهي: «... واما العاقورة فخلت (من السكان) فنزل اليمنية منهم الى الشام والقيسية الى طرابلس» (ط. توتل، بيروت، ص ٣٥١).

٢- معركة مرحاتة (ضهور الشوير) سنة ١٦٣٦، وامتدت الى المروج. وهرب اليمانية الى عرقا (عكار) عند أميرها علي سيفا. وربما كانت هي موقعة وادي الجماجم التي قال فيها الشيخ ناصيف اليازجي: «فما زالت الجماجم تتناثر من الفريقين حتى سدت فرجة الوادي فقيل له وادي الجماجم الى الآن».

٣- معركة حي الغلغول في بيروت «غربي بناية اللعازارية» سنة ١٦٦٧ «فانهزمت اليمانية الى الشام وتولى الأمير أحمد المعني حكم بلاد الشوف والغرب والجرد والمتن وكسروان».

٤- معركة عين دارة سنة ١٧١١، وفيها انكسرت اليمانية، كما انكسرت في المعارك الثلاث الأخرى، وتبدل الحكم في لبنان وظهرت اقطاعية جديدة وأقفلت بيوت كانت عامرة.

وستذكر معركة عين دارة في هوامش الفصل الآتي.

«... ان الأمير (بشيرا) كان حاكماً جائرا، همجياً قاسيا، ذا حزم. نصفه مسلم، وربعه مسيحي، والربع الآخر درزي. واعترف بأنه تمكن من إخضاع الجبل بقتله اعدائه وسمله أعين مقاوميه، ونشره الارهاب بين رعاياه. بيد أنه من الضلال التصور أنه لما كان هذا الرجل منفرداً يستطيع أحد من سلالة هذه الأسرة (الـ .....) - وهو آلة في يد الاكليروس - أن يكبح جماح جميع هذه العناصر (اللبنانية) المضطربة...»

(من كتاب بعث به اللورد دوفرين مندوب الحكومة الانكليزية في اللجنة الدولية ببيروت الى السير بولفر سفير الملكة فكتورية لدى السلطان عبد المجيد في استنبول، تاريخه أول كانون الثاني ١٨٦١، نقلا عن «مجموعة المحررات السياسية والمفاوضات الدولية عن سوريا ولبنان»: ج ٣، ص ٢١٥، ترجمة فيليب وفريد الخازن صاحبي جريدة الارز).

توطيد الإقطاعية اللبنانية وحصرها

على انقاض المعنيين قامت إمارة جديدة شهابية، لأن بين الأسرتين قربى ووحدة حزبية قيسية أوثقتا الارتباط بينهما منذ القدم، وجعلتاهما شبه جبهة دائمة على اختلاف الدار.

ويجب التنبيه في ما جرى في ذلك الانتقال التاريخي الى ما رواه حيدر الشهابي[1] عن أن «أعيان جبل لبنان اجتمعوا للمشورة، لاختيار حاكم جديد، وعهدوا الى الأمير بشير الشهابي، ابن أخت أحمد المعني، بأن يلي الامارة.» (جـ ١، ص ٣، ط. بيروت).

ويفهم جليّا من هذا القول أن انتقال الحكم المذكور من أسرة الى أخرى تمّ بانتخاب لبناني وليس بتعيين من السلطان. ولوحظ أيضاً أن المجتمعين للمشورة هم الزعماء القيسيون وحدهم، دون اليمانية.

ومما يذكر أيضاً في هذا الصدد أن الشهابيين جاؤوا من وادي التيم الى جبل لبنان متدرّزين، لتولي الحكم بمظهر اسلامي، كما حكم سلفاؤهم المعنيون. ولم تبدأ الاقطاعية الدرزية، حليفتهم، بالتشكيك فيهم إلا بعد أن شعرت بأنهم ليسوا على دينها.

وطوال تسعين سنة من الحكم الجديد في مرحلته الاولى لم تعرف له مأثرة ما. فقد انغمس في شهوته القيسية لمحاربة اليمانية. ونقم، بخاصة، على الشيعة منها فحاربها وحاربته وثبتت في وجهه أكثر من مرة في معاركهما العديدة في جبل عامل وبلاد بعلبك وجبيل والبترون.

اما اليمانية الدرزية فانقض عليها حيدر الشهابي في حصنها بلدة عين دارة[٢] حيث طويت رايتها الى الابد. وخلا الميدان له في جزين والشوف والمتن وكسروان. وانشأ اقطاعية جديدة منظمة، ستتمتع قانونياً بامتيازات سياسية واجتماعية طوالماية وخمسين سنة.

ومن ساعته الاولى طبع الحكم الشهابي بتناحر الأخوة وأبناء الأعمام طمعا بالحكم: فابن العمة يميت ابن خاله بالسم. والأخ يقتل أخاه أو يسمل عينيه. وابن العم يسمل عيون أنسبائه ويقطع رؤوس السنتهم ويحاول إخصاءهم لقطع نسلهم.*

وكثر اقتصاص الحاكم من خصومه ومحازبيهم، وبلاهم بقلع أشجارهم وهدم بيوتهم وسلبهم أموالهم وقطع أرزاقهم - كما كان يفعل فراعنة مصر في زحفهم لغزو بلدٍ ما - حتى شاعت العبارة المأثورة «قطع الأرزاق من قطع الاعناق».

وقال الامير أمين ناصر الدين التنوخي: ان أولي الأمر الجديد «صاروا يعدّون المتصلين بهم عبيداً أرقاء».**

وبدا البون شاسعاً بين العهد المعني وخلفه - إلا في مواصلة الحروب الجنونية الهوجاء التي سعرها العهدان امتثالاً لمزاج الحاكم، وليس للمقاتلين من أبناء الشعب أية علاقة أو مصلحة بسبب القتال - ففي العهد المعني، ومن قبله العهد التنوخي، كانت الخلقية ناموساً رئيسيا، وفي وجوه معظم الأعيان حياء، وفي صدورهم شمم، ولم يكن هذا كله في العهد الشهابي، الا قليلا.

(*) الغرر الحسان: ص ١٤٢ و ٧٧٥ (ط. بيروت) و ص ١٠١٤ و ١٠١٥ (ط. مصر) وطنوس الشدياق: ص ٤٨١ و ٥٥٧ و ٥٥٨ - و «من تاريخ لبنان»: ص ١٦٨ وهو الطبعة المنقحة للمقاطعة الكسروانية.

(**) مجلة «اوراق لبنانية»: آب ١٩٥٦، ص ٣٧٥.

واذا قلنا إن فخر الدين المعني الثاني - وله أخطاء كثيرة - قد امتاز عن الحكام الذين سبقوه بأنه تفهم معنى «الدولة» تفهماً لم يقربه واحد منهم، لأنهم حكام بدائيون غاب عنهم معنى الدولة يومها...

واذا قلنا أن فخر الدين امتاز بجهده الجريء لاستكمال استقلال لبنان، وتوحيد مقاطعاته الرازحة تحت النير، وذلك بفصله عن السلطنة العثمانية، متمرداً على باشاواتها في طرابلس ودمشق كلما استطاع التمرد، اذا قلنا هذا كله وجب أن نقول إن الحكام الشهابيين ساروا على خطة معاكسة كلياً لخطة فخر الدين، ووالوا الحكام العثمانيين المذكورين، خاضعين لأوامرهم وملبين طلباتهم التي لا تنتهي....

ففي أيامهم أوجدت العشائر في جبال العلويين ونابلس شبه حالة «عصيان متتابع» على الباشاوات الاتراك حكام المنطقة، وهي عشائر تخضع لمشايخها خضوعاً كاملا، كما هو الحال في جبال لبنان. فصار الباشاوات يستعينون ببعض الاقطاعيين في بلد ما على زملائهم في بلد مجاور، أو في البلد عينه، لاخضاع من لا يركع أمام طغيانهم، وهكذا حاربوا بالفلاح اللبناني جاره النابلسي، كما حاربوا بالفلاح الدرزي أخاه الشيعي أو العلوي. واذا استثنينا عربان نابلس وجدنا جميع العشائر في جبل عامل وجبل الدروز وجبل العلويين انها من الأقليات المذهبية. وبخضوع زعمائها الاقطاعيين لرغبات الوزراء الباشاوات قامت تلك العشائر بمهمة النار التي يأكل بعضها بعضاً، فقوّت سؤدد الحكم العثماني دون أن تدري، وأضعفت «الاستقلال» البلدي - استقلالها - دون أن تدري! ولعل خضوع ذلك الفلاح لزعيمه سببه أنه كان (ولما يزل؟) يرى فيه عنوان روحانيته المذهبية.

وفي ذلك الزمان، وبالضبط: في سنة ١٧٢٩، كرس بابا روما ابنه العزيز السيد كيرلس طاناس - «رافع لواء الاتحاد المقدس مع السدة الرومانية الرسولية» - أول بطريك شرعي انطاكي على طائفة الروم

الكاثوليك المستحدثة. وقد تم ذلك بعد خلافات ومشاجرات مؤسفة نشبت بين الأخوة قسمتهم كنيستين. وصارت فرنسا تحمي الروم الكاثوليك. وصار جبل لبنان ملجأهم.

ومن أحداث تلك الأيام ضرب الأسطول الروسي مدينة بيروت بالقنابل واحتلاله لها، جريا وراء سياسة الانبراطورة كاترينة الروسية[3] التي عايشت المحاولات الفرنسية في المشرق، فوصية بطرس الكبير بوجوب استغلال الارثوذكسية العالمية سُمّرت في ذهن كل قيصر، وكل سياسي قيصري، وثبتت مطامع القياصرة الروس بالسلطنة العثمانية لا تتبدل.

ولتلك الغاية جاء أسطول روسي، يخرق في البحر الأبيض المتوسط بين اليونان وقبرص ولبنان. قائده الرسمي روسي وقبطانه الحقيقي مع رؤساء معاونيه انكليز. فنشأت بينه وبين الزعيم العربي ظاهر عمر الزيداني[4] علاقة ومصلحة. ودعاه ظاهر الى مساعدة جاره الأمير يوسف الشهابي على اخراج احمد الجزار[5] متسلم بيروت من هذه المدينة. ولبى قائد الأسطول طلبه لقاء أجر معلوم، وضرب بيروت وحاصرها أربعة أشهر حتى أجاعها وأرغم المتسلم العاصي على اخلائها «فاستولى عليها الأمير يوسف وأخذ أسلحة أهلها وجرّمهم (عاقبهم) جرماً غليظا».

ولم ينم أحمد الجزار على الضيم فسعى الى استنبول وأوصله دهاؤه الى شراء منصب وزير صيدا، وكانت صيدا تضم فلسطين أيضاً اليها، ثم سعى الجزار ومكر حتى صار وزيراً على صيدا والشام معا. ثم صار وزيراً على صيدا والشام وطرابلس في آنٍ واحد، وبهذا تمت له الرقابة الرسمية الكاملة على لبنان باسم استنبول، وصار أعظم وزير عثماني حكم هذه المنطقة الخطيرة بموقعها الجغرافي وبسكانها ومواردها.

والتحاسد الذي شبّ بين الأخوة الشهابيين، المتناحرين على الحكم، سمح للوزير الجزار بأن يلعب بهم لعب الهر بالفار. فأخذ يزيد كل مدة،

وعلى هواه، في مال الضمان المفروض على الجبل، تثبيتا للسيادة العثمانية عليه وان رمزيا. كما أخذ يطلب الهدايا الثمينة وخرج الجيب[6] بمناسبة وغير مناسبة. وكان الأخوة الشهابيون المتناحرون على الكرسي يرضون بتقديم ما يطلبه صاغرين مذلولين. وصارت الزيادة والهدايا شبه سنّة اتّبعها خلفاء الجزار حتى ضجّ الشعب – وهو الفلاح الكادح المحدود الدخل – من فرض الضرائب، وبدأ يفتح عينيه. وكانت «عامية»[7] لِحفِدْ من اجرا انتفاضاته على حكم الطغيان.

ان الفلاح اللبناني في ذلك الزمان الأسود صار يعبر عن كلمة ضريبة بانها «أثقال المظالم» وانها لمظالم حقا. وروى معاصرو عامية لحفد – طبخت في انطلياس وانطفأت في لحفد – أن فلاحي بلاد جبيل وبلاد البترون وكسروان الذين أقسموا في كنيسة انطلياس يمين الاتحاد والاخلاص للعامية كانوا:

«من كل الطوايف، تحركوا وقاموا قومة عامية، وعملوا جمعية وصاروا يتقاطروا اليها من كل الضياع والقرى والمزارع، الى أن اجتمعوا نحو عشرين الف «نفس (...) والبلاد كانت واقفة على صوتهم الى أن أوقفوا الوهم (الخوف) في قلوب جميع الحكام والعقال والجهال الخ..»

مجلة اوراق لبنانية: سنة ٢، ص ٣٨٩.

«... ثم اجتمعوا أهالي بلاد البترون. واهالي بلاد جبيل. والبعض من أهالي كسروان الى قرية حاقل. واجتمعوا أهالي جبّة بشري الى قرية اهمج، واجتمعوا المتاولة الى رام مشمش. واتفقوا جميعاً على العصاوة وأقاموا لهم من كل مقاطعة أناساً بالوكالة على باقي الجميع. ومثل ما يريدوا هؤلاء الوكلاء فلا يخالفوهم بشيء. كمثل ما كان تدبيرهم قبلا في اجتماعهم بانطلياس. وابتدأت المراسلات ما بين الامير (بشير) وبينهم (...) فلم يرتضوا، بل صمموا على

العصاوة وأرسلوا الى الأمير صورة شروط لا تطابق المعقول. ومن جملة ذلك أن كل من يكون حاكما لا يكون حكمه من يد الدولة. فابى الامير عن ذلك الخ...»

حيدر الشهابي: طبعة بيروت، ص ٦٨٥.

ولم يكن الحكم الشهابي وحده متخلفاً في ذلك الزمان، وعلى قدر كبير من الاوتوقراطية، فالعرش العثماني عينه الذي قيل لسيده إنه ظل الله على الأرض (!) كان قد انتقل حكمه من يد السلطان، أمير المؤمنين، الى ايدي فاتنات الحريم ودسائسهن، وخصيان القصر، وعصابات الانكشارية[8] ومعظمهم أغراب، فراحوا يعيثون في السلطنة فساداً ويسيئون في شؤون الشرع، وفي الجيش براً وبحراً، وفي شؤون المال والضرائب والادارة. وصاروا يسندون الوظيفة الى ممالئيهم والمتسكّعين أمامهم ويبيعونها بيعاً دون تقدير الخلق والكفاءة في الشاري فيشتريها من يستطيع تأدية الثمن. والشاري يتحول فوراً الى جابٍ ليسترجع ماله ويطلب الربح والغنم، وينشر لواء الارهاب والجاسوسية كما فعل الجزار. وجميع الوزراء الذين ولّوا حكم الايالات في الممتلكات العثمانية[9] في ذلك الزمان كانوا من الممالئين المنافقين أو من الشراة الذين ذكرناهم، يؤجرون بدورهم المقاطعات للزائد في استئجارها.

ومن المآسي التي عرفها ذلك العهد، وقد يجوز عدها «وطنية» ان الوزير أحمد الجزار أمر بشنق الأمير يوسف الشهابي في عكا (١٧٩٠)، بدسيسة من ربيبه الأمير بشير الشهابي الثاني[10] وتحريض من خصمه الشيخ بشير جنبلاط، ولم يقع في تاريخ لبنان مثل ذلك الشنق المنكر، منذ أن بدأ التاريخ يسجل أخبار لبنان. وصحيح أن بشيراً ولي الحكم بمالٍ أكثره من سميّه الشيخ بشير جنبلاط، وبمساعدة هذا السمي وتدبيره الذكي، اذ ضم زعامة الغرضية اليزبكية الى مسعاه، الا أن الأمير يوسف الذي كان قد أكره على الاستقالة من حكم الامارة بسبب حقد أحمد الجزار عليه

واستبداده الدائم به، وتحريضه أنسباءه المتناحرين على الحكم عليه، ان الأمير يوسف المذكور كان هو الذي وافق علي أن يخلفه ربيبه الشاب. فنزل بشير الى عكا ابناً له ورجع منها حاكماً وابناً للجزار!

ان حكم بشير الثاني طال أكثر من نصف قرن (١٧٨٨ - ١٨٤٠) وهي أطول مدة حكمها حاكم في لبنان. وقد أثبت صاحبها أنه أدهى الشهابيين اطلاقاً، بل أدهى جميع الذين وُلّوا الأمر قبله. وحسبك منه أنه ندر أن انهزم في حرب، على كثرة الحروب التي خاضها بحكمة، ولضرورة موجبة، دون ما هَوَج، ولكن صدره انطوى على نزعات متناقضة، خيرها أقل من شرها: عرف بتعففه، وعزوفه عن شرب المسكر، وتوقره في تعبيره، وترصنه في مجلسه، شيمة العقّال الحكماء في عصره حتى ليخيل الى ناظريه وسامعيه أنهم في حضرة ملك عادل، أو رئيس دين جليل.

وتلك المظاهر المثالية في بشير الثاني رافقتها قساوة: فهو يقتل من يكرههم، ويسمّ من يخاف معارضتهم، ويسمل عيون انسبائه الذين يزاحمونه على الامارة، ويعقّ الذين أحسنوا اليه. شعاره: انا ربكم الأعلى، والعياذ بالله!

ويجوز القول أيضاً إن بشيراً الثاني استنّ دوافع التطور في أمور كثيرة: فوطّد الأمن في طول الامارة وعرضها، وجوارها، وايًّا كان دافعه الى توطيده فالناس في عهده أمنت اللصوص وقطاع الطرق، ونامت تاركة أبوابها مشرعة، من صحيح، وربما كان أول الحكام اللبنانيين في اجراء التجسس على الأهلين، فعيّن في كل قرية، وان صغيرة، «عينا» تراقب حركاتهم وتحصي عليهم أنفاسهم، حتى ما عادت تخفى عليه خافية. وقد فعل ذلك لأنه شلّ صلاحيات الاقطاعيين في المناطق وحصر السلطة كلها بين يديه، يعاونه أولاده وحاشيته. وقد دفعه الى الاستئثار بالسلطة والاعتداد بالنفس اتفاقه مع الوزير سليمان باشا والي صيدا الذي خلف

أحمد الجزار فنشأت بينهما صداقة وطيدة حتى كادت مصالحهما تصير واحدة. كما ساعد، بالتالي، على ذلك الاعتداد والتصرف كذب ومراوغة حوله في الحاشية، وفي معظم المتزعمين الذين قربهم، واعتياد الشعب الامتثال لهم، مما حمله على التباهي ذات يوم أمام خليل باشا أمير الأسطول التركي في استنبول بأنه كان «يقتل اللبنانيين، ويشنقهم، ويحبسهم، ويضربهم، ويذلّهم...» ثم شبّههم بطير «أبو فار».*

وتظهيرا لذلك الاستئثار بالحكم،ضبط أصول المراسم بمعنى أن العادات الاقطاعية وامتيازاتها وتشريفاتها صارت تطبق تطبيقاً منتظماً لا يعبث أحد به. ومن تلك المراسم أنه كان لا يسمح لبعض «الرعايا» بأن تتشرف وتنعم بتقبيل يده، ومنهم من لا يأذن لهم بالدخول عليه!

وطارت لسرايته التي بناها في مزرعة بتدين (بيت الدين) (وانتقل اليها من دير القمر، بعد غدره بمستشاره الشيخ جرجس باز)، شهرة بلغت مدن الغرب. وعمل في ديوانها شعراء ومتأدبون، بينهم صنميون ومنافقون. وزارها عظماء السياح مثل الشاعر لامارتين. وكانت السفن يومها تقطع البحر من مرسيلية الى بيروت بمدة شهر**. ومن أنفع ما حققه الأمير لسرايته جرّه المياه، بمعونة الأهلين، من نبع الفوار في عين زحلتة الى بيت الدين، واستفادت منه قرى ومزارع عديدة.

وفي زمانه، وقبيله، كبرت بلدة دير القمر وصارت مدينة نمت فيها، وفي جوارها، تربية دود الحرير وتوابعها من صباغة وحياكة، وصار وجهاء بيروت وصيدا يشترون منها المنسوجات الحريرية والمطرزات لخياطة أجهزة بناتهم.

(*) روى هذا رستم باز في مذكراته التي نشرتها مجلة «اوراق لبنانية» في سنتها الاولى ص ٤٤٥، ثم نشرها فؤاد البستاني في منشورات الجامعة اللبنانية.

(**) مؤلفات «جيرار دي نيرفال»: ج ٢، ص ٣١٨.

وشهد حكم بشير الثاني ثلاثة أحداث عالمية:

الاول: احتلال الجنرال نابوليون بونابرت، الذي صار انبراطور فرنسا، لمصر وفلسطين في طريقه لغزو الهند، فاندحر أسطوله أمام عكا (١٧٩٩) ومثّل بشير في تلك الحرب دور المتربّص. ولو كانت له جرأة فخر الدين وسياسته اللبنانية لما وقف موقف الانتهازي. وقيل إن عدم نجدته نابوليون في الانقضاض على أحمد الجزار، عدوهما المشترك، كان من أسباب انكسار القائد الفرنسي الشهير. وفي تربّص بشير، منتظراً دورة الدولاب ليدور معها انتصرت تركية وانكلترة، فقال نابوليون في مذكراته: «لو أن عكا سقطت لقلبت وجه الأرض رأسا على عقب».

الثاني: اشتراك بشير، متربصاً أيضاً بعض التربص وبعض الوقت، في تحقيق حلم محمد علي والي مصر بضم فلسطين ولبنان وسورية الى وادي النيل (١٨٣٢). وقد قصر نظره عن ادراك حقيقة القوة الانكليزية المتنامية في الشرق العربي فلعب الورقة الفرنسية الهوجاء – جاهلاً نضال الرأسمالية الانكليزية الطريئة العود لأجل اقصاء فرنسا وكل دولة أخرى عن طريق الهند، وابعاد الدب الأبيض الروسي عن استنبول.

الثالث: انتهاء حكم الحريم والخصيان والانكشارية في العاصمة العثمانية وانتقاله الى يد السلطان محمود الثاني[11] الذي لقبته اوروبة بالمصلح. وفي عهده تشرعت الأبواب أمام سفرائها ليتدخلوا علناً في شؤون المملكة، ولسرقة خيراتها ومواردها، وانتقاص سيادتها باسم الامتيازات الأجنبية.

وقد كُتب لبشير الثاني أن يغازله القناصل في بيروت وجواسيس الدول الطامعة بالمشرق، ولكن غزلهم لم يجده نفعا.

وعلى كثرة الأحداث المحلية المهمة التي وقعت في عهده، لا يجوز اغفال تأسيس الارسالية البروتسطانية في لبنان سنة ١٨٢٣، وقد سكن

المرسلون الاولون عينطورة كسروان، ولكنهم لم يكن لهم من رغيف في جوار بكركي فاضطروا للانتقال الى بيروت. والى تلك النواة ينتسب مؤسسو الجامعة الاميركية فيها.

ولعل من المفيد الطريف أن يشار الى أن اولئك الرواد ينتمون الى جمعية اسمها: «الجمعية الانجيلية لنشر المسيحية بين اليهود». وقد يجوز الظن أن الآية انعكست اليوم...

ولعل المع خصاله الطيبة، التي لم تكن كثيرة جدا، تمسكه بالتقليد اللبناني العريق في حمايته الغريب اللاجىء الى جبله، فقد كان الحاكم المذكور آية الوفاء بذلك التقليد النبيل، فاعترف له خصومه بهذه الخلقية العظيمة.

ومع الاختلاف على تعيين لون حكمه بين أبيض وأسود، فان غدره بعمه الذي رباه الأمير يوسف، وبالأخوين جرجس وعبد الأحد باز، وشقيقه الأمير حسن، والمطران الديموقراطي يوسف أسطفان، والزعيم الشمالي الشيخ انطونيوس أبي خطار (خال يوسف بك كرم)، وبرفيق نضاله الشيخ بشير جنبلاط، وبسواهم، سيبقى عنوان ذلك الحكم الدموي الى يوم الحشر.

عَمودُ السَّماء

ان الشيخ بشيرا جنبلاط (١٧٧٧ - ١٨٢٥) كان أحد أدهى دهاة لبنان، وصاحب أضخم ثروة فيه (أورث ابناءه سبعاً وستين قرية ومزرعة أكثرها في البقاع.) فلقبوه بـ «عمود السما» ناهيك بأنه حفيد شيخ مشايخ الشوف جميعا، فكان هو زعيمه أباً عن جد - والشوف حصن الجبل السياسي وقلبه - فمن البديهي أن تمتد زعامة الشيخ بشير الى أكثر الجبل لتصل الى كل أرض يقيم عليها دروز موحّدون.

عنده كثير من سميّه بشير الشهابي، ولكنه ذو مروءة وأقل غدرا. ولعل قلبه ليس رديئا. كان همه الوحيد وحلمه الذي عاش لتحقيقه أن يستوي والأمير الحاكم العام، في الأقل، ان لم يصر الحاكم العام. ولم لا؟ ما دام هو - عمود السماء - الذي أوصل سميه الشهابي الى الحكم وأمدّه دائما، وظلّ يمدّه بالمال والرجال في حرجه وضيقه، وما دام فلاحوه من دروز ومسيحيين يفتدونه بالأرواح، ويفوق عددهم أنصار الحاكم أضعافاً مضاعفة. ثم أن هؤلاء الأنصار يوالون الحاكم ما بقي حاكماً فاذا أقصي عن الامارة انقلبوا حالاً الى أنصار للحاكم الجديد، وربما كان هذا عدوا لسلفه - شأن اللبنانيين والسوريين والمصريين والعرب أجمعين منذ فتح المماليك بلادهم - أما فلاحو الشيخ بشير فجنبلاطيتهم ثابتة حتى الموت، ويرثها ابناؤهم عنهم.

بقي الشيخ بشير الرجل الثاني في حكم لبنان أربعاً وثلاثين سنة. وفي ظروف كثيرة كان وحده الذي يأمر. وبلغ من شدة سلطانه وقوته أنه فيما هو ذاهب لنجدة سميه الشهابي في مكافحة ثورة لحفد (العامية) التقى

كاهناً من زعماء الثوار على الأمير الحاكم، قرب المعاملتين، اسمه الخوري نهرا من المتين فقبض عليه وأمر بقتله فوراً ولم يُثِر عمله أية حساسية طائفية.

ومن حكمة عمود السماء أن تدبر النظر في محالفاته، فآخى بني الخازن لأنهم أغنى الاقطاعيين المارونيين ومن أقوى زعمائهم. وصدقت مودته في ذلك التآخي حتى ان أحدهم الشيخ فرنسيس الخازن الساكن في جوار بطريركه ومطارنته، وفيهم أنسباؤه وأصدقاؤه، لم يختر واحداً منهم وصياً على أولاده ولكنه نطّ من كسروان الى الشوف ليختار حليفه وأخاه عمود السماء لتلك المهمة العائلية.

ثم صادق الزعيم الدرزي بكركي، أول مرجع كاثوليكي عربي في المشرق. وأغدق كرمه على الكنائس والأديار والرهبان الكاثوليكيين، مروءة وسياسة معا. وقيل إن أحد المرسلين الكبوشيين نقل الى بابا رومة عن زعيم الدروز أنه غير بعيد عن الدين المسيحي، مثله مثل سميه الشهابي، ولكنه يخاف الكشف عما في نفسه لئلا يأمر السلطان العثماني بقتله (...) وهذا الزعم زعموه من قبل عن فخر الدين الثاني وعن معاونه الحاج كيوان المملوكي الأصل، وهي شائعة من البضاعة العربية التي كان ينشرها طلائع الامبرياليين عن الشرق ... فصار بابا رومة يرى في الشيخ بشير عضوا أريحيا لمساعدة قطيعه الماروني خاصة والكاثوليكي عامة، ويدعوه بـ «الابن الحبيب» وصار الشيخ بشير يمتثل في تنفيذ رغباته أكثر من أي مسيحي في العالم العربي. وكان لامتثاله وزنه الكبير لأنه يأتي من زعيم ذي ثروة وسؤدد، ولا علاقة دينية له بالبابوية، وليس بحاجة الى احسانها، فلماذا لا يجامله أبو الكثلكة، ولماذا لا يحبه، ولماذا لا يشمله ببركته ونفوذه؟

وانتقل الشيخ بشير جنبلاط الى تدبير آخر فأعلن ببنائه جامعاً[1] (١٨١٨) أمام قصره في قريته المختارة انه مسلم، فجمع القوى من

أطرافها. وهكذا جعلت منه تلك التدابير زعيماً لبلاده. فصار اذا هبت رياحه اقدم وان همدت داور متربّصاً وأحجم.

وحكيما كان أيضا في خصامه الغرضية اليزبكية، فلم يطحنها ساعة الاقتدار، مخالفاً ما فعله القيسية باليمانية في يوم عين داره، بل جادلها بالتي هي أحسن في كثير من الخلافات، وتمنى لو استطاع السيطرة عليها وضمها الى سياسته، متجاوباً مع درزيته وباطنيته العميقتي الجذور.

اقطاعي من قمة رأسه الى أخمص قدميه، الا أنه طبع إقطاعيته بالآدمية. ولم تكن هذه شيمة بعض اقاربه، ولا الكثيرين من حلفائه. وهو، بعد، لبناني عن ايمان: يدرك الادراك الكامل أن ليس من بلد واحد في العالم العربي كله تستطيع الدرزية أن تعيش فيه حرة، بدون تقيّة إلا في لبنان. ذلك لأن التحجر في بعض علماء السنة كان مايزال على أشده، يريهم الدرزية كفراً وردّة. والشيخ الجنبلاطي يعرف هذا كله، ولكنه ينفتح على الجوار في الضرورات، وهي كثيرة. ولو سمح لباطنيته وتقيّته بالتوسع، بقدر ما سمحه سميه الأمير بشير الشهابي لباطنيته وتقيته – أي أن يكون نصف مسلم، في نظر الحكومة العثمانية، وربع مسيحي وربع درزي في نظر شعبه – لولي ابن جنبلاط، وحده، هذه المنطقة المترامية الأطراف من حدود حلب الى حدود مصر، ولكان قائد مجموعة حربية قوية ومتجانسة مذهباً وروحانية، الا أنه وقف عند بنائه الجامع لوثوقه بأن عقال الموحدين (الدروز) يماشونه الى أبعد وأكثر، وبأن فقهاء الاسلام يرون في الدعوة الدرزية الحاكمية بعداً قصياً عن القرآن الكريم ويقول اولئك العلماء إنها انحرفت عن أمها الفاطمية الاسماعيلية. وقد بلغ من شدة غضب المسلمين بمصر عليها أن اضطهدوها وفتكوا بدعاتها، فهرب بعضهم الى لبنان حيث أمنوا العذاب والقتل. وبعد ثمانية قرون لجى أخوان لهم من الجبل الأعلى في شمالي سورية الى لبنان بحماية بشير الشهابي وبشير الجنبلاطي. وجميع الدروز الذين يحملون اسم «الحلبي» هم من ذراريهم.

الدروز وحدهم بين جميع طوائف لبنان لا يرتبطون روحيا بمركز ليس لبنانيا.

ولا بد هنا من إظهار حقيقة مجهولة يساعد إظهارها على معرفة بعض منطلقات التعصب الديني الذي وصلنا اليه: ان الشيخ بشيرا، أكبر زعيم درزي عرفته هذه البلاد، لم يتعصب يوماً ضد مسيحي لأنه مسيحي فمعاركه وصراعاته ظلت دائماً اقطاعية في سبيل الحكم، واذا اتفق أن وُجد بين خصومه زعيم مسيحي فما كان الخصام بينهما دينيا، بل هو على أساس أن هذا الزعيم حليف لمنافسيه. ناهيك بأن أكثر مترئسي الموارنة هم جنبلاطيو الفرض. وكثيراً ما حاول أحمد الجزار أن يثير الفتن الدينية بين متزعمي الجبل يوم كان يلعب بهم فلم يفلح. ولم نفاجأ بنغمة التسلط الدرزي على المسيحي – هكذا، ومن الباب الى الطاقة – الا يوم اشتد التطاحن حتى كسر العظم بين عمود السماء وسميه الشهابي الذي صار عدوه اللدود – وقد قام الوزير العثماني عبدالله باشا بدور خبيث جداً في النفخ بنار العداء بينهما – فسعى الحاكم الشهابي الى محو أثر ولي نعمته وصديقه الاول، خوفاً على إمارته منه، وذلك في يوم المختارة الشهير الذي انطوت فيه الراية الجنبلاطية، فقد أوعز الحاكم الى عملائه – وهم من غير الموارنة – بإثارة النعرة المذهبية (... وأشاع بعض ذوي الغايات أن حركة المختارة هي لتسلط الدروز عل النصارى. وكان ذلك لينفرط الناس عن الذهاب الى المختارة. فذاعت هذه الكلمة (الاشاعة) في البلاد» – الشدياق، ص ٥٥١.

وكان ما جرى في لبنان من سنة ١٧٨٨ حتى سنة ١٨٢٢ قد تم جميعه باشتراك الشيخ بشير في اتمامه، ان لم يكن بتدبيره وحده. ومما يؤسف له أن الذين كتبوا أحداثه كان معظمهم ممالئاً الحاكم الشهابي فما عاد بالهين معرفة جميع الأسباب الحقيقية التي أوصلت تنافر المودة بين الرفيقين المتحالفين الى العداء المبيت حتى حرض الأمير بشير حليفه السرّي

محمد علي باشا والي مصر على التخلص من منافسه، ووافق الباشا على تحريض حليفه فكتب الى الوزير العثماني عبدالله باشا في عكا بوجوب قتل «... الشقي الكافر بشير جنبلاط» – كذا – فخنقه عبدالله باشا ورمى بجثمانه على الرمل أمام باب القلعة وخنق معه رفيقه الشيخ أمين العماد. ثم كتب الى الأمير بشير بأن يهدم جامع المختارة الخ...

تلك المأساة كانت من أفدح الخطايا الرئيسية في سلوك الحاكم الشهابي: فهو في تآمره على حياة صديقه ورفيقه ليخلص من محاولاته الاستئثار بالحكم أحياناً، خسر عضداً قوياً جدا، هيهات أن يعوّض. ذلك لأن الشيخ الجنبلاطي كان قد صار أقوى رئيس في المنطقة كلها، إلا أنه بسبب المناخ الديني المستعصف دائماً لم يكن باستطاعته أن يصير حاكماً وحده. فكانت محالفته، والحالة هذه، ضرورية للأمير بشير وأن مدّ الشيخ يده الى أبعد من وظيفته.

ولا ريب بأن الأمير بشيراً ندم على خطيئته الفادحة تلك، ندمه على غدره بالشيخ جرجس باز، الزعيم السابق للمعارضة اليزبكية والشهابية معا، بعد أن كان باز قد عاهده على الاخلاص وحالفه بصدق، وصار مستشاره الأمين. الا أن الأمير انقاد لتحريض معاونه الاول الشيخ بشير جنبلاط فغدر بحليفه الجديد الشيخ جرجس.

ومن اخطاء الأمير بشير الفادحة محالفته محمد علي باشا والي مصر، المتربص بسيده السلطان محمود الثاني لينقضّ عليه في الفرصة المؤآتية وينتزع من يده الايالات العربية التي لم يكن يجمعها به سوى كونه خليفة المسلمين. ومعقول جداً أن فرنسا وقفت وراء تلك النية تحرضها.

وما قيل في دين الأمير بشير يقال في لبنانيته، فهو لم يكن للوطنية المقدسة الأهداف من معنى عنده. وجميع ما وصل الينا من أخباره وأطواره، وشؤونه وشجونه، يحملنا على تصوره وتصويره رجلاً عاش

للسيطرة فقط، ولا لشيء سواها. وقد بلغ من اشتهائه هذه السيطرة أنه كان يستعين دائماً عسكر الوزير العثماني في صيدا، وهم مرتزقة من الأكراد والمغاربة والالبانيين والسود، لتقتيل اللبنانيين الثائرين عليه، أو لاخضاع أنسبائه الشهابيين الطامعين بكرسي الامارة وكان أنصارهم لبنانيين من قلب الجبل.

عهد ابرهيم باشا "المصري"

الحكم العثماني في العالم العربي ولد متخلفا، ولكن سلاطينه رافقتهم هيبة الخلافة في نظر الناس.

وما إن ولي السلطان عثمان الثالث (١٧٥٤) حتى بدأ عهد الانحاط الكلي، اذ سيطر رؤساء الانكشارية وخصيان القصور، والمحظيات الفاتنات الساحرات.

وازداد عهد التخلف سوءاً مما شجع الدول الأجنبية على استغلال السلطنة. وصار يخيل الى المراقبين أن الحكم العثماني في الأقطار العربية ما هو سوى استمرار لادارة المماليك الفاسدة ذات المظالم والفوضى والأمر الكيفي.

ولما وطّد محمد علي باشا في وادي النيل سلطانه المملوكي الذكي، وبنى دولة تتأهب للنهضة، تطاول بنظره الطموح الى جواره في الشرق العربي، طامعاً بتوسيع ملكه وتكبير جيشه وتضخيم ثروته، وأخذ يعد السبل للاستيلاء على فلسطين ولبنان وسورية: بث عيونه فيها يتلقّطون له أنباءها وأحوالها ويتلمسون مواطن الضعف في مناعتها. وأوفد اليها عمالاً يستميلون سكانها اليه. ووثّق عُرى الصداقة بالحاكم بشير الشهابي، ودافع عنه وقوّى نفوذه لدى وزير صيدا. وأحسن الى أفراد من اللبنانيين، وبخاصة الى الجالية اللبنانية عامة والمارونية خاصة بمصر، فصار اسمه محببا. ومن أغرب أقدار الدهر أن كثيرين من سكان بر الشام (فلسطين ولبنان وسورية) توقعوا أن يحررهم محمد علي من ربقة الظلم العثماني وعماله الطغاة، في حين أن الفلاح المصري كان يهرب من وطأة حكمه لاجئاً الى هذه البلدان.

وسيطرت على محمد علي أمنيته فصارت همه. ان ضم بر الشام المنطقة العربية الشاسعة الى حكمه يبعد عاصمته القاهرة عن الحدود العثمانية، ويجعله بمأمن من السيف التركي. وأما الزعم بأن فكرة عربية حثته على تحقيق هذا الحلم فحديث خرافة. وانّى لالباني أن يحس بنزعة قومية عربية وهو يجهل اللغة العربية، ولا يعرف أرضها، ولا اطلع على تاريخ حضارتها ودولها، وقد ولد ونشأ بعيداً عنها ولم تربطه بأي عربي رابطة، ولا عرف وادي النيل إلا يوم جاءها جنديا في خدمة السلطان؟

زحف ابرهيم باشا ابن محمد علي على رأس حملة من ثلاثين ألف عسكري مجهزة بالمدافع الضخمة والأسلحة المنوعة وفيها اجرأ القواد المصريين والأجانب المتظاهرين بالاسلام، ولم تلق في طريقها مقاومة تذكر إلا أمام قلعة عكا.

بدت البلاد مطمئنة لحكم الغازي ابن الصديق محمد علي، وبمساعدة ابنائها، وبخاصة اللبنانيين استطاع متابعة زحفه منصوراً من بلد الى آخر في الأناضول، وكاد يدك أسوار استنبول ويحتل العاصمة لو لم تقف السياسة الانكليزية والروسية في وجهه وتكرهه على التراجع.

وبقدر ما وافق النجاح زحفه العسكري، قصرت بصيرة والده عن حقيقة الصراع الناشب بين الدول الاوروبية لأجل توطيد كل منها نفوذها في السلطنة العثمانية التي بدأت تدنو من المرض، وصارت تدعى بعدئذ بالرجل المريض.

وكذلك لم يقدِّر محمد علي قوة كل من فرنسا وانكلترة المتنافستين، وقل المتطاحنتين، على المنطقة العربية، ومصر تعدّ أغناها وأقواها والصقها بطريق الهند. ومن هنا يجب أن ننطلق لاستقصاء الأسباب التي أرغمت ابراهيم بن محمد علي كي ينسحب من البلدان التي احتلها بعد انتصارات باهرة.

فاذا قدّرنا خطورة الصراع الفرنسي الانكليزي الذي كان عماله يحركون المستائين والموتورين والمصابين بالأذى من حكم ابرهيم العسكري - والحكم العسكري لا تحتمله الجماهير الا مكرهة، والى أجل - واذا القينا نظرة على الصحيح مما قيل عن ذلك الحكم في بلاد بر الشام، رأينا أن مصير الحملة العسكرية الابرهيمية، قد تقرر منذ يومها الاول.

ان أكثر المؤرخين الذين كتبوا بالعربية عن حكم ابرهيم باشا هنا كانوا معتدلين أو شبه منصفين وقد استندوا الى الأعمال الظاهرة فأجمعوا على امتداحه في بدئه لأنه مثّل لهم حكم «العدل والانصاف والحزم والعزم» وهذا أقصى ما كانت تتمناه جميع الأقطار العربية في ذلك الزمان. جاء في كتاب «حسر اللثام»:

«... ولما استتب له الأمر شرع في تنظيم البلاد واقامة العدل فيها وجعل فاتحة أعماله تحرير النصارى من رق العبودية التي قيّدهم بها الأتراك مدة السنين الطوال، وأبطل الامتياز الذي كان للمسلمين في ملابسهم ومعيشتهم، وصيّر الناس سواءً أمام المحاكم التي أقامها للفصل في دعاوى الناس. وأدخل العدد الكبير من أهل الذمة في عداد الموظفين والمأمورين، فعيّن منهم الكتّاب والضباط في الجيش والجندرمه والحكام والمعاونين من كل الأصناف. ولما هدأ روع البلاد وارتفع الظلم عاد الى المدن عدد كبير من النصارى الذين هربوا منها الى جبل لبنان، فعاشت تلك المدن بعد الموت. وعمّ الأمن وساد الصلح والاصلاح، ودار دولاب التجارة، فتقاطر الافرنج الى مدائن الشام المعروفة بنوع أخص (...)»

«على أن البلاد التي تعودت الأحكام الفاسدة والاهمال في مصالح العباد والانقياد للغرض بدل الانقياد الى الحق، رأت في هذا الانتقال السريع أمراً غريباً حبّب الى بعض أهلها الثورة والعصيان. وكان المشايخ الذين جاروا على العباد في عهد حكم الأتراك لا

يقدرون على عمل ما تعودوا من آيات الظلم والاستبداد بأهل البلاد مدة حكم الدولة المصرية فلم يرق لهم هذا الحرمان من سلطتهم القديمة. ثم ان بعض المسلمين لما رأوا العمال والقواد من الافرنج والمسيحيين من أهل بلادهم يعملون مع ابرهيم باشا ظنوا أن حكومته تخالف قواعد دينهم. ولم يرضوا عن هذا الانصاف، بعد أن كان المسيحيون عبيداً لهم، يذلونهم كيف شاؤوا، ويستحلون دماءهم وأموالهم فأظهروا التذمر وبدأوا يحسّنون العود الى حكومة الأتراك. وساعدهم على ذلك دسائس الأتراك الذين رأوا الملك يروح من قبضتهم (...)

«... ومن غريب الامر أن أهل البلاد على بكرة أبيهم بدأوا يشعرون بأمر يكرهونه في دولة ابرهيم باشا، مع كل ذلك العدل والانصاف. ذلك أن الحكومة المصرية كانت تطلب الشبان للانتظام في سلك جيشها من كل الطوائف. ولم يكن لها بدّ من ذلك لقاء ما أرادته من فتح البلاد التركية. فهاج الأهالي من جرى ذلك ومانعوا في الأمر ممانعة كبرى وقام النصارى على الذين حرروهم من ربقة الاستعباد واتفقوا مع الدروز على محاربة ابرهيم باشا وأعوانه، لأنهم عاشوا الأجيال الطوال تحت حكم الأتراك، ولم يؤخذ منهم أولادهم ليحاربوا مع الدولة في الأنحاء القاصية، فكانوا يؤثرون كل ظلم وجور على هذا الامر. الخ... الخ...»

وما جاء في الكلام السابق صحيح كل الصحة. وقد قلنا مثله قبل أربعين سنة وتبسطنا في إظهار العوامل الأجنبية في ذلك الاحتلال. فابرهيم بن محمد علي بدأ احتلاله مقلداً والده في اقتباس الأنظمة والاصلاحات والفنون الاوروبية، ونازعا بأمر من دينه الاسلامي الى لعدل، فأصلح في الادارة والقضاء والاجتماع إصلاحاً جمًّا كان له دويّ، وحسبه أنه أنشأ «ديوان المشورة» في المدن المحتلة، وهو عمل آية في الجرأة

الاسلامية وقضاء على تصرفات شائنة كانت تذل المواطنين من أبناء الذمة. وصح القول فيه إنه الخطو الاول الى تمثيل الشعب في جهاز الحكم بعد أن كان الحكم اقطاعياً وكيفيا. كما حقق لاول مرة منذ الفتح الاسلامي استنابة مواطن لتمثيل مواطنين.

وانشىء ديوان المشورة ببيروت من اثني عشر عضواً «من أكابرها وأصحاب الفطنة فيها» نصفهم مسلمون والنصف الآخر من المسيحيين، ينظرون جميعهم معاً في مختلف القضايا التي يعرضها عليهم الحاكم، ويحكمون جميعهم معا فيها كلها، أي أن صلاحيات الأعضاء، بدون تمييز في الدين، واحدة مشتركة وحقوقهم متساوية ومشتركة.

وبدا هذا الحكم المتمدن رجوعاً الى ينبوع الدين الأصيل الصحيح، وناقضاً نقضاً جذريا لحكم المماليك. وظهرت مصر بوجه العدل والتسامح ضد الظلم والتعصب، و «ابتسم وجه الضعيف للدولة الجديدة لأنه شعر برفع حمل ثقيل عنه كان يئن أنيناً محزناً تحته، ولا مجير منه، فاصبح صوت المستغيث المتقطع يبلغ آذان الحاكم، ولو على مراحل عديدة، بعد أن كاد يذهب بالفضاء ويتلاشى عنصره ولا أثر له. وعاد نداء المظلوم والمهضوم الحق، وكل من لحقه حيف أو ضغط، يجاب عليه ويعمل به. وكان قبلاً منبوذاً محتقراً.*

ولكن ابتسام وجه الضعيف للدولة المصرية، ولتشريعها الثوري العادل، قد واجهه عبوس بعض متزمتين من المواطنين المسلمين الذين عودهم الحكم اللاعربي أن ينظروا بعين الاستصغار الى مواطنهم الضعيف. فاشمأزوا من الاجراء الانساني العادل واستكبروه، وحقدوا على صاحبه. ولم يلبث اشمئزازهم أن انتشر في السواد، ثم زاده نمواً طبع الحكم العسكري القاسي، وأخطاء كبيرة في أثر أخطاء كثيرة ظهرت منه في مختلف

(*) مجلة «الحياة النيابية» التي يصدرها المجلس النيابي اللبناني بإشراف رئيسه: المجلد ٣، ص ١٤.

الجهات وكلها عناصر تحدّ تفاعلت ونفخت في البلاد تذمراً وشكوى من سوء تصرفه. ثم عمل عمال الاستعمار الانكليزي في طول الأرض وعرضها لإثارة اللبنانيين، ونشطوا الى نقل التذمر والشكوى من مقاطعة الى أخرى ومن قطر الى قطر، حتى أدخلوا في روع المتذمرين أن بلدان بر الشام كلها متأهبة للثورة، فما أن يتحرك بلد حتى تلحق به بلدان.

وبعد أن أعدّوا جميع العوامل في طبخ الحرب النفسية طبخاً كاملاً ومتقناً، صار اندلاع الثورة «العامية» أمراً حتماً فاندلعت، وراحت تمتد...

وكان هيّنا في ذلك الزمان أن يخدع الاقطاعيون الناقمون جماعات من الثائرين وأن ينضموا اليهم!

وكان مسيحيو دير القمر ودروزها اوائل الذين نفخوا في النار.

وفي الثامن من حزيران ١٨٤٠ أذاع الثوار النداء الآتي:

«ايها المواطنون الأعزاء

في علم جميعكم المظالم التي انزلتها الحكومة المصرية بنا، والضرائب الباهظة، والمعاناة، وضروب الاستعباد التي رزحت تحتها بأسرها، وقد جرّت الخراب على كثير من العيال.»

«على أن سكان لبنان، رغماً عما هم فيه من الأنفة وروح الاستقلال احتلموا بصبر مظالم السلطة الجائرة مراعاة لخاطر الأمير بشير الشهابي، على أمل أن يضمن لهم صبرهم هذا حفظ شرفهم وحريتهم وكيانهم (...)»

«... ومنذ ذلك الحين نهجت هذه الحكومة نهجاً مشؤوماً ومضراً في بلادنا، بتفريق عصبتنا، متوسلة الى غايتها هذه بالاكاذيب، والمواعيد العرقوبية: فطلبت سلاحنا ونزعته اولاً من الانحاء الضعيفة، ثم جمعته تدريجياً من الجميع، واستعانت بذات وسائل

الخداع لتجنيدنا، فتسنى لها استعباد عدد وافر من إخواننا، فثقل نيرها عليهم بحيث آثر الجميع الموت على البقاء تحت سيطرتها، فثاروا وقتل في سبيل اخضاعهم كثير من الجنود النظامية (...)»*

«... وبما أننا طلب الينا تسليم أسلحتنا التي أعطتنا إياها الحكومة، وبما أن الخبرة، وهي أعظم معلم، تعلمنا أن أخذنا للجندية يكون نتيجة ضعفنا، وجب أن لا ننتظر دلائل أخرى على سوء المصير الذي يهددنا. وبما أن الموت ينزل بالذين ينتظرونه جُبناً في بيوتهم، كما ينزل بالذين يقومون لرفع نير الظلم عنهم، فلا ترددوا، بل فلنتحد اتحاداً وثيقاً لحمته وسداه الاخلاص، ولننهض بغير خوف، فان الاستبداد الذي يهددنا حتى آخر ساعة من حياتنا هو على وشك أن يهدم وطننا. ولنكن على يقين أن الندامة المتأخرة لا تنقذنا اذا، لا سمح الله، افترقنا، أو ترددنا لحظة طرف عن توحيد قوانا لاستعادة حريتنا.

«ولكي نسلك بحزم، وفقاً لما تقتضيه ظروف خطيرة كهذه، مطبقين عملنا على الحكمة والرزانة الجديرتين بشعب حر مثلنا، يجب أن نعقد اجتماعاً من الرجال المعروفين بعلو المنزلة وسمو المدارك ويكون قوام هذه الجمعية خمسة رؤساء ينتخبون بأكثرية الأصوات في كل اقطاعية، فيعقدون كلهم، أو بعضهم، مجلساً في مكان مناسب للاتفاق على وضع ادارة منظمة، وينتقي عشرة آلاف من رجالنا البواسل لمقاومة كل الدسائس والحركات العدائية المسددة نحو حريتنا.»

«ولتخصص الضرائب – التي كان في نية الحكومة استيفاؤها من الذين كانت تريد تجنيدهم لو لم ننهض عليها – لشراء المؤن

(*) يريدون: جنود ابرهيم باشا، وكانوا يسمون بالنظامية.

اللازمة للعشرة آلاف مقاتل، الذين سيقتدون ببسالة المكابيين، وقد كان كل فرد منهم يحارب عشرة. فمن كان الحق في جانبه لا يقهر.»

«ويقتضي أن تكون روابط أعضاء هذا المجلس مع بعضهم متواصلة، ليتسنى لنا اتخاذ التدابير العاجلة لحماية مواطنينا المحدق بهم الخطر، وانقاذاً لأنفسنا من العبودية والظلم، وإخفاقاً لجميع مؤامرات وحيل سلطة مكروهة تقصر عن تفريقنا عن بعضنا (...)»

«... وان أهالي دير القمر في مقدمة من تسلح للدفاع عن دعوانا المقدسة والعادلة. فليسمع نداؤهم الوطني في كل الانحاء»

«اما نحن فان عزيمتنا وطيدة لا تتزعزع، فقد أقسمنا على استعادة استقلالنا، أو نموت في هذا السبيل.»*

وارسل الأمير بشير بعض أنسبائه الى رجال العامية ينصحون لهم بالعدول عن حركتهم، وأجابهم الثوار:

«اننا لا نرجع إلا اذا قبل الأمير بهذه الشروط، وهي:

اولاً : اننا لا ندفع إلاّ مالاً واحداً فقط.

ثانياً : أن يرفع الامير بشير بطرس كرامه من ديوانه.

ثالثاً : أن يضع في ديوانه من الطوايف من كل طايفة اثنين.

رابعاً : أن يرفع عنهم السخرة وحفر المعدن.

خامساً : أن يبقي لهم السلاح.»

(*) «ثورة وفتنة في لبنان»: ص ٣٢، نقلا عن «المحررات السياسية». وننبه هنا الى ان كثيراً من الفقرات التي سننشد بها في بدء الفصول الآتية منقول من «مجموعة المحررات السياسية والمفاوضات الدولية عن سورية ولبنان»، ترجمة الشهيدين فيليب وفريد الخازن.

ولم تكن الاستجابة لمطالب الثورة بيد الأمير الشهابي لأن الاحتلال العسكري استولى على الحكم كله ولم يُبق له شيئاً من سلطانه السابق. وهب أنه كان باستطاعة الأمير البتّ فيها، فالانكليز المصرون على اخراج ابرهيم بن محمد علي من ديار بر الشام كلها كان بقدرتهم ايجاد أسباب جديدة أخرى تثير الفلاح اللبناني، وأسباب جديدة أخرى يسلّحون بها «اصدقاءهم» من الاقطاعيين المنضمين الى العامية كي يكملوا انتفاضهم على ابرهيم باشا وحليفه الأمير بشير.

وقضت حكومات باريس ولندن وبطرسبرج وفيانا وبرلين أشهراً عديدة في مفاوضات عنيفة ومعاكسات حامية حول استفحال الحرب بين والي مصر وسلطانه، حتى خيف من نشوب حرب اوروبية، فقد وقفت فرنسا تدافع عن مطامع «حليفها» محمد علي وراحت الدول الأربع الأخرى تعاكسه، حفاظاً على الحالة الراهنة في السلطنة. والمذهل المدهش في موقف حكومة باريس أنها كانت في الوقت عينه تعلن أنها «حامية» اصدقائها التقليديين الموارنة، وهؤلاء الاصدقاء هم في طليعة الثائرين على ابن حليفها محمد علي!

وتجلّت مساعدة الانكليز للثورة في أن قطعاً من أسطولهم، وسفناً حربية نمسوية وبارجة عثمانية، القت قنابلها على بيروت وهدمت بعض مبانيها (أيلول ١٨٤٠).

وانسحب جيش ابرهيم باشا راجعاً الى مصر، بعد أن كلفت حملته الفلاح المصري ثلاثماية ألف كيس (مليوناً ونصف مليون ليرة ذهبية في ذلك الزمان!) و ٦٣ ألف جندي!

وخلع الانكليز الامير بشيراً بفرمان من السلطان العثماني الجديد عبد المجيد، ونقلوه منفياً الى مالطة مع عائلته وحاشية كبيرة. وعلق المؤرخ الشدياق على مغادرة الامير سرايته في بيت الدين قائلاً: «... وعند ذلك

تسابق أهل دير القمر وبعقلين على ما تركه الامير في السرايا فنهبوا بعض الأسلحة والمآكل والأمتعة جبراً من الوكلاء الذين أقامهم قبل قيامه.»*

وانهار مجد ابي سعدى[1] وانفتح الباب المؤدي الى قرب انهيار الامارة الشهابية.

☆ ☆ ☆

في تلك السنة عينها وبالضبط في شهر آب (اغسطس) ١٨٤٠ نشر الرحالة الفرنسي بوجولا مقالاً في جريدة «لي كوتيديان» الباريسية، يحذر فيه كاثوليكيي فرنسا من المساعي التي يبذلها الانكليز «وهم التجار قبل كل شيء» لأجل انشاء مملكة اسرائيل في اورشليم ليرئسها اليهود. وقال ان هذا المشروع يسنده ذهب أسرة روتشيلد المنتشرة في باريس ولندن وفيانه لتدير مصارفها فيها، وكل فرد منها «يتكلم من فوق صناديقه كأنه يتكلم من فوق عرش». وقد استشهد الرحالة الفرنسي بذلك المسعى الانكليزي ليبرر حملته على سياسة لندن التي حاربت تحالف محمد علي باشا والأمير بشير في لبنان.**

☆ ☆ ☆

من آثار الاحتلال المصري لهذه البلد أن جنوده الذين هاجموا القرى الدرزية استولوا على ما في خلواتها من كتب المذهب التوحيدي وبعثروها، فنقل بعضها الى مصر وبيع الآخر الى الاوربيين. ومن هؤلاء انتقلت الى المكتبات الرسمية في أوروبة وأميركا حتى صار باستطاعة طلاب المعرفة (والراغبين في استقراء مذهب الدروز والاطلاع على حكمته السرية) أن يسافروا الى القاهرة وباريس ولندن وروما وبرلين، وما اليها، فيدرسوا تلك

(*) الشدياق، ص ٦١٠.

(**) الشدياق، ص ٥١٩.

الكتب وينسخوها أو يصوروها. وكان الوصول اليها في الماضي مستحيلاً أو صعباً جداً، لأنها محفوظة في حرز حريز عند رجال الدين وحدهم، ولم يتسرب منها الى غير الموحدين إلا القليل من القليل، وهذا القليل حفظه مالكوه في خزائنهم. وفي رأينا المتواضع أن هذا الحادث هو من أعظم حوادث القرن التاسع عشر في لبنان العلم.

ومن أثر ذلك الاحتلال أيضاً نموّ مدينة بيروت نمواً سريعاً شاملاً، وكانت قد صارت قرية محصورة بسور، ولا يدخل اليها إلا من أحد أبوابه السبعة. فنقل اليها مقر الولاية من صيدا فور جلاء جيش ابرهيم واحتلال الانكليز والعثمانيين لها بعدهم. وأنشئت فيها المخازن التجارية والمدارس. وجاءتها الارساليات الدينية والتجارية، وبسبب التصاقها بالجبل وامتدادها على البحر صارت في مقدمة مدن السلطنة. وازدادت عمراناً في مطلع القرن العشرين فلقبت بالدرة في تاج آل عثمان. ولم تعش بيروت، ولا صيدا الأكبر منها شأناً ومساحة في ذلك الزمان، في النظام الاقطاعي السائد في الجبل، بل كان طابعهما تجارياً، وهما صلة بين البحر والجبل وما وراء الجبل، وفيهما صناعة بدائية محلية، والمباني والأرض فيهما ملك لمالكيها من بورجوازيين وتجار ومواطنين عاديين، وليس للاقطاعيين.

ومثلهما كانت طرابلس، الأكبر من الاثنتين، والاغنى بمعالمها الاسلامية التاريخية، وهي تتأثر بالعائلات التي تنجب العلماء[2] – الا في حكم بربر آغا – وقلّ أن عني سكان المدن الثلاث بشؤون السياسة «الاستقلالية» بسبب ولائهم الدائم والمتوارث «الجلالة سلطاننا المتبوع الأعظم»* وشذّ بعض أفراد في بيروت لم ينحنوا أمام الولاة في حالات قليلة، او انهم تأثروا بـ «عروبة» الجيش المصري.

(*) عبارة كانت على لسان كل فرد في ذلك الزمان، ولا سيما رجال الأديان جميعا عند اتيانهم على ذكر اسم السلطان.

وقد يكون أهم ما جرى في ثورة اللبنانيين على حكم ابرهيم باشا ظهور أفراد من صفوف الشعب قادوا «العامية» وحدهم. وهي ظاهرة جديدة وخطيرة تدل على واحد من اثنين:

(أ) اما أن يقظة شعبية بدأ يذر قرنها، بعد أن رسخ الحكم الاقطاعي المطبق في البلاد، وبخاصة في عهد الأمير بشير الذي قاد الامارة طغيانه الى الفناء، اذ إن المستنيرين الذين أتيح لهم أن يتعلموا قربوا كثيراً من الحرية بمفهومها الاوروبي الجديد.

(ب) وإما ان الاقطاعية التي كانت تسود الجبل ظلت حليفة، (فسّرها: عملية، سواء أدرت أم لم تدر) للاحتلال الاجنبي.

ولعلّ الامرين صحيحان.

وبعد شهر واحد من الجلاء احتفل في بيروت بأول اجتماع مختلط، ضمّ مسيحيين ومسيحيات وقد سفرن عن وجوههن وظهرن لأول مرة أمام غير أهل بيوتهن. وقد تمت تلك الثورة الاجتماعية في منزل مثقف مقدام اسمه الخياط. وكانت المرأة يومها ما تزال تتهم بأنها ناقصة عقلاً وناقصة ديناً، و »لأمرٍ ما حرمت النبؤة والإمامة والقضاء.» (راجع القصة في «صوت من لبنان» من مجموعة «نصوص ودروس»، ترجمة مخائيل صوايا: المطبعة الكاثوليكية - بيروت - ص ٩٦ - ٩٨).

أُعْطيتَ مُلكًا ولم تُحسِن سِياستَهُ...

وضعت الجاسوسية الانكليزية في بر الشام، ومركزها الرئيسي في بيروت، تخطيطاً مدروساً بأناة وتعقل، وذا نفس طويل للسيطرة على الشرق العربي كله - أو لرقابته في الأقل - وذلك لحماية درب الهند، أولاً، المتدة من السويس. ومن ذلك التخطيط خلع الأمير بشير وأبعاده عن إمارته بوصفه العامل الاول في تنفيذ مطامع محمد علي، وكلاهما في خدمة فرنسا ذات الخطر على درب الهند. كما فرض التخطيط الانكليزي ايجاد مرشح شهابي قبل خلع الحاكم ليخلفه ساعة القضاء على حكمه. ففرض سوء حظ اللبنانيين - الدائم ! - ان يكون الخلف المختار نسيب الأمير المخلوع، وسميه، الامير بشير ملحم شهاب الملقب بـ «بو طحين»* ولم يكن الجديد كثير التهذيب، ولا سيما بالنسبة الى محيط متحفظ سيعيش فيه، وهو الى ذلك محدود البصيرة وأرعن التصرف.

وجميع العقلاء والبعيدي النظر في البلاد رأوا عجباً وجللاً في تعيينه، فقد رأوا فيه تدخلاً انكليزياً سافرا، وهو أول تدخل أجنبي، غير عثماني، من نوعه في تعيين حاكم لبنان، منذ وجد لبنان!

واستسلم الامير الجديد استسلاماً مخجلاً لمشيئة عمال لندن وموظفي استنبول في ادارة الإمارة، ينفذ سياستهم ورغباتهم، واساء التصرف مع

(*) راجع هذه المعزوفة التي اذيعت في يوم المختارة.

ممثلي الاقطاعية، ولا سيما في الشوف، وتحداهم وتحدّى كثيرين سواهم. ولم يبد ذرة من الحكمة ولا من التبصر في أعماله. وزاد الانكليز بلّة في طينه المائع بأن عيّنوا سكرتيراً له تاجراً بيروتياً آدمياً من اصدقائهم اسمه فرنسيس مسك، يجهل الجبل، وتاريخ الجبل، وسياسته، وتقاليده، ورجالاته، ومجتمعه، وطوائفه، ففشل هو أيضا في خدمته واضطربت البلاد من جديد.

واخذ الشهابيون واللمعيون والارسلانيون والجنبلاطيون والعماديون، واخوانهم، يتربصون ببو طحين، ولكل منهم غرض وغاية. وما عجز عن تحقيقه بشير السابق وحليفه ابرهيم باشا في تفريق الأخوة اللبنانيين، عمل لتحقيقه خلفه وسميه حتى خيّل للناس أنه عيّن لأجل هذه المهمة. فعصفت بالجبل ريح فتنة سموم اشترك الأجانب اشتراكاً علنياً بالتحريض عليها، وفوجىء الشعب البريء، الكادح المضياف، وابو الاريحيات، بسلاسل تقوده الى التناحر باسم الدين لسبب تافه جدا، ولا علاقة لأي من ابنائه به، ولكن الصدور كانت تتأهب للانفجار من سوء الحكم ومن اساءة الحاكم، الى كرامة الاقطاعيين الطامعين باسترجاع صلاحياتهم بعد زوال حكم مغتصبها منهم. ويشاء سوء حظ الشعب اللبناني أن يكون أكثر أولئك الاقطاعيين من بني معروف. ومن عادة الدروز توقير زعمائهم وكبارهم ووجوههم، والامتثال لهم، والدفاع عن كرامتهم – وما يزال كثير منهم على هذه العادة – فكان بدهياً أن ينفجر الدروز.

وكانت الجاسوسية الانكليزية قد وضعت في رأس تخطيطها الذي أشرنا اليه في بدء هذا الفصل وجوب الاعتماد على قاعدة شعبية تواليها في لبنان كما يعتمد الفرنسيون. فسعى رئيسها الكولونيل روز[1] لأن تكون الطائفة المارونية هذه القاعدة. ولكن البطريرك يوسف حبيش عارض مسعاه بشدة، تمسكاً منه بفرنسا ذات الولاء العريق للبطريركية المارونية،

ونفوراً من المذهب البروتسطاني الذي تمثله انكلترة وتحميه، وهو في نظر غبطته خطيئة مميتة تؤدي بصاحبها الى الجحيم! ... ولما فشل ابو الجاسوسية الانكليزية في مسعاه لدى البطريرك المشار اليه اتجه نحو الاقطاعية الدرزية وتبنى توجيهها وحماية امتيازاتها ومصالحها. وهذا المسعى اعترف به الكولونيل روز نفسه في تقرير كتبه الى حكومته عن نشاطه في تلك الفترة التاريخية قال فيه: «ان الموارنة مستسلمون نفساً وجسداً الى فرنسا (...) فلم يبق لانكلترة أن تختار في الامر بل صار من الحتم عليها أن تعضد الدروز. «مجموعة المحررات السياسية»: ج ١ ص ٧٣.

وكان الى جانب الحاكم بو طحين اقطاعيون دروز ومارونيون ومعهم مسيحيون من أصحاب المصالح من جبليين وبيروتيين متألمين من عبارة «اشمل يا كافر» التي سيأتي خبرها في فصل مقبل.

في تلك الضائقة النفسية تلطّف وتفضل وتكرّم قنصلان أوروبيان بالتأكيد للبنو طحينيين وللبطريركية المارونية والرئاسات المسيحية: ان الحركة هي حركة تسلط درزي على المسيحيين فانجرّ الشعب البريء في الجبهتين الى القتل والذبح. ولم يقتل اقطاعي واحد وانما قتل وذبح ابناء الشعب الابرياء الذين لا ناقة لهم بأسباب الفتنة ولا جمل!

ومن جديد تدخلت عواصم اوروبة. ولكنها تدخلت مشتتة الآراء ومتناقضة المطامع. واستنبول تبذل كل ما تستطيعه للقضاء على مبدأ الحكم اللبناني فانتهت المأساة باقالة مسببها الاول الامير بشير بو طحين من الامارة. وبه ختم حكم الشهابيين. وقيل فيه: «أولهم بشير وآخرهم بشير»* وبصقت لندن عميلها المحترق لتحتضن اعداءه!

(*) كانوا ثلاثة بهذا الاسم حكموا لبنان. والثاني فيهم حكمه أطول حكم عرفه الجبل.

ووقّفت استنبول في تمشية سياستها وعينت عمر باشا خلفاً لبشير الثالث وهو موظف عثماني بكل ما لهذه الكلمة من معنى، يوغل في العثمانية لينسي اولياء الأمر أصله ودينه[٢]. فتسلم الحكم ليتلقى الأوامر من ممثلي الحكومة العثمانية والقيادة الانكليزية وينفذها تنفيذاً أعمى. وعدّ عهده انه الاول من نوعه في لبنان، فقد دشّن فيه الحكم الأجنبي المباشر، دون أن يكون لأصحاب الشأن أية كلمة!

ومع جميع كفاءاته الحربية واصطحابه ألف جندي الباني تحت امرته، ومع جميع الامكانات والصلاحيات والرياح المؤاتية ورضى السلطان شخصياً عليه واحترامه له، عجز عمر باشا عن تنفيذ الرغبات التركية في عثمنة لبنان، وعجز عن تحقيق سياسة انكلترة في القضاء على امتيازاته الاستقلالية، ليصير مقاطعة مثل مقاطعات الأناضول فلا يتاح لفرنسا التدخل في شؤونه. وعجز عن كسر عنفوان الجبليين المفتدين تربتهم بالارواح. والسبب في تلك الرغبات والسياسات ان الامارة اللبنانية، في العالم العربي، لم تكن ليطمئن الترك الى عروبتها. ناهيك بأنها «الدولة» العربية الوحيدة التي وطد استقلالها الداخلي استمرار وراثي في أسرة واحدة بلا انقطاع، تتابع الحكام من أبنائها مئة وأربعاً وأربعين سنة حتى صارت دولة في قلب الدولة*.

ولقي عمر باشا معارضة شديدة في حكمه (اقرأ التعقيب رقم ٢ في الحواشي ص ٢٣٦) فأتبع سبيل سلفه بشير بو طحين في الصلف والغدر. ولكنه لم تكن له مثل الشهابي جذور لبنانية فلم يلبث أن ضج الشعب منه بعد أن انتشرت الفوضى في جميع الجهات.

وفوجئت السياسة بعجب مشتغرب: فالاقطاعية الدرزية التي أقامت النكير على الحكم الشهابي أكثر من عشرين سنة وأصرت على الانعتاق

(*) وقبل الشهابيين، حكمت الأسرة المعنية العربية أكثر من خمسة قرون حكماً وراثياً متواليا. ولم يقع مثل هذا في سوى لبنان وعند اشراف مكة.

منه، وكتبت في ذلك عشرات الطلبات الى استنبول والى عمال انكلترة في بيروت، رضيت فجأة برجوع هذا الحكم الى لبنان شرط أن ينضم اليها مواطنوها النصارى في عزل عمر باشا.

وعُزل الحاكم المذكور وأخرج من لبنان مع جنوده الالبانيين* بعد أن نفخ في نار فتنة مذهبية جديدة بأمر من أسياده، وتداخلت حكومات أوروبة في شؤون لبنان من جديد، وهي على عادتها متضاربة الاهواء والمطامع، وزاد التدخل في التوتر بينها حتى تأزمت علائق بعضها ببعض. و «عطفت» فرنسا على البلد المتداعي وقد فرقته النكبات: فجهلٌ في شعبه، وأحقاد وثعلبات ووصوليات في متزعميه، ومطامع دولية من الخارج - ألم نقل أننا في طريق الهند، والهند شغل الكبار الشاغل؟ - ورأت حكمة الاعتدال، وقل: التسويات السلمية، تخفيف الأزمة بمعالجتها بالمسكنات الموقتة ما دامت اوروبة تخشى هبوب شرارة حرب بينها قد تحرق الأخضر واليابس. واذن: فليُمنح لبنان نظاماً استقلالياً موقتا، وبقدر ما تسمح به الظروف. فلا يموت الذئب ولا يفنى الغنم.

(*) هم المعروفون بالارناؤوط. وقد بقي منهم في بيروت وصيدا وتزوجوا فيهما وسمي ابناء اكثرهم باسم فلان الارناؤوط.

«وكل من يترك، لأجل اسمي، أبا او أما،
او بيوتا
او أخوة أو أخوات،
او امرأة أو بنين،
او قرى،
يأخذ عوض الواحد مئة ... ويرث الحياة
الابدية.»

مرقس: ١٠، ٢٩-٣٠.

إقطاعية اشتراكية روحية

مع طي ورقة الامارة الشهابية التي أوجزنا أحداثها في الصفحات السابقة، وهي صفحة توطيد الاقطاعية اللبنانية، وتنظيمها، حتى صارت أكثر الاقطاعيات العربية انتظاماً وتماسكا، في مقاطعة تعصف بها الأحداث الخارجية والداخلية لتطويرها، كما هي صفحة إنهيار تلك الاقطاعية انهياراً أبديا، عمليا وقانونياً - لا بد من بسط قصة كيان جلل نشأ في عهدها ورافقها ونما في حكمها، ثم ازدهر وتلألأ، ولا بد له من «الذوبان»، بدوره، بعوامل تطور نواميس المجتمع اللبناني - الا إذا صحا العقلاء فيه، وفتحوا عيونهم ليدركوا ماذا يجري في العالم.

هذا الكيان الجلل الذي وضعت أسسه في حكم الامارة الشهابية هو ما يعرف باسم الرهبانيات المارونية.

وايا كان رأي الناس في وضع هذه الرهبانيات اليوم، وفي أعمالها، وفي التناقض الصارخ بين قوانين نشأتها التي ستقرأ موجزها، بعد قليل، وبين مظاهر عيشها الحالي - بين سبب وجودها الاول للتنسك والزهد بالعالم، تحت شعار نذورها الوجوبية الثلاثة: الطاعة، والعفة، والفقر، وبين «تمدنها» الآن - بين جهاد قديسيها الأبطال الكادحين في العمل المضني - ما أكلوا لقمتهم الا مغموسة بعرق الجبين والدم، وقد أكلوا وطعموا - وبين انصراف معظم رهابينها في هذا العصر عن كل عمل يدوي انصرافاً كليا.

وايا كان الغد الذي ستواجهه الرهبانيات المارونية - وقد يكون هو الذي سيواجهها - بتأثيرها في المؤمنين، وبمعاملتها لبقية الفلاحين العاملين في أراضيها...

وايا كان عدد الناس الذين سيحفظون جميلها الذي لا ينسى...

وايا كان رأي الناس في كل ما أشرنا اليه للتذكير، فان التاريخ الصادق يعلن بكل وفاء:

ان الرهبانيات المارونية هي بعض جبل لبنان. وكانت بعضه الاكرم، والافضل، والمنتج الباني.

هي في البدء حياة زهد وتنسك في البراري لأجل التعبد في منأى عن الناس، على غرار القديس انطونيوس المصري الملقب بكوكب البرية أبي الرهبان. ففي شمالي سورية حذا حذوه الراهب السرياني القديس مارون، كافراً بمغريات الأرض، وعاش متنسكاً في جبل قورش، ولم يلبث أن تبعه كثيرون فاعتبر مؤسس المناسك في بلادنا.

واتبع تلاميذ الراهب مارون تعاليم المجمع الخلقيدوني (سنة ٤٥١) القائلة بوجود طبيعتين ومشيئتين في السيد المسيح، فنشب خلاف بينهم وبين أخوتهم وأبناء أعمامهم من الذين رفضوا تلك التعاليم وقاوموها حتى انقلب تفارقهم الى عداء دموي، ففتك الانسباء بالتلاميذ المارونيين وهرب هؤلاء من سورية لاجئين الى جبال لبنان.

وفي هذه الجبال تابع كثيرون منهم حياة الترهب في عيش فردي. وعلى توالي القرون صار عيشاً مشتركاً بين بضعة رهبان، والى جوارهم بضع راهبات، ولكنه عيش غير منظم: كل جماعة تقيم منفردة في ديرها مستقلة عن الجماعات الرهبانية الأخرى.

ولم يعرف اولئك المتعبدون العيش الرهباني القانوني الا بعد مجيء ثلاثة شبان موارنة من حلب[1] الى لبنان (١٦٩٤) عند بطريركهم أسطفان الدويهي[2] في وادي قنوبين[3]، طالبين اليه أن يسمح لهم بالعيش رهباناً بين أخوتهم الموارنة. وكان أحدهم جبريل من أصل لبناني ونسيباً للبطريرك، فحاول السيد الدويهي صرفهم عن قصدهم بحجة أنهم أبناء ثراء ورفاهية

وأن الحياة الرهبانية في هذا الجبل شاقة شظفة، وأن الحروب والمغازي ستهددهم بالخطر في كل ساعة. ولكن تهويل البطريرك لم يثنهم عن أمنيتهم وأصروا على تحقيق ما في نفوسهم فطلب السيد الدويهي الى مواطنيه الاهدنيين أن يسمحوا للشبان الثلاثة بالسكن بينهم في دير القديسة مورا فقبلوهم. ورمم الشبان الدير وسكنوه.

وبعد قليل رسمهم البطريرك الدويهي قسيسين وانضم اليهم بضعة عشر راهباً فوضعوا قانوناً لتنظيم حياتهم الجديدة ووافق عليه أبوهم الأعلى البطريرك. ثم كثر العدد عشرات وبدأت الأديار تكثر في مقاطعات مختلفة.

وتدخل بينهم بعض المرسلين الأجانب ليكونوا مبشرين معهم، لا نساكا، تابعين البابا مباشرة - وهو الرئيس الأعلى، الغني مالاً ونفوذاً، والمنتشر سلطانه في العالم - بدلاً من أن يكونوا تابعين بطريركا فقيرا على طائفة فقيرة ... فاستصوب أحد المؤسسين كلام المرسلين الأجانب وافترق عن أخويه ليعمل مبشراً وثبت الآخران على حياة التنسك، وتابعا السير النشيط الى العمل المذهل!

ان أول معجزة أتى بها الرهبان الاوائل خضوعهم الكامل لقوانينهم وانسجامهم في نظام واحد، وهم الاغراب بعضهم عن بعض، في التربية والسلوك والنشأة الطبقية والعادات و «القومية». (حلبيون ولبنانيون وسريان الخ...) وواجهوا المستقبل بايمان أقوى من الحياة، وكأنهم أخوة من بيت واحد!

ونص قانون الترهب على أن من يرغب في الحياة الرهبانية يجب أن يقضي سنة على الأقل في تجربتها، وهي في الماضي تجربة شاقة جداً ويقال لصاحبها: «المبتدىء»، فاذا احتملها بصبر ورضى أعلن نذوره الوجوبية بألفاظ صريحة، وهي ثلاثة: الطاعة والعفة والفقر. ووصف الأب لويس

بلبيل، جامع «تاريخ الرهبانية اللبنانية المارونية» بأن الرهبان «كانوا حريصين جداً على حفظ القوانين والترتيبات بكل دقة» وقال:

«ويا ما أشدّ ما كانوا يحافظون على نذر الطهارة، فقد قطعوا كل سبب يؤذيها، عملاً بارشاد القانون ونصه. وكانوا يمنعون النساء من الدخول الى الأديرة وكنائسها، والاولاد من النوم في الدير. ولم يكن راهب يكلم امرأة وحده. واكثرهم لا يحدثون النساء ولا يواجهونهن – الا الرئيس عند الضرورة. – ولا يسافر أحد في طريق بغير رفيق. ولا يأكلون في بيت العالميين أصلاً، ولا يشربون الماء الا بأذن الرئيس. فان كان الشارب كاهناً استأذن وهو واقف، وان أخاً* فهو راكع. واذا جلسوا للطعام كان الرئيس في المقام الاول وبعده أصحاب الوظائف الكبيرة، وبعدهم الأقدم في النذر. ولا يجلس أخ الا بعد أن ينحني الى الأرض ويمسّها بأطراف يديه. واما المبتدىء فيجثو على ركبتيه ولا يجلس حتى يؤمر بالجلوس، وكذلك في بيت المائدة. ولا يتكلم ولا يجلس بحضرة الأخوة الناذرين ما لم يؤمر بذلك.

«وكان الرهبان مواظبين على كشف أفكارهم للرئيس في كل مساء، وعلى القراءة الروحية في بيت المائدة وهم يتناولون الطعام. وأما قناعتهم في المأكل وتقشفهم فحدّث عنهما ولا حرج: فمنهم من يأكلون دون الشبع، ومن يختارون بقايا الطعام وفضلاته، ومنهم من يقتصرون على ما هو دونه والضروري للحياة، وبعضهم لا يذوقون فاكهة ولا حلواً ولا خمراً. وبعضهم يعذب جسده بالعطش. ومنهم من يمارس الصوم المديد، او يصوم يوماً أو يومين ويأكل قليلاً ويحيي ليله ساهراً في الصلاة».

(*) الاخ هو الراهب الذي لم يصل الى درجة الكهنوت.

«وكانوا يتحاشون الكذب والحلف والمواربة والخداع، فكانت كلمتهم: نعم ولا. ولا يخاطبون عالمياً الا لضرورة، وفي ما قلّ من الزمان، وقلما يتحدثون الا في الروحيات.

ويعكفون على عمل اليد من مثل حراثة الكرم والارض، وتربية دود الحرير، وغرس الشجر، وتربية البقول، ونسخ الكتب الخ... ولا يشغلهم عن اقامة الصلاة في أوقاتها شاغل.

وجملة القول أنهم كانوا يحصلون قوتهم الضروري وقوت ضيوفهم من غريب وقريب بكدّ أيديهم وعرق جبينهم.

وكانوا اذا فرغ لهم وقت يصرفونه في مطالعة الكتب الروحية. وكانوا كارهين اللذات، انقياء الأفكار واللسان، طاهري القلوب، بعيدين عن كل شر. وكان مجرد النظر اليهم يعلم السيرة الروحية والعبادة الحقيقية.

وبلغوا في محبة بعضهم لبعض أن من ينظر اليهم يحسبهم جسداً واحداً ونفساً واحدة. واذا شعر أحدهم أن أخاه متذمر منه بدر اليه وركع أمامه مستغفرا.

وما تقرر العمل به لأمن (اتقاء) الاهواء أن للرئيس أن يوبخ الراهب، بحق وبغير حق.

واما طاعتهم فكانت عجيبة حتى لم يسمع أن أحداً خالفها الا من باب النسيان. وما كانوا يقتصرون على اطاعة الرئيس، بل يوجبون على أنفسهم الطاعة لبعضهم بعضا.

وجرت العادة بينهم أنه اذا أبصر أحدهم في أخيه نقصاً لزمه، من باب المحبة لاصلاحه، ان يوقف الرئيس عليه ليؤدبه.

واما الفقر فكان فضيلتهم المحبوبة. ولم يكن أحد منهم يملك شيئاً أو يقول: ان شيئاً لي، ثوبا كان أو غير ذلك. ولا يضع أحد في قلاّيته* الا ما كان ضرورياً ودلّ على الفقر. وكان المال أحقر في عيونهم من التراب ولا يتعامل به الا الوكلاء والرؤساء.

وما عدا الرياضات الروحية اليومية يقيمون رياضة سنوية مدة ثمانية أو عشرة ايام.

وقد نوّه بتقواهم وسيرهم الروحي الممدوح المجمع المقدس في إعلامه الصادر الى رهبانيتنا في ٤ شباط ١٨٩٥. [يُحاسب] كاهناً كان أو أخاً أو مبتدئا، ويفرض عليه قصاصا. ذكرت هذه الأمور كلها لنعلم هذه العادات الحميدة التي سار عليها آباؤنا القدماء، وهي في قانوننا، فنقتفي آثارهم فيها.» (ج ١، ص ٤٤ وما بعدها.)

قلنا: وقد نسي الكاتب أن يذكر بدء اولئك الرهبان الصالحين عملهم في الارض، وهم في الجبال الجرد، فكانوا يبسطون التربة ويفتتون الصخور ويبنون «الجلول»، ويجعلون منها حدائق غناء. وكذلك كانوا يصنعون الصابون ويعصرون الخمر والدبس، ويجلّدون الكتب، ويغزلون الأصواف ويحيكون جميع ملبوساتهم ويعملون في الحدادة والنجارة والسكافة فلا يشترون شيئا.

وعلى كثرة المتاعب والمصاعب للحصول على الرغيف في جبال مهددة دائماً بالغزو، وعلى تصارع الاهواء البشرية بين رجال لم ينشأوا، ولا تهذّبوا، تحت سقف واحد، وانما جاؤوا من تربيات مختلفة وأماكن متباعدة، شقت الرهبانية التي سميت بالرهبانية اللبنانية سبيلها ولقيت عطفاً من أعيان الموارنة الموسرين اليها فاحسنوا اليها بأراض كثيرة ونشطت الى الحراثة في كرم الرب.

(*) القلاية، مَسْكَن.

وفي سنة ١٧٠٠ تأسست رهبانية جديدة بتوجيه وارشاد من المطران جبرائيل البلوزاني (البطريرك بعدها)، ولكن من متعبدين لبنانيين. والارجح في سببها نوع من التشبه والغيرة الاقليمية، اذ إن الاولى قادتها يد رهبان حلبيين، فبدت في روحيتها وذوقها وعاداتها بعيدة الخلق الجبلي وصعبة الامتزاج به ... وعرفت الرهبانية الجديدة باسم: «رهبانية ماري أشعيا» – الانطونية اليوم – وعطفت عليها أسر مارونية غير قليلة في مقدمتها الامراء أبي اللمع، مما صانها من الفقر والعوز في بدء حياتها. وما قيل في الأعمال اليدوية التي كان الرهبان اللبنانيون يقومون بها، يقال مثله في أعمال الرهبان الانطونيين وسيكون لرهبانية ماري أشعيا شأنها هي أيضاً في نشر المدارس وتحقيق المشاريع العمرانية التي عملت في تطوير الجبل وترقيته. ولعل رأس اعتزازها يبقى في أنها ظلت شديدة الاخلاص الدائم للبطريرك لا تنقل عنه أخبار السوء الى روما ... سواء أكان ذلك النقل بتحريض من بعض المرسلين اللاتين الاجانب، ام بانفعال من بعض قسوة في معاملة البطريرك لبعض الرهبان[4].

ومشى تطور الرهبانيتين مشياً متئداً، ومتعثراً أحيانا، يدفعه دائماً الايمان والتعبد لله وحده، لا شريك له، ويغذيه العمل الكادح النشيط في البرية وداخل الأديار عملاً متواصلاً.

ولم يلبث مبدأ القصد من الترهّب أن تحلّل وتفتح قليلاً: فقد لمس المتعبدون أنهم غير بعيدين عن الناس، وانهم مضطرون لمعاملتهم وإن قليلاً وبقيود، فلا بأس من تعليم صغار جيرانهم مبادىء القراءة لتساعدهم على قراءة الانجيل، وبدأ الرهبان ينشئون «مدارس تحت السنديانة»*. ثم تطوّر،

(*) كان الى جانب كل كنيسة في الجبل سنديانة أو أكثر – الشعار الوطني الآخر للجبلي أيا كان دينه – وتحت أورف السنديانات ظلاًّ يقعد صغار القرية على الأرض ويعلمهم بونا فلان مسك الحرف بالسريانية والعربية. وجميع عباقرة لبنان المسيحيين قبل النصف الاول من القرن التاسع عشر تعلموا تحت السنديانة.

وما زال يتطور حتى صار للرهبانية الأنطونية معهدها الأنطوني في بعبدا، وفيه أحدث مختبر للفيزياء والكيمياء والعلوم الطبيعية في لبنان، ونواة مركز لوثائق التاريخ اللبناني والتاريخ الديني، وصار للرهبانية اللبنانية جامعتها «روح القدس» في الكسليك. ورحم الله أيام «طاه واو با يا: طوبى!»*

ولكن ذلك العمل الشاق في تفتيت الصخور وحراثة الأرض والصناعة اليدوية في قبو الدير، هل يكفي لاعالة الرهبان؟

لا! الجبل في فقر. مداه الحيوي ضيق. والأراضي التي وقفها الاتقياء للأديرة، والتي اشتراها الرهبان من الجيران، تحتاج الى عمل كثير وطويل لتصلح للانتاج الكافي. هذا اذا لم تقسُ الطبيعة على المواسم وأقحلت الأرض.

في مطلع سنة ١٧٢٩ كتب الرهبان اللبنانيون الى رئيسهم العام الذي سافر الى روما يعلمونه بأنهم في أزمة خانقة: «الضيق والغلا والظلم، وقلة المواسم والكساد، والأمراض والحروب والفتن بين الحكام، لا نستطيع وصفه. يكفي قُدْسكم ان تعرفوا أن الرهبنة خسرت، فرق الغلا، لا غير، قرب أربعة آلاف غرش»**

وفي كتاب ثان الى رئيسهم العام قال الرهبان: «ابو تكم تفهمون ضيق البلاد وعزة الفضة (ندر المال)، وان المطالبة متى وقعت بالموسم وما سدّينا الناس بأموالها بيصير لنا كشف حال ويلحق الرهبنة حقارة كبيرة. وناهيك من سجس (بلبلة) الرهبان واضطرابهم. وهذه الدعوى ما لها طب الا أن تطالعوا راهبين يشحدوا (...) شحادة الرهبان في بلاد الفرنج ما هي

(*) هكذا كان بدء التهجئة في أيامهم. ويكملون الكلمة: «لام لام راجين لام: للرجال»، بتشديد الجيم. وصحيحها: طوبى للرجال!

(**) «اوراق لبنانية»: ايلول ١٩٥٧: ص ٣٨٧ و ٣٨٨.

عيب، لأن هذا حال لم يزل دارج بينهم كل يوم ومن كل رهبنة (...) اذا عجلتم علينا بالشحادة تكونوا حسكتم (وفرتم) علينا جملة فوايد (...) وبدونها، الخراب على الأبواب»*

وفي كتاب ثالث قال الرهبان: «نرجو أن تخرجوا لنا راهبين يطلبوا لنا إحسان من المسيحيين لأجل الضيق الحاصلة به الرهبنة (...) وحقاً أيها الأب المحترم، ان البكاء الذي كان يصير من الواردين الى الديارة لطلب القوت كان كفؤا أن يمزق القلب الصخري الخ...»**

ولا نعرف ما عمله الرئيس العام في تلك الضائقة المخيفة. ولكننا نعرف أن الرهبان مدّوا يدهم، فعلاً، يتوسلون. وان الاحسان المسيحي أبعد شبح الموت عنهم. فسلموا وسلمت أملاكهم.

وتوالت الأيام. وفي سنة ١٧٧٠، بعد خمس وثمانين سنة من العيش الواحد والعمل المشترك والتعاون، انقسمت الرهبانية اللبنانية فئتين: بلدية وحلبية.

لماذا؟

ربما هي عوامل نفسية داخلية، حركها الضعف البشري، فالرهابين من بني آدم مثل جميع البشر. وربما هي أصابع أجنبية رافقت العوامل النفسية الداخلية وسعت الى تجنيد بعضهم، بشكل أو بآخر، ولسبب أو لآخر، حتى لا يكون للبطريرك أية سلطة على قطيعه الرهباني، وحتى ينتقل الرهبان الى مناخ جديد غير مناخ البطريرك.

وايّا كان السبب فالافتراق تمّ بين الاخوة. وتدخلت روما في قسمة التركة لينال كل أخ حصته. وبدأت صفحة جديدة.

(*) المرجع نفسه.

(**) المرجع نفسه.

وكان معقولاً جداً أن يرافق هذه الصفحة همة وحماسة من الأخوين، وان يمتد العمل الى الخارج. فالرهبانية الاولى سبق لها أن انشأت وكالة في روما، واخرى في القطر المصري لخدمة الموارنة والكاثوليكيين العرب المغتربين اليه[*] وبعد القسمة صار لكل من الشقيقتين وكالة لدى الكرسي المقدس بروما. ثم انشأتا وكالات في تركية وفلسطين وقبرص واميركا وافريقية واوسترالية.

وانفصلت الراهبات عن الرهبان انفصالاً كاملاً في أديار متباعدة. وانشئت رهبانيات نسائية جديدة.

وصارت هذه المجموعة البشرية النظامية، المترابطة بالايمان والقانون، اعظم مؤسسة بغناها وقوتها، وذات كيان «ممتاز» ومنيع في الجبل.

لا مشاحة في أن روما ساعدت الرهبانيات العربية كثيرا، على اختلاف مذاهبها الكاثوليكية، وان تلك المساعدة كانت حيوية لها في أزماتها. وربما جاز القول أنه لولا روما لما وصلت الرهبانيات الى ما هي عليه الآن. ولكن من الواجب التذكير أيضاً أن الرهبان الموارنة كانوا جنود الكثلكة في الشرق يرددون مع طائفتهم دائما – دائما –: ايمان بطرس ايماني.

ولحكمة لم تعد مجهولة رأى مجمع نشر الايمان ان ينظم علاقة الرهبانيات به – لخير العمل طبعاً ولمجد الله تعالى – فأنشأ لها «زيارة رسولية» تساعدها في مهامها الدينية والانسانية، وعلى الاثنتين: الرهبانية والزيارة رقيب أعلى هو القاصد الرسولي[*].

ان الانسان ليضعف مهما سما وقوي، والراهب الماروني والزائر الرسولي والقاصد الرسولي ومجمع نشر الايمان جميعهم يضعفون. وهذا ما وقع لهم، او وقعوا فيه، على أثر ايجاد الزيادة اذ رافقت مساعدتها رقابة

(*) الاسم السابق للسفير البابوي.

أخوية مرنة، لخير الكنيسة ومصلحة الرهبانيات، ولحق بالرقابة الأخوية همس في بعض الآذان – للغاية عينها – وأدى الهمس الى طبخ الانتخابات، بل الى التدخل العلني وفرض الارادة الفردية على الجمهور الرهباني – والأرجح في ذلك أنه ما تم لخير الكنيسة ومصلحة الرهبانية – وكان بديهيا أن يجابه ذلك التدخل بجبليين رؤوسهم قريبة من السماء يأبى دمها الماروني العريق – العريق – أن يمصل.

وامتلأ ذلك التاريخ بصفحات مؤلمة وصفحات مفرحة. وفي التدخل الطاغي نظمت زجليات لاذعة وقصائد مرة، وكتبت مناشير قاسية. والزجليات تنشد في سهرات بعض القرى حتى اليوم. ومن أبشع تلك الصفحات أزمة الخلاف الذي نشأ سنة ١٨٧٤ بين الرهبان اللبنانيين على انتخاب الرئيس العام والمدبرين الأربعة. وطبيعي أن لا يكون جميع الناخبين على رأي واحد[٦] وهذا يقع في كل جماعة وكل مكان، في لبنان وفي الفاتيكان. الا أن تدخل المغفور له السيد لوديفيكوس بيافي القاصد الرسولي في الانتخاب المذكور تدخلاً علنيا، بفرض الارادة والسلطان، قد قلب الخلاف في الرأي الى مأساة يا لها من مأساة اذ طلب القاصد الرسولي الى رستم باشا متصرف الجبل[٧]، وهو ايطالي مثله، ارغام الرهبان المعارضين على الامتثال لمشيئته، فنزق الحاكم ولبى القاصد ووقعت معركة بين الرهبان والجند[*] انتهت بجر بضعة عشر راهباً مشياً على الأقدام من دير قزحيا الى سجن بيت الدين! وهذا لم يجر في حكم المماليك ولا في الحكم الاقطاعي. والحمد لله الذي لا يحمد على مكروه سواه، على أنه تم على أيد كلها كاثوليكية، من الرهبان الى بكركي فالقاصد الرسولي فالمتصرف.

☆ ☆ ☆

(*) اقرأ موجز تلك المأساة في ختام هذا الفصل تحت الرقم الخامس (٥) من الهوامش.

ليس من شأن هذا «التاريخ» ان ينقد الرهبانيات المارونية أو أن يمسها بضر. ما كتبناه كان لا بدّ منه ما دمنا في صدد الكشف عن جذور وطننا، هذا الوطن الذي كبّرته مخططات امبريالية الى فوق وسعه، وكبّرت فسيفساءه وفقاً لمصالحها ومراميها، ثم جعلت منه جمهورية زائفة، كاذبة، منكودة، غير عابئة بحقيقته وأسسه وعبره.

وعمل السحر الامبريالي: سحر المواد الاولية والمعادن والنفط، عمله فيه فاستقل لبنان استقلالاً سياسياً تامّا. الا أن متزعميه – جميع متزعميه في جميع المذاهب والأثواب – تابعوا عمل الامبرياليين. ولم يشذ واحد – واحد فقط! – عن مخططهم! بعضنا يكذب على بعضنا، كما كذب المستعمر، وكنا جميعنا كاذبين. التعصب كامن، او نائم، في صدورنا، وجميعنا متعصبون. كل منا يتهم الآخر بما يقترفه هو. جهلاء وجبناء، نحن جميعا.

☆ ☆ ☆

لما شاهدت بعيني البابا بولس السادس رأس الكثلكة في أقطار الدنيا، وصاحب أعظم نفوذ عالمي، يطوّب في كاتدرائية القديس بطرس بروما الراهب الماروني شربل، ويركع أمام صورة القروي الذي عاش عمره في جوار الارز فقيراً ناسكاً يرعى البهم في البراري ويحتطب ويحرث، ادركت أي كسب استطاعت الرهبانيات المارونية أن تكسبه للبنان، لجميع لبنان، لجميع اللبنانيين. وتساءلت: لماذا لا تجعل الرهبانيات من كل راهب شربل جديداً؟

لماذا لا ننفتح بعضنا على بعض بعقل وفهم وصدق؟

ان المارونية هي التي طهرت لبنان من العبادة الوثنية. وهذا العمل هو في نظر المؤمن – اياً كان دينه – أعظم ما يعمله مؤمن. ولم تقض المارونية

على الوثنية الا لنشر تعاليم السيد المسيح. فهل الأعمال التي تأتيها قيادات مارونية بين حين وآخر هي من تعاليم السيد المسيح؟

ان للرهبانيات المارونية تاريخاً بدأت صفحاته بآيات مشرّفة. روّادها عملوا كادحين على أشرف ما يكون الكدح. وكانوا مثالاً في الكدّ والانتاج بأروع ما يكون المثال. لم يعرف الشرق كله أشباهاً لهم تعبوا في خدمة الآخرين، حارمين نفوسهم من ثمر عرق جبينهم حرماناً مثاليا، فكانوا طلائع اقطاعية روحية هي الاشتراكية البناءة والخيرة في دنيا العرب.

فلماذا نبعد عن الينبوع؟

إذا الموارنة والدروز تعلّموا التاريخ

-١-

«... واما الخراج أو «مال الاعناق» فقد فرض على المسيحيين في السلطنة العثمانية لقاء حماية الدولة حياتهم وعرضهم وأموالهم. اما نحن، سكان جبل لبنان، فلم نكلف قطّ حكومة الباب العالي أن تحمينا هذه الحماية، والعكس هو الواقع، فقد كان من عادتنا حماية ذواتنا من الافتتات، وكنا نذود عن وطننا وعن الولايات المجاورة، ونخضع سكانها كلما حاولوا شق عصا الطاعة على الحكومة العثمانية، ومقابلة لهذه الخدم لم يطلب السلاطين العثمانيون منا مال الاعناق. ومن السهل التثبت من صحة قولنا هذا بمراجعة سجلات المالية...»

من عريضة رفعها الاقطاعيون الدروز والمسيحيون و «أهالي جبل لبنان عموماً» في ٢٢ من نوار/مايو ١٨٤٢، الى الباب العالي طالبين الغاء الضرائب التي فرضها عليهم بعد جلاء جنود محمد علي باشا عن سورية ولبنان. ولم تكن تلك الضرائب مفروضة عليهم في الماضي.

-٢-

«في ذلك التاريخ (١٨٤٠) كان الجميع يتوقعون اقتراب تجزئة السلطنة العثمانية. نعم، ان المساعي كانت منصرفة الى توطيد

أركان كيانها، بيد أنه ظهر أن البناء متصدّع، وبدأ يتداعى من كل جهة، وأنظار أوروبة متجهة بخاصة الى بعض المقاطعات الآخذة بالانفصال، وفي مقدمتها سورية.»

[«... اني اتهم الحكومة الفرنسية، لا بضعف بصيرتها فقط في المسألة الشرقية العظمى منذ سنة ١٨٣٦، بل اتهمها أيضاً بقلة الشهامة وقلة الحزم والعزم، وليس من رجل فطِن منزه عن كل غاية الا ويشاطرني رأيي.

ان النمسا، وهي ايضاً دولة مسيحية لها مثل فرنسا مصلحة دينية وتجارية في الشرق، خالفت مصالحها بغية ارضاء انكلترة التي اتخذ موظفوها على عاتقهم منذ ست سنوات مهمة ممقوتة قوامها زرع بذور الشقاق بين الموارنة والدروز، واضرام نار الأحقاد بينهم...»

من خطاب الشاعر الكبير لامارتين في مجلس النواب الفرنسي.

-٣-

«... اننا كثيراً يا حضرات النواب ما نرمي جماعة الموارنة والدروز بعدم التمدن وبالخديعة والغش، فاذا تعلمت يوماً أن تكتب التاريخ فانها حاكمة حتماً على أوروبة بالخيانة. ذلك لأنه جاءها أناس (الانكليز) منها اثاروا الموارنة والدروز ووعدوهم بحفظ ما يضمنهم ويضمن امتيازاتهم بل توسيع دائرتها. وقد رأيتم كيف بُر بالوعد...

... وتحققتم ضعف الحكومة (الفرنسية) في مفاوضاتها دول أوروبة، في حين أن هذا المجلس قد شدّد عليها وحضّها من أعلى هذا المنبر على متابعته المطالبة باعادة الحكم الى الأسرة الشهابية لكونها الوسيلة الوحيدة لحفظ نفوذنا. وواضح جداً ضعف حكومتنا ازاء نشاط معتمدي الانكليز وحزمهم في رفض رجوع الشهابيين الى الحكم، وواضح ما بذلوه من المساعي الخطيرة لابقاء

لبنان مشطوراً الى قائم مقاميتين، وهو النظام الذي جرّ البلايا على سورية، ومزيته في رأيهم تحقيق أمانيهم بطرد فرنسا من الشرق وابادة نفوذها.

... ان أعوانكم واصدقاءكم يا حضرة وزير خارجية فرنسا كانوا يقولون منذ بضعة أيام: ينبغي أن نجعل لبنان مثل سويسره. اما أنا فجلّ ما أبغيه أن لا تجعلوا لبنان مثل بولونية[1].»

من خطاب النائب دي ملفيل في المجلس في ١٥ حزيران ١٨٤٦.

لبنان

عرف النظام «الاستقلالي» الموقت باسم نظام «القائم مقاميتين». وهو في الواقع العملي قسمة لبنان لبنانين: احدهما حكمه امير درزي وحكم الآخر أمير ماروني. وأطلق على كل من الحاكمين لقب قائم مقام. وهذه التسمية الجديدة لم تعن الوظيفة الادارية الضيقة التي نعرفها اليوم، وانما هي استمرار مصغر للإمارة الاستقلالية السابقة، ولبعض صلاحياتها بثوبها البلدي، ولكنها إمارة مطوّرة وقليلة الشأن.

طبخت فكرة «القائم مقاميتين» في البدء في لندن ليستطيع الانكليز أن يسيطروا على لبنان الدرزي لقاء سيطرة الفرنسيين على لبنان الماروني. واوحت لندن الى صديقها البرنس كليمانس دي ميترنيخ[1] رئيس وزارة النمسا وداهية أوروبة في زمانه بأن يتبنى الفكرة فقد يوافق الجميع عليها خصوصاً وان ظاهرها يرينا لبنان المستقل، وصاحب الامتيازات، ما يزال له استقلاله وامتيازاته، وما افترق دروزه عن مسيحييه في الادارة المحلية الا لمنع الخلافات المؤدية الى حساسيات تعيث بالأمن. وفي هذا الافتراق يهدأ بال اوروبة.

وأمر البرنس دي ميترنيخ سفيره في استنبول بأن يعرض الفكرة على وزارة الخارجية التركية والسفراء الاوروبيين لعلهم يوافقون عليها. فامتثل السفير ووافقت الدول على الحل بحجة أنه تجربة موقتة قد تعيد الأمن والاستقرار الى الجبل، ولكن فرنسا تمسكت بابقاء الحكم في شخص من الأسرة الشهابية، ولم تفلح فاضطرت الى المسايرة.

ومشت المياه من تحت أرجل الدول. وطعن الانكليز اصدقاءهم الجدد (الدروز) في الصميم. وطعنت فرنسا اصدقاءها التقليديين الموارنة في الصميم. وابتسم رفعت باشا ناظر الخارجية التركية قائلا: «انهم (الاوروبيين) أشعلوا نار الحرب الاهلية في لبنان!...» وهذا ما كانت تركية تتمناه دائما.

وفي السابع من كانون الاول ١٨٤٢ بلّغ صارم أفندي وزير الخارجية العثمانية ممثلي انكلترة وبروسية (المانية فيما بعد) وروسية وفرنسا والنمسا أن جلالة السلطان قد وافق على قرار مجلس الوكلاء (الوزراء) القاضي بتعيين قائم مقامين لبنانيين أحدهما على الدروز والآخر على الموارنة. فأجاب الدبلوماسيون المذكورون بأن دولهم قد سرها تعهد حكومة السلطان بتثبيت امتيازات لبنان وحرية ممارسة الأديان وتخفيف الضرائب، وابقاء حكمه في أيدي أبنائه «اكراماً لممثلي الدول حليفاته.» – كذا. ووضعت استنبول نظام القائم مقاميتين على هواها وبكراهيتها لاستقلال لبنان، وأعلنت أنه تدبير موقت وفي سبيل التجربة.

وأطلّ التدبير الجائر على الجبل العاني ليزيد في وضعه بلبلة. وقيل للبطريرك يوسف حبيش واقطاعيي طائفته بأن يختاروا قائم مقامهم، فاختاروا الأمير حيدر اسمعيل أبي اللمع المعتبر من أغنى الاقطاعيين المارونيين. وقيل للاقطاعيين الدروز بأن يصطفوا قائم مقامهم فاختلفوا. وتدخل «صديقهم» الجديد الكولونيل روز، وبذل دهاءه كله حتى استطاع أن يقنعهم بتسمية الأمير احمد عباس أرسلان[2] قائم مقام على الدروز. فأصدر سليم باشا القائد الأعلى للجيش التركي الفرمان بتعيينهما.

-١-

«كنا قلال وكترنا. كنا ضعاف وقوينا. كنا فقرا وغنينا...»

(رواية العلاّمة المغفور له عارف النكدي عن مسيحيي الشوف في عهد القائم مقاميتين).

-٢-

«ان الموارنة مستسلمون نفساً وجسداً لفرنسا، فلم يبق لانكلترة حرية الاختيار، وصار من المتحتم عليها أن تعضد الدروز...»

– الكولونيل روز الموفد الانكليزي الرسمي للعمل على اخراج ابرهيم باشا من بر الشام – الى حكومته في لندن.

-٣-

«... والحزب التركي القديم، النازع ابدا الى سياسة العنف والخداع وسفك الدماء، يحلم بابادة الدروز بواسطة الموارنة، وبالعكس.»

– فرنسوا غيزو وزير خارجية فرنسا والمؤرخ العلاّمة

-٤-

«... وانتم تعلمون علم اليقين، ايها السادة، من اين تهب العواصف التي تجتاح سورية التاعسة: ان مهبها ليس من البحر الابيض المتوسط، بل من وراء بحر المانش (من انكلترة)»

– من خطاب النائب الفرنسي بيليو في مجلس النواب

اذن: ان نظام القائم مقاميتين قسم لبنان، فامتدّت اولاهما، المسيحية، من حدود طرابلس حتى طريق الشام، وهي الطريق الحالية ببعض تغيير، وبدأت الدرزية من هذه الطريق حتى حدود صيدا، وفصلت عنها بلدة دير القمر منعاً للاحتكاكات فتولاها متسلّم تركي ومعه شرذمة من الجند الارناؤوطي.

وللمرة الاولى في تاريخه حصر لبنان، بموجب فرمان عثماني، في أرض ضيقة تعلوها جبال أكثرها أجرد مجدب، ففقد مجاله الحيوي، بعد أن كان يكبر ويصغر في عهديه المعني والشهابي بحسب رجولة أميره – ولنذكر أن «الحدود الوطنية» التي تعرفها القوانين الدولية اليوم، لم تكن لها

معالم مستقرة وثابتة في الأيام الاقطاعية -. ولأول مرة فرض على لبنان أيضاً، بفرمان عثماني، أي: فرضاً قانونيا، لون مذهبي معين، درزي ومسيحي، ضمن إطار رسمي.

وهذا النظام الجديد لم يوفق هو ايضا. ومن أهم عوامل فشله:

(١)ضعف شخصي في الحاكمين الجديدين، اثبته تنطّح الاقطاعية الى الظهور والتنفس بعد أن فطسها حكم بشير الشهابي الثاني الذي استأثر بالحكم نصف قرن واكثر.

(٢) ازدياد التدخل الأجنبي - (التركي - الانكليزي - الفرنسي) - في القائم مقاميتين تدخلاً متصارعاً رسميا: ظل الفرنسيون يبذلون الجهد لارجاع الأسرة الشهابية الى الحكم فيتسع مجال نفوذهم، ونشط الى معارضتهم الكولونيل روز، محرّكا الاقطاعيين الدروز ضد المسعى الفرنسي ليتمكن في القاعدة الشعبية التي بناها في الجبل، مما أيقظ الحساسية المذهبية في الجماهير، ونشر التعصب الأعمى في الشعب الجاهل.

(٣) تطور الاهتمام بطريق الهند، وسير تجارة الحرير مع فرنسا نحو النمو.

(٤) ظهور متزعمين دينيين، في الصف الثاني، مع وجود البطريرك الذي كان قيدوم طائفته ورئيسها الاوحد، تسانده الاقطاعية المارونية. ثم ظهور أفراخ متزعمين بعد غياب الحاكم الطاغية البطّاش.

(٥) تحرك المسيحيين في القائم مقامية الدرزية، مدفوعين بالتشجيع الفرنسي، قنصلاً ومرسلين وتجاراً، أو بسبب شراسة بعض الاقطاعيين، رافضين أن يعيشوا تحت حكم الاقطاعية الجديدة، وقد صارت بضعة عشر قائم مقام! وكان جدود اولئك المسيحيين قد جاؤوا عمالاً حرفيين عند المعنيين.

(٦) وقد يكون رأس اسباب الفشل الذي مني به النظام الجديد اعتبار حاكميه، وأعوانهما، ان الحكم «عملية ربح»، وتجارة واستئثار - على ما يبدو جلياً من التعهد الذي بعث به الامير احمد عباس أرسلان الى السر عسكر التركي سليم باشا*. وقد بُعث ذلك الرأي وساد في عهد الاستقلال الاخير......

يضاف الى تلك العوامل اجراءات حكومية خبيثة، كفصل بلاد جبيل والبترون وهي اكبر منطقة في القائم مقامية المسيحية والحاقها بحكومة طرابلس بفرمان رسمي، في حين أن الاكثرية الساحقة من سكانها موارنة. وكإرجاء دفع التعويض للمنكوبين عما نكبوا به من نهب وسرقة وتدمير** ناهيك بالاستفزازات الماكرة لتعجيل التقاتل بين الأخوة الفاقدين عقولهم، وجنوح اكثر الاقطاعيين الدروز، واكثر رؤساء الاكليروس الماروني المتصاعدين الى التزعم، جنوحا جنونيا الى التحاقد، فكانت جولة مؤسفة ومخجلة أخرى!

ومن جديد تدخلت أوروبة - والأصح: ازدادت تدخلاً وضغطاً - وارغمت تركيا على ايفاد وزير خارجيتها شكيب افندي الى لبنان لتدارك المأساة فوضع للقائم مقاميتين نظاماً جديداً (٣٠ من تشرين الاول سنة ١٨٤٥) خالياً كسابقه من الصلاحيات الاستقلالية التي كانت لحكام الامارة الشهابية المتوارية، ولكنه خال ايضاً من الصلاحيات الطاغية التي مارسها اولئك الحكام. «وزاد في الطين بلّة أنه أكّد مرة أخرى قسم وحدة الحكم الوطني قسمين، فاتحاً الباب في وجوه المتنافسين - وما اكثرهم -

(*) انظر باب الهوامش، رقم (٢)، ففيه التفصيل.
(**) عين اسعد باشا والي صيدا مجلساً خاصاً برئاسته من كبار معاونيه لدرس التعويضات المذكورة فقرر المجلس ان يتقاضى المسيحيون ستة عشر الف كيس ويتقاضى الدروز الفين وستماية كيس. والكيس خمسماية قرش عثماني ذهباً أي ما يعادل أربعماية وثمانين ليرة لبنانية في عملتنا اليوم. (١٩٧٥).

يضطرهم للزلفى الى السلطان وعماله وحاشيته. ناهيك بأنه حال دون الارث في الولاية. وانه لأمر خطير. وقد ذكرنا أن الامارة اللبنانية كانت عنوان الدولة العربية المستقلة، وعاشت ذات سلطان على القبائل والعشائر المجاورة للبنان، فليس من المصلحة التركية أن يقوم عندنا حكم هذا شأنه، تربطه تقاليده وروحيته ومحالفته بالعشائر العربية المنتشرة من أبواب بيروت الى جبال لبنان. وهذا مما يهدد السلطنة التركية بايقاظ القومية العربية المخدرة بمورفين الدين.

«واكبر عيب يراه الوطنيون في ذلك النظام الموقت أنه كرس الانشقاق المذهبي الذي افتعلته الاقطاعية – على اختلاف ألوانها وحالاتها ومراميها في الدنيا وفي الآخرة – والذي شجعت عليه المطامع الاجنبية، وذلك أنه وضع لانشقاقنا المؤلم قواعد قانونية (دستورية)، ووضع النواة لتوزيع أجهزة الحكم في المستقبل على النسبة الطائفية لا على الكفاءات. غير ناظر الى حقيقة الفتنة المشؤومة على كونها حادثاً طارئا، من شأنه أن يتلاشى مع الاقطاعية التي سببت كثيراً من أحداثه، ويتلاشى مع الحكم الصالح العادل، ومع مكافحة الجهل. ولكن النظام الجديد نظر الى الحادث الطارىء كأنه حالة ثابتة، دائمة مع الشعب، فمن اللازم أن ترافق نظام حكم الشعب ... وكان تكريس التفرقة المذهبية بين اللبنانيين في نظامهم تكريساً قانونياً أول عمل من نوعه في تاريخنا.» راجع كتابنا في «مصادر الثقافة في لبنان»: ص ٢٨ بيروت ١٩٦٩: مؤسسة سلوى نصار للدراسات اللبنانية.

وعلى عيوب ذلك النظام الذي عرف باسم «تعليمات شكيب افندي» واضعه فانه جاءنا ايضاً بنوع جديد من الحكم هو تطوير المجالس المشورة التي انشأها حكم الاحتلال العسكري وكان بشير الحكم الشوري الذي كاد أن يكون بدعة في ذلك الظلام، فجعل لبنان أول مختبر للديموقراطية القانونية في النصف الآخر من العالم.

فالارادة السلطانية السنية التي انشىء بموجبها نظام القائم مقاميتين الجديد قد نصت نصاً صريحا، في بندها الاول، على تأليف مجلس لدى كل حاكم من الحاكمين الاثنين مهمته:

«فصل الدعاوى وفقاً للعادات المحلية القديمة وللأصول المذهبية، وتوزيع مال الويركو* على كمال العدل والحقانية. ثم رؤية الدعاوي على الوجه الحقاني، وتنظيم مضابطها، والحكم بها وفقاً للأصول والعادات المكانية السابقة.»

اما أعضاء المجلسين فيكونون من وجوه الطائفة التي ينتمون اليها، وينتخبون – ونُصّ على الانتخاب نصاً صريحا – بمعرفة المطارنة والشيوخ العقال. ويجب أن يكونوا من الذين هم اكثر جدارة. وان تتحقق فيهم الشروط الرئيسية الآتية:

اولاً: ان لا يكون العضو قد استخدم المعتمدين الاجانب.

ثانياً: ان لا يكون قد تظلّل الحماية الاجنبية**.

ثالثاً: ان لا يكون من سكان القرى الخارجة عن دائرة ادارة الجبل.

صحيح ان نظام القائم مقاميتين ثقب ثغرات منوعة وعميقة في الكيان الوطني الذي رافق الامارة اللبنانية طوال الاحتلال العثماني منذ ١٥١٦ حتى ذلك اليوم، ولكننا نقول إنه جعل، الى حد، طوائف لبنان تشترك في الحكم بموجب فرمان من جلالة السلطان، وخطا بالشعب خطوة تمهيدية الى حياة تمثيلية (نيابية) ستأتي بعد سنين قليلة.

ومن الواجب الإشارة هنا إلى أن هذا التطور، على عيوبه، في الحكم، لم يكن شيء منه في أرض الولاية العثمانية، وبالتخصيص في طرابلس وبيروت وصيدا الخ... التي كان يحكمها المشير التركي حكماً كيفيا...

(*) هي ضريبة تستوفى مباشرة من كل راشد.

(**) شاهدنا في عهد الاستقلال الناجز، التام، نقصانا معيبا في تطبيق هذين البندين.

وكان باستطاعة العقلاء، لو أتيح لهم أن يظهروا، ان يربحوا من ذلك النظام، على عيوبه الكثيرة، مكاسب لخدمة الشعب*. ولكن التحاقد بين الاقطاعيين، بين الدروز وحدهم، وبين الموارنة وحدهم، تطاحنا على النفوذ والسيطرة وكسب المال، ثم الدس الأجنبي من الشرق والغرب، حالا دون تلك المكاسب وقد عاش نظام القائم مقاميتين، وقيل يومها إنه موقت، ست عشرة سنة. وما كان من الحق أن يعيش ذلك الوقت كله. ولكن التضارب الغربي على خيرات السلطنة العثمانية ومواقعها الستراتيجية أبقى اللبنانيين حطب المحرقة في انتظار اليوم المنشود. فهل يكتب لهم أن يصلوا الى هذا اليوم الهانىء؟

لعل بعد الضيق فرجا!

☆ ☆ ☆

في عهد ذلك النظام انتخب المطران بولس مسعد بطريركا على طائفته[٣]. وقد ذكرنا انتخابه لأنه سيكون له موقف مؤثر في تطور الأحداث التي أدت الى ثورة الفلاح الكسرواني على الاقطاعية في منطقته. ثم انقلبت تلك الثورة بعوامل اقطاعية داخلية، وانبريالية فرنسية انكليزية تركية، الى الفتنة المشؤومة المعروفة بحركة السنة الستين.

وفي أيام القائم مقاميتين جرت حوادث عالمية جليلة نذكر واحدة منها لعلاقتنا بها، أو لعلاقتها بنا، علاقة غير مباشرة، ولتأثيرها في سياسة السلطنة العثمانية نحو رعاياها غير المسلمين، وهي «معاهدة باريس» التي عقدت بين الدول بعد حرب القرم[٤].

تلك المعاهدة التاريخية التي خصصناها بتعقيب وايضاح في هوامش هذا الفصل، تحت رقم (٤) قد نصت الدول في بندها التاسع على ما يأتي:

(*) يعرف باسم «الاصلاحات الخيرية». أصدره السلطان عبد المجيد في ١٨ شباط سنة ١٨٥٦.

«ان سلطان الدولة العثمانية قد تفضّل، لعنايته بخير رعاياه جميعا باصدار منشور غايته اصلاح ذات بينهم وتحسين أحوالهم، بقطع النظر عن اختلافهم في الأديان والجنس، وأخذ في ذمته مقصده الخيري نحو النصارى القاطنين في بلاده. ولما كان من رغبته أن يبدي الآن شهادة جديدة على نيته في ذلك، فقد عزم على أن يطالع الدول المتعاهدة بذلك المنشور عن طيب نفس منه، فتتلقى الدول المشار اليها هذه المطالعة بتأكيد ما لها من النفع والفائدة. ولكن المفهوم منها صريحاً: انها لا توجب حقاً لهذه الدول، في أي حال كان، بان تتعرض كلها أو بعضها، لما يتعلق بالسلطان ورعاياه، أو بالتدخل في ادارة سلطنته.»

قلنا: والحقيقة في المنشور السلطاني المذكور في هذا البند من معاهدة باريس، لم يكن المقصود منه اجراء المساواة بين جميع العثمانيين، على اختلاف أجناسهم ومذاهبهم الدينية، بقدر اسكات كبيرات دول أوروبة عن مزاعمها بحماية نصارى الشرق. فروسية القيصرية زعمت أنها تغار على أرثوذوكس السلطنة وتريد حمايتهم من التعصب المحيط بهم ومن استبداد عمال الحكومة العثمانية*. ومثلها زعمت فرنسا والنمسا حمايتها وعطفهما على الكاثوليك لمنع اضطهادهم. ومثلهما زعمت انكلترة حمايتها الفرق البروتسطانية (الانجيلية)، وكانت قد بدأت اصطياد دروز لبنان، مدعية أنها لا تسمح بسوء معاملتهم.

ورأت استنبول في تلك الحمايات تدخلاً في شؤونها سبّب، ويسبب، إضعافها. وهو رأي ظاهره صحيح ولكن الحقيقة لا تؤيد صحته كثيراً: فالتدخل الاوروبي لحماية نصارى الشرق – وهي حماية كاذبة ومضللة – لم يسبّب، والأصح: لم يشترك في أضعاف السلطنة العثمانية لو لم تسء

(*) تراجع وصية بطرس الكبير.

سياسة معظم سلاطينها وأكثر رجالهم وموظفيهم من مدنيين وعسكريين، مما زرع الفوضى والبؤس والاضطراب ونشر المظالم في السلطنة، وهذه الحقيقة هي العامل الرئيسي في إفساح المجال لأوروبة للتدخل في شؤونها. والملمون بتاريخ الامبراطورية العثمانية في مراحل انحطاطها يذكرون أن عهداً من عهوده أسماه المؤرخون بحكم «فاتنات الحريم وخصيان القصور السلطانية»، وقد طال عبثه بشعوب السلطنة، ومقدراتها، قرناً ونصف القرن حتى سبب لها فقر الدم. ومن شأن هذا الفقر الدموي أن يؤدي الى السل والسرطان.

ومن عجيب المشابهات بين القيادات السياسية في البلدان المتخلفة أن الذين وُلّوا، من جميع المذاهب والمناطق، قيادة اللبنانيين بعد الاستقلال تأثروا أحياناً كثيرة بسلوك فاتنات الحريم وخصيان القصور السلطانية، وان هم سكنوا بيروت لا استنبول، وعاشوا بعد دهرين من عهدهم!

وكان لمنشور الاصلاحات الخيرية – وهو الثاني من نوعه للسلطان عبد المجيد°، المجيد في مداورة الدول – وقع شديد متفاوت التأثير: فالقادة المسلمون، من المحافظين المتحجري التفكير، رأوا – خطأ – انه ينقض مبادىء الدين بجعله أهل الذمة (الكفرة!) مواطنين مساوين لأهل الاسلام، فبدأوا يتحركون في اتجاه يعاكس مرماه، وظهر تحركهم على أشده في بلاد بر الشام، مما سيشارك في نشر الفتنة السوداء فيها في السنة الستين الآتية. واما المسيحيون فأسكرتهم الزبيبة السرابية وحركت الزهو في جهّالهم، فعدّه المسلمون تحدياً لدينهم، ولهم، ولسؤددهم.

واحمرت العيون. ولم تلبث الحالة المتأزمة أن ازدادت سوءاً، وقلّ العقلاء، وكثر المصطادون في الماء العكر، والوصوليون، والمتعصبون الحاقدون.

☆ ☆ ☆

من الضروري التذكير أن معظم الذين عملوا في خدمة الأمير بشير الثاني قد انتقلوا الى خدمة نقيضيه القائمقامين، الأرسلاني واللمعي.

اي أنهم لقحوا العهد الجديد بشيء من روح العهد البشيري.

ثورة وفتنة في لبنان

«... اما السياسة التي ينتهجها الأتراك وما حادوا عنها قط، فقائمة على توجيه المساعي في القائم مقامية الدرزية والقائم مقامية المسيحية لابقاء الاضطراب في لبنان، تذرعاً الى الغاء ادارته...»

رسالة من مستر مور قنصل الانكليز في بيروت الى سفيره في استنبول.

—٢—

«اما المقصود من سلوك خورشيد باشا (والي بيروت) في مسألة لبنان، ونياته التي استشففتها، فهي نيات الحكومة التركية بعينها، اي أن يسود الاضطراب لبنان، على أمل أن تستطيع، في وسط القلاقل العامة، الغاء نظامه الذي تنظر اليه دائماً بعين الاستياء...»

من القنصل نفسه الى وزير خارجيته في لندن.

—٣—

«... ان اكتشاف المؤامرة السرية المعقودة بين شيعيي جبل لبنان وفريق من الدروز أشياع (القائم مقام المسيحي) الامير بشير احمد أبي اللمع – ويقال إن المؤامرة تمت بتدبير المشير خورشيد باشا والي بيروت – ولا سيما دسائسهم الموجهة ضد مقاوميه المسيحيين، قد أثبت الاعتقاد الراسخ في العقول بأن الحكومة العثمانية لا تنوي فصل القائم مقام المسيحي الامير بشير احمد ابي اللمع حتى يشتبك اللبنانيون في حرب أهلية. وبهذه الوسيلة تبسط أجنحة حكمها مباشرة على لبنان. وهي غاية جعلتها مرمى أنظارها منذ

منح لبنان نظامه الحالي. ان اكتشاف هذه المؤامرة سيؤول الى احباطها على ما أظن...»

رسالة من القنصل الانكليزي مور في بيروت الى وزير خارجيته الدوق دي ملمسبوري في لندن.

في ذلك الزمان، قبيل الاصلاحات الخيرية، والشفيقة، التي أنعم بها جلالة مولانا السلطان عبد المجيد على رعاياه جميعا، بمختلف أجناسهم وأديانهم – ونحن في لبنان طلائعهم ساعة تشتم رائحة الكسب – في ذلك الزمان كانت يقظة قد بدأت تتململ عندنا في جميع الأوساط الشعبية، في مختلف الانحاء. وكان الفلاح الكسرواني من أوائل الذين حركتهم. ولعله ضروري أن نعرّف بأن الفلاح المذكور ماروني، لان لهذا التحديد صلة بالحوادث والأحداث التي ستطل علينا لتقرر مصائرنا وتبني أسس مجتمعنا الجديد.

واليك أهم عوامل تلك اليقظة الشعبية:

(ا) استمرار سوء التصرف عند كثيرين من أصحاب المقاطعة التي يعيش فيها الفلاح الكسرواني وقد تكاثفت عذاباته، وأحقاده، من تصعّرهم وسوء تصرفهم وسلوكهم، حتى طفحت الصدور وبات أصحابها المقهورون يرقبون فجر الانفجار.

(ب) ان أفراداً من الاكليروس أبناء الشعب بلغوا من الثقافة الغربية العصرية حدّاً عاليا، وعلى الرغم من رقيّهم ظلوا يحسبون فلاحين* باعتبار أن النسب الوجيه وعراقة الأصل والبيت الكبير تتقدم على التقوى والمؤهلات العلمية والتهذيبية في رفع الكهنة الى مراتب الاحبار. وبهذه الذهنية نال بعض المطارنة شرف المطرنة لأنهم أبناء الأسرة الاقطاعية الفلانية، او أبناء الاسرة الوجيهة الفلانية، بدلاً من أصحاب الكفاءات العلمية والروحية ... وعلى الكاهن الفلاح الراقي، او ابن الشعب، ان

(*) الفلاح يومها حرف ساقط، وما يزال يحسب وضيعا في بعض اوساط المدن!

يرتقب نجوم السعد تنير له من قبة الصياد في روما حتى يحسن مصيراً. ولهذا بدأ الكاهن الفلاح يناقش، وينتقد، بان هذا التصرف، غير المسيحي وغير الماروني، انما هو عمل أرضي متأثر بالضعف البشري، وليس لالهام الروح القدس الذي يوحي باختيار الأحبار أية علاقة به ... ولعل أولئك الكهنة المثقفين كانوا في مقدمة الذين رأوا في الاقطاعية نظاماً مستبداً فاسداً يجب تغييره، فساعدوا على تقريب الانفجار.

(ج) مساعي عمال الحكومة التركية الى خلق الاضطرابات والفتن لالغاء امتيازات الجبل. وقد سمعنا قنصل انكلترة ببيروت يقول لرؤسائه أن الحكومة التركية تدسّ الدسائس «حتى يشتبك اللبنانيون في حرب أهلية، وبهذه الوسيلة تبسط أجنحة حكمها مباشرة على لبنان، وهي الغاية التي جعلتها مرمى نظرها منذ منحها لبنان نظامه الحالي» (نظام القائم مقاميتين). لقد ضاقت تركية عيناً، وغصّت بنظام هزيل لأن له مظهر الاستقلال! وقال أيضا القنصل المذكور لسفيره في عاصمة السلطنة:

«... وبعد أن استعملت الحكومة العثمانية كل الوسائل المستطاعة لتكريه الأهالي بطريقة الحكم الحالية، وتنفيرهم منها، باثارة طبقة على أخرى، تحريضاً للشعب على المشايخ طوراً، ومساعدة المشايخ للتغلب على الشعب تارة، واستطاعت حمل الفريقين معاً على طلب والٍ تركي، ظنّا منهم أنه الوسيلة الوحيدة التي تمهّد لهم التمتع بالراحة. وكان أن خدعت مدينة زحلة بمثل هذه الدسائس فطلب الزحليون الالتحاق بولاية سورية، ثم ألحقوا بولاية صيدا. ومثلهم خُدع مسيحيو حاصبيا وطلبوا الحكم التركي المباشر: «ليخلصوا من اعتداء زعماء الدروز» – كذا: خافوا من اعتداء الزعماء لا من الفلاح ... – فاحتل الجند التركي بلدتهم وصارت حاصبيا من الارض التركية. (المحررات السياسية) ج ١، ص ٣٦٧».

(د) دسائس عمال لندن وباريس، من قنصليين وتجار حرير، ومن بلديين مأجورين، وتحريضهم الطوائف اللبنانية بعضها على بعض، ثم تحريضهم المسيحيين على السلطة التركية*، ثم تظهيرهم أسباب الشكوى والتبرم، وبث أخبار السوء، في مختلف الانحاء.

(هـ) طغيان القائم مقام المسيحي الجديد، الامير بشير أحمد أبي اللمع، الذي خلف نسيبه المتوفي الأمير حيدر. والامير بشير وصل الى الحكم بمسعى صديقه المرتشي الاكبر المشير خورشيد باشا والي بيروت، وصار آلة في يده ينفذ أوامره، ويحقق خططه، والوالي يجاريه في رغباته الغريزية لقاء الرُشى التي كان يلقاها منه. وصار القائم مقام المسيحي، الامير الماروني، لا يفرق في الحكم عن أي ضابط تركي أو تركماني، أو كردي أو الباني، الا بكونه سليل بيت لبناني، ويملك عقارات ومباني، ويأمر مجموعة من الفلاحين في المتن من دروز ومسيحيين! وقد سلك سلوكاً شديد القسو على الجميع، كباراً وصغاراً، ومشايخ ووجوهاً وفلاحين، ولا سيما في جباية الضرائب. وخيّل اليه أن باستطاعته القيام بدور سميّه الشهابي في حكم الجبل – او ليس اسمه بشيرا؟ او ليس هو أميراً ابن أمير؟ او ليس هو عبد الوالي التركي – وهكذا أغضب معظم الأسرة الخازنية الحاكمة في كسروان، وقامت تعارضه، فحرّك موظفوه الفلاح ليزداد ثورة على الخازنيين!

(*) من خبثهم في ذلك التحريض انهم كانوا يجوبون القرى المسيحية ويقولون لسكانها: «لماذا لا تشكون الوالي او قائده الذي يسبب لكم هذه المصائب؟ اكتبوا الى الحكومات المسيحية في اوروبة وابسطوا لها تظلمكم بالتفصيل وهي تراجع السلطان فوراً وترغمه على انصافكم...» وكان الاهلون يصدقون المحرضين ويكتبون عرائض الشكوى – او ان المحرضين يكتبونها لهم وهم يوقعون عليها – فيأخذها القناصيل ويتسلحون بها لأجل التدخل في شؤون الحكومة، ويطلعون الموظفين الاتراك عليها، فينتقم هؤلاء من كاتبيها. وتزداد الحالة تأزما.
ومن الحق الاعتراف بذكاء الانكليز في استنباط هذا الأسلوب من الدس.

(و) اعلان القنصلين، الفرنسي والانكليزي، تنافسهما ومشاداتهما في تأييدهما عميليهما النسيبين اللمعيين، المتطاحنين على ولاية القائم مقامية المسيحية، فالفرنسي دعم بشيراً أحمد دعماً مفضوحا، ودعم منافسه القنصل الانكليزي عميله الضعيف بشيراً عساف. وتلك المشادة زادت من عوامل ايقاظ الشعب وشجعته على الخصام. ومن تناقضات السياسة الاقطاعية في كسروان الماروني أن الخوازنة مشوا في ركاب المسعى الانكليزي المحارب مصالح حاميتهم التقليدية، فرنسا، في الشرق!

ولا بد من لفت النظر، في عرض تلك المقدمات والعوامل للثورة الفلاحية، الى أن اثنين أو ثلاثة من المشايخ الخازنيين انشقوا مع فلاحيهم عن رابطة أسرتهم وعملوا في خدمة القائم مقام المستبد، وقالوا أنهم مع الفلاح!

واجتمعت لدى الفلاح أسباب كثيرة تقرّبه من اليوم العصيب، وتشجعه على السير اليه، فراح يعدّ له بتعقل وحذر وذكاء.

وكان ثوريو قرية عجلتون أوائل البادئين بالتنظيم. فأنشأوا جمعية في تلاق سري، واقسموا على القربان بأنهم لا يخون أحدهم مقاصدها، وبأنهم اذا اعتدى شيخ على فرد منهم هب الجميع لنصرته «حتى الدم. واذا أفشى أحدهم هذا السر، او تأخر في الدفاع عن المعتدى عليه، كان الجميع ضده». وكان رئيسهم صالح جرجس صفير.

وبعد قليل عقد ثوريو مزرعة كفردبيان، بدورهم، اجتماعا سرياً انتخبوا فيه رئيساً هابيل الخوري العقيقي. وظل عملهم طي الكتمان، لا يبوحون ببرامجه الا لمن وثقوا باخلاصه لفكرتهم، وذلك لأن الخازنيين وأنصارهم كانوا عديدين في المزرعة، ولهم بساتين وأحراج كثيرة فيها.

وكرت السبحة. وتألفت الجمعيات السرية في معظم القرى.

-١-

«المسألة مسألة مبدأ مش مسألة كره المشايخ. ايش، نحن ما منعرفش انو في بين الاهالي أرذل من المشايخ؟ وبين جماعتنا (عين ... كاف ...» متل ما في عند غيرنا. بس وجود بعض ناس أوادم فيهم وبعض ارديا فينا ما بيبطل الحق أن الحكم يكون للأهالي. مش معقول أبدن، ولا هو انصاف، انو عيلي واحدي تحكم بلاد بكاملها. اذا كان الشيخ آدمي وأساس (اي نظام) الحكم ظالم، كيف ممكن العدل يشمل البشر؟ هيدا مش معقول ولا ممكن. وخلينا نقول. الشيخ آدمي، ايش يدريك كيف بيكونو ولادو؟ شوف المسطره قدامنا...»

طانيوس شاهين

-٢-

«لديّ بيور (بيورلدي – أمر رسمي) من الدول السبع لتحرير المسيحيين. فيجب أن لا يبقوا عبيداً لأحد. فاذا شئتم أن تعتقوا من عبوديتكم فلا يستطيع انسان أن يمنعكم، لا المشير (العثماني) ولا القائم مقام (المسيحي)»

رسالة من طانيوس شاهين

الى اهالي جبيل في ٣ من نيسان ١٨٦٠

ليلة عيد الميلاد سنة ١٨٥٨

بعض الناس في شبه قلق. الحالة النفسية العامة مضطربة في معظم المقاطعة، ولكن ليس من أحد يتوقع أن ينتهي قداس منتصف الليل، في كل قرية، باندلاع نار الثورة فيها فجأة، بدون سبب مباشر فوري، بدون خلاف بين شيخ وفلاح، مثلاً، او بين فلاحين أحدهما يخص المشايخ فيتدخل المحازبون ويكبر الشر.

فجأة ... ما إن قرع الجرس ايذاناً بانتهاء القداس الاحتفالي، وابتهاجاً بالعيد، وما إن بدأ المصلون يخرجون من الكنيسة، حتى اندلعت نار الثورة. هكذا اندلعت في معظم القرى. وهذا ما كان شيوخ الشباب (مجلس قيادة الثورة) قد أقروه سراً[1]. ومشت النار في معظم لهباتها، هنا وهناك، منذرة غير منتقمة: «نريد أن نشترك في الحكم. ونريد ابطال الامتيازات الاقطاعية التي ترهقنا!»

وعلى غياب التعاليم الثورية، وغياب الانضباط الحزبي، وعدم ممارسة القادة تقنية الحركات الثورية، فقد التزم عملهم الخط الخلقي الجبلي: لم يقتل بريء، ولا اعتدي على بريء الا ما ندر. وهل تخلو ثورة من خطأ، والناس بشر، فيهم حاقدون ومنتقمون؟...

هرب أكثر المشايخ الخازنيين من قراهم وتفرقوا الى نواح في خارج كسروان. واستولت قيادة الثورة على أرزاقهم ووزعتها على الأنصار المستحقين وعلى الدائنين الذين لهم حقوق في ذمة الهاربين.

ولمع في تلك الغضبة التاريخية فلاحون كثيرون. واثبتت الحوادث أنهم أذكى، وأنشط، واعقل، مئة مرة، من كثيرين من سادتهم المخلوعين.

وكان أبرز اللامعين، وأجرأهم، وابعدهم نظراً، واشدهم مكراً، بيطار من ريفون اسمه طانيوس شاهين[٢] أظهر من الدبلوماسية في اذاعة أهداف الثورة، وفي المفاوضات لتحقيق مطالبها ما حيّر العقول!

ولما استفحل شأن الغضبة الشعبية وقوي مطلبها، تأججت الثورية في نفوس القادة أجمعين، وانتقلت غاياتهم من اصلاحات معقولة* اقرتها بكركي والبورجوازيون والفلاحون المتردّدون، الى شعار ثوري رئيسي هو الغاء النظام الاقطاعي بكامله الغاء جذريا، واستيلاء الشعب على الحكم كله. (الحكم لجمعيات الشباب!) وصار هذا المطلب ايماناً مقدساً لا رجوع عنه.

في ذلك الزمان، وفي بلد مثل لبنان، لم يكن المفهوم من الثورية أكثر من أنها الحكم الجمهوري، فاعلنه طانيوس شاهين ومارسه في الأرض التي سيطر عليها رجاله. ولولا تديّنه، وتدين جميع رفاقه تديّناً عميقاً سائداً في أرض بنيت على الانغماس بالدين انغماساً شاملاً، لما أحجموا عن سن نظام جديد، غير الجمهوري، حتى لا تبقى لمقاطعتهم أية علاقة، وان دينية، بالاقطاعيين. قال مؤرخ ثورتهم أنطون ضاهر العقيقي:

«وفتح طانيوس شاهين مطعمات شعبية في بيته للشارد والوارد، وعمل مضافات. فرّق اعتدة نارية. وعمل مثلما تعمل الدور الواسعة، حتى شاع اسمه في كل الجهات. وكل قرية لا تسمع لمقاله (لا تطيع أمره) كان يرسل اليها جمهوراً من باقي القرايا لأجل تطييعها. وصار يصدر أوامر بتحصيل الحقوق وقصاص المذنبين كيفما شاء، من دون معارض، وهو يقول: «بقوة الحكومة الجمهورية» (افعل هذا). وابتدأ يتعاظم، وامر نافذ على الجميع...**»

(*) اقرأ مطالبهم الاصلاحية في الهامش (رقم ١).

(**) كتاب «ثورة وفتنة في لبنان»: ص ٨٧.

قلنا: وتعاظم امره فعلا. ولقبه الانصار بلقب «بيك» تحديا للقب شيخ، وصاروا في المساء «يمسكون على الدبكة» وينشدون:

يـا بـيـكـنـا يـا ريـفـونـي — يـا بـو سـيـوف المسـنـونـي
بـبـكـفـيـا مـاتـوا الجوع — والـفـلاح مـكـفـي مـونـي!

وهم يريدون: ان المشايخ الذين فروا الى بكفيا يتضورون جوعاً في حين أن فلاح الثورة شبعان ومؤنته تكفيه.

اما كلام العقيقي فيحتاج الى ايضاح: ان طانيوس شاهين، الراغب بأن يخلف سادته في الحكم – ولم لا، وهي رغبة مشروعة، بل ضرورية لفوز الثورة – لم يعمل ما عمله الا بموافقة اخوانه. لم يوزع العتاد من بيت أبيه بل من مال الثورة ولأجل انتصار الثورة. ولم يطعم الشارد والوارد إلا لأنهما في خدمة الثورة.

ولم يكن مناص له ولإخوانه من إعلان الحكم الجمهوري، لأن صراعهم المميت مع الحكم الاقطاعي بدأ يقرب من فصل الختام. والخازنيون الأغنياء بالمال، والصداقات، والمحالفات، والعلائق الاجتماعية والسياسية والدينية، والعريقون بماض ملتصق بكسروان أرضاً وشعباً، وكانوا قد قرعوا جميع الابواب للتحريض على الفلاحين، ناعتينهم بالرعاع والقتلة واللصوص والمغتصبين.

«ورشوا جميع الموظفين، وفي مقدمتهم المشير خورشيد باشا والي بيروت. وكان ذلك المجرم يقول لهم: «الفلاحون كلابكم، فاسحبوا سيوفكم واقطعوا رقابهم...» ويقول للفلاحين: «كم هو عدد المشايخ؟ اذا بصقتم عليهم اغرقتموهم...»*

(*) نقلها الشيخ كنعان الخازن الى البطرك مسعد، وقال له: «المسألة مش مسألة شيخ وفلاح يا سيدنا. هيدي طبخة الدولي.»

واستصرخوا، وما زالوا، الحكومة الفرنسية التي شملتهم بحمايتها منذ الملك لويس الرابع عشر، وذكّروها بما قاموا به لنشر نفوذها وتوطيده، وبما خدموا به ارسالياتها الدينية.

واستصرخوا، وما زالوا، الحكومة الانكليزية وذكّروها بوعودها لهم، بأنها ستحميهم وتساعدهم وتكافئهم، يوم دعتهم فلباها اكثرهم وانضموا الى مأربها باخراج جيوش ابرهيم باشا من البلاد (كان عملهم يومها عملاً صارخاً ضد فرنسا التي سبق لها أن عينت بعض قناصلها من أسرتهم، ومكّنت لهم في الارض!)

واستصرخوا، وما زالوا يستصرخون، حلفاءهم في الاقطاعية الدرزية، اخوتهم المشايخ الجنبلاطية الذين تربطهم بهم اواصر التآخي الحزبي والطبقي من زمان بعيد.

استصرخ بنو الخازن جميع القناصل دون استثناء.

واستصرخوا جميع المراجع الدينية، كاثوليكية وارثوذوكسية وبروتسطانية واسلامية. ودفعهم اليأس الى رشو آغوات العسكر العثماني المكلف بضبط الأمن في القرى الثائرة، رشوهم كي ينتقموا لهم من «المتمردين»، الذين يأتمرون بأوامر قنصل فرنسا الكافرة.»

ان ذلك التصرف الثأري، وليد اليأس والقنوط والاستماتة، كشف عن حقيقة قيمة التدين اللساني في الانسان: فالعسكر العثماني مسلم، وشعار الاقطاعية المارونية أنها قائمة لتحمي فلاحها من الحكم المسلم «الظالم والمتعصب...» الى آخر المعزوفة. وقد صدق الفلاح ذلك الشعار زماناً طويلاً، وآمن ايماناً رسخ في أعماقه بأن شيخه منارة المسيحية، وحاميها، وملاذها، في الشرق المسلم. فتلك الرشوة للعسكر المسلم ليقتص من الفلاح المسيحي ويخرب بيته فتحت العين على قيمة التدين عند الحكام.

ولم يكن في عمل الاقطاعيين، ذلك، أي جديد. انهم اتبعوا سيدهم الجبار الأمير بشيرا الشهابي الثاني وحلفاءه من الاقطاعيين الدروز الذين كانوا يستنجدون عسكر احمد باشا الجزار على قتل الثائرين عليه من الدروز والمسيحيين، وعلى حرق بيوتهم وقطع أشجارهم.

وادرك قادة الثورة أن المشايخ جادون في استصراخهم جميع الأقوياء على اختلاف ألوانهم حتى يعيدوهم الى الحكم، وادركوا أن الحكم الجمهوري يربط جميع المتبرمين والمترددين ربطاً نهائياً بمطالب الثورة، ويقطع الأمل على طالبي الأمل اللا مستحق، فاعلنه طانيوس شاهين.

واثبتت رسائل كثيرة أن سعيد بك جنبلاط، احد أبناء عمود السماء ورئيس الغرضية الجنبلاطية، كان قبل الثورة قد بدأ يسمع بما ينبت في كسروان. سمعه من صديقه الحميم القنصل الانكليزي مور الدائم الاتصال به، فكتب الى حلفائه الخوازنة لافتاً منذراً، ثم اوفد اليهم الرسل سرا، فعلنا، يحذرهم من استفحال الخلافات الفرعية في أسرتهم، ويحذرهم من اصرارهم على معاداة قائم مقامهم، ويحذرهم من أمرهم فلاحيهم بالشكوى منه فهو الحاكم الأعلى، ويحذرهم من جرّهم الى المحازبة، «لئلا يصير ابن قرياقوس فلاح الشيخ صخر يرفع رأسه بوجه الشيخ فضل، ويمشي الفلاح شليطا في ركاب سيده الشيخ قانصوه ضد الشيخ دهمان».

وعمل سعيد جنبلاط لاطفاء النار قبل اندلاعها وانتشارها، ووصولها الى الشوف، ونصح بعلاجات مسكّنة: فراجع البطريرك مسعد، وراجع القائم مقام الأمير بشير أحمد أبي اللمع، وجارى صديقه الحميم القنصل مور، ظنا منه أن تصافي الكبار يهدىء الصغار. ولكنه لم يمدّ بأصبعه الى مكمن الداء: الى الأسباب الحقيقية في شكوى الفلاح وتذمره، الى قساوة الطغيان الاقطاعي في اعتدائه على أعراض الضعاف، وفي تبليصه

الكادحين واذلالهم وتحقيرهم واستثمارهم. ولم يشر الشيخ سعيد بك جنبلاط الى سبب من تلك الأسباب الرئيسية لأنه هو أيضاً لم يكن يخطر بباله أن فلاحاً يجرؤ على فتح فمه أمام العرش المفدى.

فكان أن تحرك الصعلوك، وفتح فاه، وفتح قبر الاقطاعية في لبنان كله!

☆ ☆ ☆

-١-

«في سورية آفتان هما المسيحيون والدروز، فكلما ذبح بعضهم بعضا استفاد الباب العالي.»

احمد نظيف باشا والي الشام ومشير فيلق بلاد العرب [٣].

-٢-

«... والعداوة بين الدروز والمسيحيين ليست دينية، بل هي حزبية. ومصالحهم الاجتماعية متماثلة. وجميع الذين خبروا هذه البلاد يرون أنه اذا وجدت حكومة صالحة، وحيل دون أية دسيسة تولّد الخلاف بين الدروز والمسيحيين فالطائفتان تميلان فطرياً الى التعايش في ما بينهما على أتم وفاق.»

لورد دوفرين [٤]

-٣-

«... ولم يبق أقل ريب يحول دون نسبة المذابح الأخيرة، وجميع الحروب والمنازعات والاضطرابات التي انتابت لبنان في مدى الخمس عشرة سنة الأخيرة - من ١٨٤٥ حتى ١٨٦٠ -، الى استياء الحكومة التركية من الاستقلال النوعي الممنوح للجبل، فجعلت مرمى سياستها أن تثبت تعذّر العمل بأسلوب الحكم الذي

منحته الدول (الاوروبية) لبنان في سنة ١٨٤٥، ولهذا أخذ الأتراك يغتنمون الفرص لاثارة دفائن الأحقاد القديمة بين الدروز والموارنة* ولما ازداد تعجرف المسيحيين وتعصبهم بقوة المساعدات الأجنبية التي فازوا بها، ثقل على الأتراك احتمال وطأة استقلالهم فعقدوا العزيمة على اتخاذ الدروز آلة ليوقعوا بهم، ويضربوهم ضربة أشدّ ايلاماً مما تقدّمها. الاّ أن ما حدث في حاصبيا وراشيا ودير القمر قد جاوز الحد. وذلك لأن خورشيد باشا والي بيروت وأعوانه لم يكن عندهم المكر الكافي في تنفيذ مثل هذه السياسة الداهية، فافرطوا حتى افتضح سر سياستهم وكان له دوي هائل في الأندية الاوروبية (...)

ومن الضروري أن يكون للحكومة العثمانية مصلحة بتوطيد دعائم الأمن في هذا الجبل بدلاً من أن تضرم نار الحرب فيه. وهذه هي الذريعة الوحيدة التي تضمن الاتفاق بعين عناصره المتعادية.»

فقرات من تقرير سري كتبه لورد دوفرين الى سفير الحكومة البريطانية في استنبول

-٤-

«... ان اللجنة الدولية قد أرسلت الى لبنان لايجاد أفضل الوسائل لوضع حدّ للاقتتالات بين قبيلتين همجيتين (يريد الموارنة والدروز) وذلك بوضع نظام يضمن رفاهية الأهلين على السواء. ومحاولة إعادة نظام حكم يشبه حكم الأمير بشير (الثاني) لهي من الأغلاط التاريخية التي تجلب الخراب. فان الأمير المذكور كان حاكماً جائرا، همجيا، قاسيا، ذا حزم. نصفه مسلم، وربعه مسيحي،

(*) هذا كلام طائش يجب تصويبه: فالأحقاد التي أشار اليها اللورد الانكليزي لم تعرف في الجبل الا بعد أن درّ قرن التناطح بين الجنبلاطيين والشهابيين قبيل تولي الأمير بشير. وهو الذي اوصل بشيراً الى الحكم، ولم يكن للموارنة أية علاقة به. وفي الصفحات الآتية بيان.

والرابع الآخر درزي. واني اعترف بأنه تمكن من إخضاع الجبل بقتله أعداءه، وسمله عيون مقاوميه، ونشره الارهاب بين رعاياه (...) واني لا استطيع الرضى باستمرار جور طائفة همجية على أخرى في النواحي المختلطة (بالموارنة والدروز)، ولا بانتقال سلطة من يد وثنيين الى يد من يدعون أنهم مسيحيون.»

فقرات من رسالة بعث بها لورد دوفرين في بيروت الى سفير حكومته الانكليزية في استنبول.

«... من العبث وصف المسيحيين بأنهم شهداء قديسون، فهم يضاهون جيرانهم الوثنيين (كذا ... ويريد الدروز) في حروبهم همجية وظمأ للدماء، وكثيراً ما يقتتلون بعضهم مع بعض ولا يعفون عن النساء. يؤيد ذلك ارتكابهم الفظائع (؟) بحق المشايخ الخازنيين منذ سنتين (...) بيد أن الدروز هم، في هذا القبيل، اكثر شفقة منهم، ولا يقتتلون بعضهم مع بعض، ويحترمون النساء. وعليه، فمن الضلال وصف القتال الذي جرى بين الدروز والموارنة بأنه اعتداء من وثنيين برابرة على اتباع دين المسيح الودعاء، وانما هو نتيجة تباغض طائفتين متساويتين في الهمجية، انزل الفائزون باعدائهم البلية عينها التي كانوا مهددين بها فيما لو تغلب هؤلاء. واذا كان الدروز قد ارتكبوا في هذه الحرب فظائع اكثر بربرية من المعتاد، فالسبب فيه تدخل الأتراك وشدة حنقهم على المسيحيين الذين اثاروا الحكومة بتهديداتهم وعجرفتهم (...)

فقرات من رسالة كتبها اللورد دوفرين في ١٩ كانون الثاني ١٨٦١ الى وزير خارجية انكلترة.

«... (ورأيت) ان الأتراك قد اساؤوا الحكم في هذه البلاد حتى اليوم، فحرّضوا بدون انقطاع المسيحيين على الدروز، والدروز على المسيحيين، واثاروا جمرة أحقادهم وتحاسدهم ولما كانوا عاجزين

عن بسط سيطرتهم عليهم مباشرة، واخضاعهم لنيرهم، شجعوا (أي الأتراك) على انتشار الفوضى، وزرعوا بذور الشقاق، املا منهم بأنهم يمدون يدهم الى البلاد ويبسطون سيطرتهم عليها. وبهذه السياسة جلبوا الكوائن المحزنة التي حدثت في السنة الماضية (...)»

ان حق الطائفة الدرزية في حفظ كيانها وموقفها في لبنان، وفي منحدرات جبل حرمون ووادي التيم، وسائر محلات اقامة أبنائها، هو حق لا يمكن انكاره، هو كحق المسيحيين في كسروان. فامتيازاتهم هي من عهد عهيد. كما أن حكومة جلالة ملكة انكلترة لن تشارك في التوقيع على اتفاق يعرضهم لخطر فقدان تلك الامتيازات (...)»

واراني مضطراً لأن أناجي نفسي، مرددا دائماً في ضميري هذا السؤال: هل يجب أن أرضى بالغاء امتيازات صار بقاؤها لا مندوحة عنه، بعد جور جميع أرباب السلطة، الاتراك، وهو جور مستمر؟ او ليس من الأفضل أن أقبل مشروع فرنسا الرامي الى ضم الدروز والمسيحيين برعاية استقلال مشترك، ضد خبث نيات اولئك الأتراك الذين يعدّونهم بحق أنهم أعداؤهم، في حين كان يجب عليهم أن يكونوا حماتهم الطبيعيين (...)»

لورد دوفرين

«... ومما يدل على أن الدروز اغتروا بوعود بعض رجال الدولة التركية، هو ما رواه لنا الكونت غندور بك السعد، عن أنه ذهب لعيادة سعيد بك جنبلاط اذ كان مسجوناً في ثكنة الجنود ببيروت، وفي خلال الحديث بينهما قال سعيد بك لزائره: «أنتم (النصارى) حاسبينها (توقعتموها) ونحن حاسبينها. وكلانا وقعنا فيها.»

وروى المرحوم الشيخ دبلين الخازن، نقلاً عن الشيخ حسين تلحوق، في حديث دار بينهما عن الكوائن الأخيرة، قال: ان الشيخ حسين قال لي: «اخاف أن تكون الدولة العثمانية تستخدمنا لضرب غيرنا ولا تلبث أن تعود فتفتك بنا.»

فيليب قعدان الخازن: «مجموعة المحررات السياسية» ج ١، ص ١٨٢.

مُواطِنون يَتذابحُون

نشرنا آنفاً نقلاً عن «مجموعة المحررات السياسية والمفاوضات الدولية» فقرات من تقارير سرية ورسائل كتبها لورد دوفرين ممثل الحكومة الانكليزية في اللجنة الدولية الأوروبية، وفيها عبارات تنعت المسيحيين والدروز بالهمجية، وفي تقارير أخرى نعت الكاتب نفسه الدمشقيين بهذا النعت. وقد زعم وهو يلفّنا بهذا اللطف أن التحاقد بيننا أصيل وقديم، فسجّله علينا هكذا وهو أمر غير صحيح.

نعم: ان الأحقاد التي خبرها كاتب التقارير السرية قد ظهرت فينا ويا للأسف، ولا سبيل الى نكرانها. غير أن تحليل نشأتها يخفف وزرنا فيها ويرجعها الى وزنها الصحيح.

ان الجبليين المتآخين لم يعرفوا التعصب الحاقد، المتقاتل، في ماضيهم القديم - مع أن كل فئة منهم تمسكت بدينها وحرصت على ممارسة فروضه - وذلك لأن محازبتهم كانت كما بسطناها قبلية لا دينية. وقد زاد في تقاربهم وتآخيهم مئة غزو ونكبة من الخارج حلّت بهم على السواء فشدّت بعضهم الى بعض حتى جعلتهم أمة واحدة. وفي ذلك قيل:

الظلم وحّد بينهم   والظلم مهماز الأمم

وما اختلفوا مرة بسبب كونهم مسيحيين ودروزا.

ولم يعرف الجبل الأحقاد التي زعم الدبلوماسي الانكليزي خطأ انها قديمة فيه، إلا بعد سببين غير قديمين بالنسبة الى قديم لورد دوفرين، اولهما الخلاف الشهابي الجنبلاطي على الحكم، والآخر التنافس الفرنسي

الانكليزي للسيطرة على هذه الأرض. وفي السببين كانت استنبول النافخة الاولى في النار.

ان الخلاف بين الشهابيين والجنبلاطيين بدأ يظهر واضحاً في عهد الأمير يوسف، اليزبكي الهوى والغرض. ثم تفجر في النصف الثاني من عهد الأمير بشير الثاني الذي بدأ حكمه جنبلاطي الوجه واليد واللسان وانتهى بصيرورته بشيرياً فقط، مستأثراً بالحكم كله. ولم يكن للمسيحيين ولا للموارنة أية يد فيه. وانما سببه السيطرة، والسيطرة وحدها. ومع الأيام جرّ الاقطاعيون محازبيهم وفلاحيهم الى النار يتقاتلون ويتذابحون لأجل أعلاء سؤدد سادتهم. ثم استغل ابرهيم بن محمد علي باشا ذلك الخلاف وزاد بالنفخ فيه. ثم خلفه الصديقان الشهمان، الانكليزي والفرنسي، اللذان ما همهما من أمرنا سوى تحقيق مطامع ورعاية مصالح لأمتيهما. وقد ساعدهما على تحقيقها طيش الجاهل بشير الثالث، فانقلب الخلاف المحازب الى تعصب فتحاقد فتقاتل.

الا أن ذلك كله بقي محصوراً يومها بفئة قليلة، تناقرها فئة أخرى أقل منها. اي أن التحاقد لم يشمل الموارنة جميعاً كطائفة واحدة، ولا شمل جميع الدروز كطائفة واحدة أخرى، وانما عمل في أماكن معينة تخص الاقطاعيين الدروز والشهابيين واللمعيين، وهي بالتحديد والحصر: زحلة والمتن والشوف ومنطقة جزين التي كان الجنبلاطيون ما يزالون يملكون الكثير من أرضها. اما بلاد كسروان وجبيل والبترون والجبة، حصن الموارنة، فلم تحرك ساكناً. وهذا وحده يؤكد خطأ ما زعمه لورد دوفرين. ويقوّي رأينا في أن المنطلق الرئيسي للفتنة انما هو نضال طبقي أكثر من كونه دينيا. ولم يتدخل التحسس الديني - العجيب التأثير في المختلفين - إلا بعد أن حكّوه ودعوه وطلبوه فلبى المحركين. وكان هؤلاء المفتنون من طبقة القيادات لا من طبقة الشعب، ولم تكن الجماهير سوى آلة عمياء جاهلة لعبوا بها.

نقول ما قلناه ولا ننسى «فضل» القنصل الفرنسي ببيروت، الذي بذل ما لا يبذل حتى استطاع تحريك بضعة متزعمين مارونيين وثلاثة مطارنة فقط، فنفذوا سياسته الخفية وصبغوا الخلاف السياسي الطبقي بالتعصب القاتل الذي نعته لورد دوفرين بالهمجية وكان في هذه المرة صادقاً.

ولا بد من الإشارة الى أن أحد المطارنة الثلاثة (السيد نقولا مراد) لم يكن مهتماً ببؤس الموارنة بقدر اهتمامه وسعيه النشيطين لأجل إرجاع الأمير بشير الثاني الى الحكم. كما لا بد من الإشارة أيضاً الى أن ثاني الأحبار الثلاثة، السيد طوبيا عون، غطس في بحر الفتنة لان كهنوته لم يستطع أن يمحو ما في صدره من ذكريات استبداد الاقطاعية النكدية بقومه، وهم من سميتها[1] في بلدة الدامور... ولأن المطران شبَّ ذا نزعة شعبية أوقعته في الخطيئة المميتة وهو يظنها نعمة التحرر. ومثله نظر أهل زحلة الى أن الاقطاعية الدرزية - وليس الدروز - هي التي توقظ الفتنة، فكتبوا الى مسيو بوجاد، قنصل فرنسا ببيروت، يشكون اليه مما أصاب بلدتهم، وقالوا له:

«... ويؤخذ من الافادات التي تلقيناها ما يثبت ان الدروز لم يأتوا لمحاربتنا إلا مكرهين من أصحاب الاقطاع. فهؤلاء يجبرونهم على ذلك بضرب العصي. ولامراء في أن لبنان لا يتمتع بالراحة ما دام لزعمائه امتيازات ومعافيات كان يمنحهم إياها أمير الجبل لقاء خدماتهم، وينزعها منهم متى شاء (...)
من الممكن عقد الصلح بين الفلاحين الدروز والمسيحيين إنما يتعذر ذلك مع زعمائهم الذين يريدون حفظ امتيازاتهم وسلطتهم على أخواننا (كذا) مما لا نرضاه.»*

☆ ☆ ☆

(*) «المحررات السياسية»: ج ١، ص ١٨٣.

تلك المقدمات السود التي أدت الى نظام القائم مقاميتين المشؤوم هي، التي جعلت هذا النظام يكرس الانشقاق المذهبي في الجبل تكريساً قانونيا، دستوريا، رسميا. ولم تكن قبله كلمة واحدة تشير الى الطائفية في حكم لبنان مع كونه مجموعة طوائف. والاقطاعيون الدروز لم يكونوا سوى اقطاعيين وكفى. واما درزيتهم فمعتقد ديني لا علاقة له بالحكم*.

وتوطد حكم القائم مقاميتين. وكان البيت الجنبلاطي الخاسر الأكبر، مع أنه الأقوى والأغنى، والأشمل علائق اجتماعية وسياسية، ومع بقاء معظم وكلائه ومحازبيه المسيحيين على اخلاصهم له، وبقاء حلفائه الاقطاعيين الخوازنة على عهدهم له.

وكان من حتمية الأحداث التي طرأت على المجتمع الجديد أن تنزعج المشيخة الجنبلاطية انزعاجاً زعزع جبروتها، وعجل في غضبها وتفجرها. من ذلك:

(أ) ان جميع البيوت الاقطاعية الدرزية عادت تشمخ برأسها بعد أن تهدمت الاوتوقراطية الشهابية، فاستعادت البيوتات المذكورة مجدها. ونالت ايضاً، لمشاركتها القائم مقام الأرسلاني الحكم، اكثر ما كان لها في الماضي.

(ب) نشوء طبقة مسيحية جديدة غير فلاحة في أرض الاقطاعيين الدروز، وقد صار عندها المال والعقار، وبعض الوجاهة والرأي، فصار المسيحيون يتباهون متغطرسين، ويقولون: «كنا قلال وكترنا، كنا ضعاف وقوينا، كنا فقرا وغنينا.» وهذا الزهو غير المسيحي في المسيحيين كان دائماً سبب شرٍّ لهم، وسبب اضطهاد هنا، وفي سورية ومصر والعراق، منذ الفاطميين.»

(*) ان الدين الدرزي لا يطبق في التعامل بين الناس، على عكس الدين الاسلامي. والدروز في أزمات ضيق الصدر بهم كانوا شديدي التكتم بدينهم لأن حرية المعتقد لم يكن لها حرمتها التي نعرفها اليوم.

(ج) استقلال الطبقة المسيحية الجديدة ببيعها شرانقها مباشرة من السماسرة الشراة، دون الرجوع الى رأي الشيخ الاقطاعي، ودون أن يكون لهذا الشيخ تدخل، أو سمسرة.

(د) يقظة طبقية عند الفئة المسيحية الجديدة جعلتها تتباطأ، او تتلكأ، او تتأفف من تأدية الموجبات التبليصية للشيخ في الأفراح والأعياد والمناسبات الاجتماعية المنوعة. وقد امتدت هذه المعارضة المبدئية الى العوام، وفي الأرجح أنها هزّت الفلاح الدرزي أيضا.

(هـ) وعي طبقي جديد بدت طلائعه الرائعة في الكتاب الذي بعث به أهل زحلة الى مسيو بو جاد قنصل فرنسا ببيروت.

(و) سوء الذكريات المؤلمة التي تركتها سياسة المعلم بطرس كرامة الغريب عن لبنان[٢] والجاهل تقاليده وعاداته جهلاً مطبقا. ومن ذلك الجهل الاجرامي أنه كان يرسل «الحوالية»[٣] من ابناء طائفة مسيحية، وهم في الأكثر موارنة، الى قرية درزية، أو هم من أبناء الطائفة الدرزية الى قرية مسيحية، لتنفيذ الأوامر الجائرة التي كانت ترهق الأهلين وتولد في نفوسهم الضغائن والكراهية. ولو عقل المعلم بطرس، ولم يسكره أنه عائش في حمى الأمير وضارب بسيف بطشه وجبروته، لأرسل الى كل قرية «حوالية» من مذهبها منعاً لتوليد الحساسيات.

وزاد في الطين بلة «عطف» اوروبة على «اخوتها» المسيحيين. وقد استشهدنا غير مرة بما كان من القناصل في تحريض بعضنا على بعض. ولعل من الضروري جداً أن نستشهد هنا بمناقشات مجلس العموم البريطاني في فتنتنا المشؤومة لنعتبر بعطف المسيحية الاوروبية على اختها العربية.

كانت أخبار «وحشيتنا» قد وصلت الى اوروبة، والى فرنسا وانكلترة بالتخصيص، وناقش النواب الفرنسيون والانكليز حكومتيهما في

سياستيهما المشرقية. واثير النقاش مرة ثانية في مجلس العموم الانكليزي*، فاتهم نائبان حكومتهما اتهاماً علنياً وصريحاً بأنها هي التي كانت السبب في الاضطرابات والاثارة والتحريض. وقال احدهما مستر مونسل نائب مقاطعة ليمريك:

«... وُزّع مؤخراً على أعضاء هذا المجلس المعتبرين كتاب حريّ بالاعتبار، كتبه مستر سيريل كراهام عن مذابح لبنان، وهو الذي كلفه ممثلو الحكومات الاوروبية، في اللجنة الدولية، أن يجوب أنحاء لبنان للتثبت من صحة ما جرى فيه من المذابح (...)

«وضح لي من تحقيق تاريخ العشرين السنة الأخيرة أن انكلترة هي سبب ما جرى هنالك (...)
ولقد عملنا ما عملناه نكاية بفرنسا، ومعارضة لبعض دول أوروبة.
وعملنا على التفريق بين الدروز والموارنة. وجعلنا على كل فريق زعيماً، وسلّطنا عليهما باشا تركيّا. وكانت فرنسا قد نبّهتنا الى ما ينجم من ضرر الابدال بسيادة السلطان الاسمية على هذه البلاد سيادة مطلقة. واذكر هنا ما قاله الباسل أمير البحر نابيير، الذي اشترك في حوادث سنة ١٨٤٠، في اجتماع عقد في مدينة ادنبره سنة ١٨٤٥، انه يخجل باعترافه بأن كانت له يد في عقد الاتفاقة التي نشأت عنها هذه البلايا (...) الخ...»

وعقب سير تشارلز نابيير**، وكان قد صار عضواً في مجلس العموم، على ما قاله رصيفه مستر مونسل، فقال:

(*) يوم الجمعة في ١٧ من آب سنة ١٨٦٠.
(**) كان تشارلز نابيير سنة ١٨٤٠ قائد الاسطول البريطاني الذي ضرب الموانىء اللبنانية وحرض ثوارها على اجلاء جيوش ابرهيم باشا عن أرضهم. وهو، ايضا، الذي رفض استسلام الامير بشير الثاني في صيدا لخليل باشا مندوب الحكومة العثمانية، وطلب نقله الى بيروت وفيها تقرر أبعاده الى مالطه فأبحر اليها في أول نوفمبر وسمح له باستصحاب عائلته وحاشيته، ونقل تسعين ألف ليرة عثمانية ذهباً (في ذلك الزمان!!) - «ثورة وفتنة في لبنان»، ص ٤٣.

«نعم ان ما قاله حضرة العضو المعتبر لهو صحيح. فقد أعلنت في الاجتماع الذي عقد في ادنبره، وكررته هنا فيما بعد، على مسمع مجلس العموم: اني خجل بالدور المعيب الذي قمت به في سورية. ان الحكومة (الانكليزية) اوفدتني الى تلك البلاد بمهمة، فقمت بها. وعلي أن أعترف بأن سورية كانت في عهد محمد علي هادئة مطمئنة، وطرقاتها آمنة، وشعبها ناعماً ببعض السعادة.

ولم يبق أقل ريب بأن الأتراك بذلوا جهدهم لحمل اللبنانيين على شق عصا الطاعة على الحكومة المصرية ولم ينجحوا. فكلفتُ انا اذ ذاك بوعد اللبنانيين بأن الأتراك سيحسنون معاملتهم أكثر من المصريين وفعلت. وكان أن قام جمهورهم على الاحتلال المصري. ولولا مساعدتهم لتعذّر على الحكومة العثمانية، بسبب قلة جنودها، ان تصيب النجاح الذي أدركته (...) الخ.»

ورأى لورد بالمرستون[٤] رئيس الوزارة الانكليزية أن تبعة الانكليز قد فضحت رسمياً، وعلناً، في مجلس العموم، على مسمع من الدنيا، فوقف يحاول توجيه الحملة الى فرنسا، فقال:

«ان صديقي الفاضل نائب إقطاعة ليمريك قد وهم أن الكوائن الحديثة التي وقعت في سورية هي نتيجة استبداد الأتراك، في حين أن الأمر بالعكس. فالفظائع التي ارتكبت نشأت عن عدم وجود سلطة للحكومة التركية مباشرة. وقد قال حضرته أن تبعة تلك الكوائن واقعة على عاتق الحكومة الانكليزية. فانا أنكر أن يكون لي أقل حصة في هذه المسؤولية. وعلى كل حال فهي لا تقع على حكومة جلالتها. فقد أذيع في أوروبة افادات غريبة عن الذين كانوا البادئين بالشر. فمن هم المذنبون وما هي درجة ذنبهم؟ ولكنها شائعات لا تثبت على الشك (؟ - كذا. وقد تكون الشك)، ولا يليق بي أن أحدثكم بها عن ثقة.

«ان حضرة العضو الفاضل يود أن يعرف سبب قولي أن لديّ ما يدعوني الى الاعتقاد بأن الموارنة كانوا البادئين بالشر. ويغمني أن أبحث في هذا الصدد. وعندي أن لا فائدة من السعي وراء معرفة مَن من الفريقين ضرب الضربة الاولى. وآسف على أن يكون قد اكرهني حضرته في الجلسة السابقة على ابداء رأيي في هذا الشأن، واليكم بالأمر:

انه أذيع بين المسيحيين منذ بضعة أشهر إشاعات تنذر بحدوث كوائن كهذه في سورية في فصل الربيع، ووُزعت كمية من الأسلحة الأوروبية على الموارنة. فأنا لا اسأل: من اين اتتهم؟ ومن أعطاهم إياها؟ انما أنا واثق بأنهم أعطوا أسلحة غير التي بيعت منهم جهاراً في بيروت.

ان قنصل انكلترة ببيروت أفادنا أن القتال بين الموارنة والدروز نشأ عن هجوم الاولين على بعض قرى مأهولة بكلتا الطائفتين لطرد الدروز منها، وان في بيروت لجنة مارونية برئاسة أسقفها سعت الى إثارة الموارنة، وحملهم على اغتنام الفرصة لاقصاء الدروز عن البلاد. وقد قال حضرة صديقي الفاضل (مستر مونسل) أنه متفش على الألسنة الآن أن الحكومة الانكليزية تحمي الدروز مهما اقترفوا من الفظائع. فلا استطيع أن أشير الى المنبع الذي استقى منه حضرته هذا الخبر، ولم يبق لي أن سمعت به من قبل. بل أقول بجرأة: انها تهمة سافلة، لا نصيب لها من الصحة، معلناً أن الحكومة الانكليزية لم يبق لها أقل علاقة بالدروز، في حين أنه من الثابت أن لحكومة غيرها ارتباطاً بالموارنة...»

نقلها فيليب وفريد الخازن في «المحررات السياسية» ج ٢، ص ٢٨٨ – عن كتاب «فرنسا في لبنان» لمؤلفه لوي دي بوديكور: ص ١٧٤.

إشْمُلْ... طَوْرِقْ!

في بيروت وطرابلس وصيدا معمّرون غير مسلمين قصَّ عليهم اباؤهم وأنسباؤهم وجيرانهم – والمؤلف واحد من الجبليين الذين سمعوا من أقاربهم البيروتيين – ان زعراناً كانوا يزعمون أنهم مسلمون (حاشا المسلم الحقيقي فهو إنسان صالح وكريم)، ويهينون مواطنيهم المسيحيين والموسويين، ويروح الازعر يسبّ دين هؤلاء، ويبصق في وجوههم، ويضرب عمامتهم ويرميها أرضا، ويعتدي على عفاف أبنائهم ونسائهم، ويرغمهم على دفع مبلغ من المال يسمّى «خوّة». والموسويون والمسيحيون الذين لا يعرفون نصيراً مسلماً شريفاً يحميهم كانوا يمتثلون لأوامر الأزعر، والويل لهم ان هم فتحوا فمهم!

وقد سادت تلك الزعرنة في أسواق المدن حتى اضطر كثيرون لأن يقبعوا في بيوتهم المقفلة لئلا ينالهم الأذى. وكرام المسلمين يشغلون بعض وقتهم بالدفاع عن هذا الجار الموسوي أو الصديق المسيحي، او ذلك الفلاح الدرزي النازل الى المدينة ليبيع زيته وصابونه وزبيبه ودبسه، ويردعون الاوباش عن سوء الفعلة. وهيهات![*]

وكثيراً ما كان الموظف العثماني، وهو في معظم الحالات كردي أو تركماني أو أفريقي، يغضي على الزعرنة، او يتظاهر باعتقال الأزعر ليقاصصه، وما أن يبتعد الشاكي حتى يطلق الموظف سراح المعتدي. لماذا؟

(*) اخبرني صديقي المغفور له احمد مختار القباني ان عمه سعد الدين باشا القباني كان يغادر بيته في أحيان كثيرة الى السوق، وهو لا شغل له إلاّ كي يراقب ما اذا كان أحد الرعاع يعتدي على أحد المسيحيين أو اليهود، فيصدّه عن قباحته.

– لأنه شريكه في الخوّة المفروضة على الذمّيين. وصار الذميون يمالئون الضابط والجندي والموظف العثماني بالهدايا والخوّة، وفي انتهاء الشهر ينسى الموظف الهدية الاولى ويطلب سواها. فذاعت فيه، وعنه، عبارة: «متل عسكر الدولة، مِلحةُ على ذيله»، اي أنه عاق لا يذكر الجميل!

ذلك السلوك المؤسف المؤلم حمل الأجانب العائشين في بيروت وطرابلس وصيدا على الظن أن الدين الاسلامي لا ينهي أتباعه عن المنكرات! وفي إِخبارات وزارات الخارجية الاوروبية تقارير مخجلة، يندى منها الجبين، عن تلك الحوادث المخزية نسبها رواتها القناصل في تقاريرهم الى المسلمين! – كذا: بالجمع والتعميم! – دون التنبيه والإِشارة الى أن مرتكبي الموبقات هم زعران، وهم حثالة المجتمع وإن طفوا عليه، وفي كل بلد في العالم أشباه لهم.

ومن تلك الاهانات التي لا يزال كثيرون من المسيحيين يرددونها حتى يومنا هذا عبارة: «اشمل يا كافر!... طورِق يا خنزير!». وقصتها أن المسلم ما كان يسمح للمسيحي أو اليهودي بأن يمر عن يمينه، فان حاول هذا أن يمر دون انتباه زجره المسلم صائحاً: «اشمل يا كافر!» وحجة الزاجر في زجره أن صاحب المقام الأرفع يمشي الى اليمين، واما من هو دونه فالى اليسار! قال صاحب «حسر اللثام عن نكبات الشام»: «... واذا كثر المارة ما بين ذاهب وآيب كثر شقاء المسيحي، وجهل كيف يسير، فيدعى حينئذٍ الى الطورقة فيطورق، اي يسير في الطاروق. والطاروق منخفض في وسط السكة يبلغ أقل من شبر انخفاضاً، وعرضه من ذراع ونصف الى ذراعين، وعلى جانبيه رصيفان للمارة. وفي الطاروق تسير البهائم، محملة وغير محملة، وفي الشتاء تجتمع فيه مياه الأمطار. وفي الصيف الأقذار. وهناك يصادف العناء الأكبر من البهائم وأصحابها: فهذا الحيوان يدفعه، وذاك يزحمه، والسائق يوكزه والآخر يلكمه، فلا يجد له مخرجاً من هذا الشقاء إلا بوصوله الى محله، أو بخلو الرصيف من المارة فيصعد اليه. الخ...» (ص ٣٧).

وعنعنوا في سبب تلك الطورقة أن قائداً (؟) من قواد الفتح وضع عهداً لأهل الذمة جاء في أحد قيوده: «وعليكم ألاّ تأخذوا على المسلمين سروات الطريق، ولا المجالس في الأسواق.» والسروات هنا أعلى الطريق ومتنه.

في تلك الحالة الاجتماعية المغمة، وليدة مئات السنين المظلمة، اصدر جلالة السلطان عبد المجيد العثماني فرمانه السامي* الذي عرف باسم «فرمان الاصلاحات الخيرية» وقد أمر به «بتأمين السلامة والمال وحفظ الناموس وجميع الضمانات التي قال بها فرمان كلحانة وان تشمل الرعايا العثمانيين قاطبة، من أي دين ومذهب كانوا. وان يُبقى على جميع الامتيازات والاعفاءات الماضية التي أحسن بها السلاطين العثمانيون السابقون الى الطوائف المسيحية وجميع الملل غير المسلمة.»

وتقبلت أوروبة ذلك الزمان الذي حثّت السلطان على إصداره بعبارات التقدير، ظانة أنها علّمت تركية المبادىء الانسانية الحديثة، وقد تجاهلت، وجهلت أن تلك التدابير الاصلاحية التي اعتزم السلطان السير بهديها إنْ هي سوى الشرط الاول لقيام حكم إسلامي صحيح، وإلا صارت الدولة غير مسلمة.

ومن المؤلم جداً أن الجهل المتفشي يومها في العالم الإسلامي قوّى الغباء الاوروبي الذي ذكرناه. فهبّ متحجرو المشايخ، ويا بلوى المسلمين منهم، الذين لا يفهمون من الدين إلا طقسياته من تطهير ووضوء، ويجهلون مثاليته وسموّه وعدالته، هبوا يعترضون على إعلان المساواة بين المسلم والذمي أمام قانون الحكومة، وفي اجراءاتها، وراحوا يخطبون في المساجد والمجتمعات العامة ويثيرون الناس – والمواضيع الدينية شديدة الحساسية في البلدان المتخلفة – فثارت جماهير الرعاع، الجاهلة جوهر

(*) في ١٨ فبراير سنة ١٨٥٦.

دينها الحنيف، وعصفت بطول السلطنة وعرضها، بل بالشرق كله، زوبعة منكرة وصارت الجماهير ترى في المسيحيين واليهود رجساً ونجساً ...

وهل يكون النصارى أصحاب رجس ونجس وهم الذي روى عنهم ابن اسحق في السيرة النبوية أن وفدا منهم جاء من نجران الى المدينة المكرمة لمقابلة النبي ﷺ فاستقبلهم في مسجده. وقد حانت صلاتهم فقاموا يصلون – قاموا يصلون في مسجد الرسول فقال ﷺ: دعوهم. فصلوا الى المشرق.

هل يغصّ المشايخ المتحجرون – يا بلوى المسلمين منهم! – بأن لا يعامل مواطنوهم النصارى معاملة العبيد؟

وفصل آخر:

وردت في مقالنا هذا غير مرة كلمة: ذمي، وذميون، ومعناها اسلامياً المسيحيون واليهود الذين لهم كتب سماوية. (وقيل: المجوسيّون والصابئة أيضا). وسموا بأهل الذمة لأنهم يعيشون في دار الإسلام متمتعين بحمايته، لقاء قيود مالية وسياسية واجتماعية.

وكلمة «ذمة» وردت مرتين في القرآن الكريم، وكلتا المرتين في سورة التوبة. الاولى: «كيف، وإن يظهروا عليكم لا يرقبوا فيكم إلاً ولا ذمةً، يرضونكم بأفواههم وتأبى قلوبهم، واكثرهم فاسقون» (الآية الثامنة). والمرة الأخرى: «لا يرقبون في مؤمن إلاً ولا ذمة، واولئك هم المعتدون.» صدق الله العظيم! (الآية العاشرة).

ورجعنا الى «تفسير الامامين الجلالين» لفهم الآيتين فهما اسلامياً صحيحا، والامامان من أعلام الثقات في التفسير، فقرأنا أن الآيتين نزلتا في قريش الذين نافقوا ونقضوا عهد النبي لهم يوم الحديبية فلم يرقبوا (يراعوا) في المسلمين إلاً (قرابة) ولا ذمة.

وبهذا التفسير الثبت وضح عندنا أن النصارى واليهود والصائبة الذين صاروا يسمون بأهل الذمة، لا علاقة لهم بأية علاقة بالذمة التي وردت في الآيتين المذكورتين.

وبعد القرآن الكريم يأتي حديث للنبي ﷺ ذكر فيه الذمّيين وتبرأ من كل مسلم يؤذيهم، فقال:

«من آذى ذمّيًا فأنا خصمه، ومن كنت خصمه خصمتُهُ يوم القيامة.»

وهذه أول مرة ترد كلمة ذمي بمعناها الإسلامي على لسان إنسان، هو النبي الأمين، بعد أن جاءت في القرآن. وهي تدل، في الحديث هنا، على الكتابي العائش في دار الاسلام والمتمتع بحمايته لقاء الشروط المعلومة. وأية حماية أمنع واكرم من حماية الرسول؟

ثم يسمع المسلمون الخليفة أبا بكر الصديق يقول: «لا تقتلن أحداً من أهل ذمة الله، فيطلبك الله بذمته.»

والخليفة أبو بكر هو نفسه الذي قال للجيش الإسلامي عند زحفه الى بلاد الشام المسيحية، الرازحة تحت نير البيزنطيين:

«... ولا تمثلوا، ولا تقتلوا طفلاً صغيراً ولا شيخاً كبيراً ولا امرأة، ولا تعقروا نخلاً ولا تحرقوه. ولا تقطعوا شجرة مثمرة. ولا تذبحوا شاة ولا بقرة ولا بعيراً إلا لمأكلة. وسوف تمرون بأقوام قد فرغوا أنفسهم في الصوامع فدعوهم وما فرغوا أنفسهم له.»

وبعد انطلاق الفتح الاسلامي – ويصح القول أيضاً بأنه عربي بانطلاقه، وهذا النعت له، في رأينا، خطورته – بعد انطلاقه من الحجاز الى الأقطار المسيحية وبدء تمكنه فيها، ثم وفاة الخليفة الصديق، تبدلت فجأة نظرة الحكم الجديد لأبناء الذمة! ولم نقع في كتب الفتوح والمغازي

على تحليل لتلك الظاهرة، إلا أننا نرجح أن السبب الاول فيها هو وجود اكثرية غير عربية الى جوار المسيحيين العرب. فهؤلاء قد استقبلوا أبناء عمومتهم الفاتحين مرحبين، واما تلك الاكثرية فذات طابع قومي محلي، أصيل وعريق، هو الأصل الارامي الذي نعرفه اليوم باسم السرياني. وتعيش مع تلك الاكثرية أقلية يهودية بلدية، وأقلية بيزنطية. وليس هيناً عليها أن ترتضي الاحتلال الإسلامي الديني بسهولة تامة، وإن هي كرهت وتكره الاحتلال البيزنطي. ويماشي ذلك الواقع العظيم التأثير مزاج للخليفة الجديد عمر بن الخطاب فيه شدة وجرأة ودهاء، وفيه عدل ونصرة للحق، ولكن فيه شدة ... وهنا تبدأ قصة ما عرف بعهد عمر للمسيحيين في الشام، او في القدس، ثم تتتابع حتى تصير مأساة*.

ان الخليفة عمر بن الخطاب وصف بالعدل. ولكن «نص» عهده الذي وصل الينا يوقعنا في الحيرة: فهو يقص تعهداً من نصارى قيل إنهم أهل الشام، وقيل إنهم شرطوه على أنفسهم، وهذا ما جاء فيه على لسانهم ولسان ذراريهم في المستقبل:

«... انكم لما قدمتم علينا سألناكم الأمان لأنفسنا وأهالينا وأموالنا وأهل ملتنا، على أن نؤدي الجزية عن يدٍ ونحن صاغرون، وعلى أن لا نمنع أحداً من المسلمين أن ينزل كنائسنا في الليل والنهار، وان نضيفهم فيها ثلاثاً، ونطعمهم الطعام، ونوسع لهم ابوابها، ولا نضرب فيها بالنواقيس إلا ضرباً خفيفاً، ولا نرفع فيها أصواتنا بالقراءة، ولا نُؤوي فيها ولا في شيء من منازلنا جاسوساً لعدوكم،

(*) جاء في محيط المحيط ان أهل الذمة يقال لهم: الجالية. قيل لهم ذلك لأن الإمام عمر اجلاهم عن جزيرة العرب. ثم لزم هذا الاسم كل من لزمته الجزية من أهل الذمة والمجوس، وان لم يُجلوا عن اوطانهم.
ويقال: استعمل فلان على الجالية اذا ولّي اخذا بجزية منهم. والعامة تطلق الجالية على الجزية عينها.

ولا نحدث كنيسة ولا ديراً ولا صومعة ولا قلاية* ولا نجدّد ما خرب منها، ولا نقصد الاجتماع في ما كان من خطط** المسلمين وبين ظهرانيهم. ولا نظهر شِركا ولا ندعو اليه. ولا نظهر صليباً على كنائسنا ولا في شيء من طرق المسلمين واسواقهم. ولا نتعلم القرآن ولا نعلمه اولادنا. ولا نمنع احداً من ذوي قربانا من الدخول في الاسلام اذا أراد ذلك. وان نجزّ مقادم رؤوسنا. ونشدّ الزنانير في اوساطنا. ونلزم ديننا. ولا نتشبّه بالمسلمين في لباسهم ولا هيئتهم، ولا في سلوكهم ولا في نقش خواتيمهم فننقشها نقشاً عربيا. ولا نكْتني بكناهم. وعلينا أن نعظّمهم ونوقرهم ونقوم لهم من مجالسنا. ونرشدهم في سبلهم وطرقاتهم. ولا نطلع في منازلهم. ولا نتخذ سلاحاً ولا سيفا، ولا نحمله في حضر ولا سفر في أرض المسلمين. ولا نبيع خمراً ولا نظهرها. ولا نظهر ناراً مع موتانا في طريق المسلمين. ولا نرفع أصواتنا في جنائزهم، ولا نجاور المسلمين بهم. ولا نضرب أحداً من المسلمين. ولا نتخذ من الرقيق ما جرت عليه سهامهم. شَرَطنا ذلك كلّه على أنفسنا وأهل ملتنا. فان خالفنا فلا ذمّة لنا ولا عهد. وقد حلّ لكم منا ما يحل لكم من أهل الشقاق والمعاندة.»

ابن عساكر، تاريخ دمشق: ج ٢، ص ١٧٨.

والرواية تقول إن الخليفة عمراً عاهد المسيحيين على ما شرطوه على أنفسهم في التعهد المذكور فصاروا في ذمة الخليفة.

وللعهد العمري صور عديدة متباينة أحيانا، ومختلف على تعيين الناس الذين أعطيت لهم، كما قيلت فيها أشياء كثيرة... وأيا كان النص

(*) من اليونانية، كثيليون، هي بيت المطران ومقره. ومن اللاتينية، كيولي، هي غرفة الراهب أو الراهبة. والمعنى اليوناني دارج في لبنان، فيقولون: قلاية المطران.
(**) جمع خطّ، وهو الطريق.

الصحيح منها – هذا إن ثبت أنه نص عهد عمر – فهنالك ملاحظات حوله:

اولاً: ان النص الأصيل مفقود، والمتناقل منه هو رواية التواتر. ونقل التواتر يبلبل الأصل وقد يزيفه. وهذا ما حمل الخليفة عثمان بن عفان على استنساخ القرآن الكريم خوفاً من المماراة فيه والاختلاف في نصه. قال له الصحابي حذيفة «يا أمير المؤمنين، ادرك هذه الأمة قبل أن يختلفوا في الكتاب اختلاف اليهود والنصارى». فاذا احتُمل أن يُمارى في كتاب الله أفلا يحتمل أن يمارى في تشريع انساني؟

ثانياً: ان القيود التي فرضها العهد على أهل الذمة، بناء على ما شرطوا أنفسهم عليه، صارت مع مر السنين وتقلب الدول الاسلامية على اختلاف شيعها وقومياتها وأراضيها تعدّ تشريعاً مهزوزاً والتشريع البشري ليس من الله تعالى، دائماً، وليس بالتالي سرمدياً ولئن سنّه خليفة راشد، ومعنى هذا أنه يجوز تعديله وتبديله.

ثالثاً: لنحسب، جدلاً ومسايرة أن جميع نصوص عهد عمر صحيحة، على اختلاف رواياتها، وغير مطعون منطقياً بواحد منها، وان العهد وضع لأسباب اقتضتها حالات زمنية ومكانية، فالاسلام أعدل، وارفع، من تقييد المواطنين بقيود مذلّة إذلالاً مناقضاً لناموس المدنية والقوانين الدولية، ولشرعة حقوق الانسان وكرامته.

رابعاً: يجب أن لا ننسى أن العهد المذكور مشروط فيه: فهو لم يفرض قيوده على الذمي إلا لقاء حماية الاسلام له في عيشه على أرضه، لا لكونه غير مسلم. يعني لا يجوز لمسلم من اندونيسية او موريتانية ان يحسب البابا بولس السادس والرفيق ماوتسوتنغ والرفيق بريجنيف والملكة اليزابيت والامبراطور هيروهيتو ذميين بحجة انهم غير مسلمين. فهؤلاء لا يعيشون على أرض اسلامية، ولا تشملهم حماية الاسلام.

خامساً: ترى، الى أي حد تعتبر الدولة إسلامية اذا كانت الخمرة والميسر والبغاء والربا مباحة فيها، أو كان الطرف مغضوضاً عنها لعوامل سياسية واقتصادية واجتماعية – واذا كان المواطن المسلم والمواطن غير المسلم الذي فيها ينتخبان معاً نائبهما، ليسنّ القوانين لهما ويراقب عمل حكومتهما، وقد يكون هذا النائب الذي انتخبه الاثنان ذمياً (وربما كان دهرياً!)

سادساً: ان الزمان والمكان قد تطورا تطوراً قصيّا. وكثيرون من الحكام السابقين عبثت تصرفاتهم بتعاليم القرآن الكريم، أي برسالته، فالاسلام الدين السمح للناس كافة يمنع والحالة هذه من تطبيق القيود على غير المسلمين. قال جابر: «اذا ظلم أهل الذمة كانت الدولة دولة العدو...».

سابعاً: من المتناقل الذي يفتقر الى كثير من دوامغ التثبيت أن النصارى هم البادئون بوضع تلك القيود عليهم، وان الخليفة عمراً عاهدهم. إلا ان هذا الزعم لا يرضاه عاقل، فليس من مغلوب فتح فاتح بلده قال لهذا الفاتح: «تفضل وانتقص من كرامتي، وأشبعني إذلالا، واعبث بمقدساتي...» وانما المعقول، وهذا المعقول هو في الاجراءات الجارية في العالم، ان الفاتح يملي شروطه على المغلوب والمغلوب يُكره على قبولها صاغرا. وكان المسلمون في فتح الشام والقدس ما يزالون على فضيلة الاسلام وانطلاقاته الانسانية، فمن الصعب التصديق، ان لم يكن مستحيلاً، أنهم يشرطون على النصارى الأقرباء المودة تلك الشروط الرهيبة.

ثامناً: في العهد العمري كلام ينقضه المنطق، كتعهد النصارى انهم لا يتعلمون القرآن الكريم ولا يعلمونه اولادهم. فهل يسهل تصديق مثل هذا الكلام والكتاب قد أنزل للعالمين أجمعين، لا لأبناء مكة ولا لأبناء الجزيرة وحدهم؟ والفتوح الاسلامية كان من أولى حاجاتها التبشير بالإسلام ونشره. وشيء آخر: ان في نصوص العهد تعابير مسترقّة من القرآن أو

متقاربة من آياته، كقولهم: نؤدي الجزية عن يد ونحن صاغرون. وذوي قربانا. وأهل الشقاق. والدخول في الاسلام الخ... ولم يرو راوٍ ان نصارى الشام كانوا من المتمكنين من لغة قريش أو من كتّابها، ولا أنهم كانت لهم البلاغة الباهرة التي تأخذ بالألباب في آيات القرآن.

تاسعاً: في المسلمين مثقفون يرون أن الاسلام هو الدين «الذي سوّى بين معتنقيه وبين من استظلوا بحكومته حتى ولو لم يعتنقوه.»* فمن الصعب الصعب، والحالة هذه، ان نصدّق القيود المناقضة لهذا الرأي في العهد المذكور.

عاشراً: ما دام كلام الله تعالى صريحاً بتأكيده مودة النصارى للمسلمين – وهو كلام أزلي سرمدي – فمئة عهد، بل ألف ألف عهد أو تشريع، سواءً أوضعه عمر أو غير عمر، أو وضعته الناس جميعاً، لا تستطيع أن تدنو من تشريع القرآن، فهو الأول الأول والأصدق والأبقى، وهو الذي قاد المسلمين في فجرهم الى معاملة من سمّوا بأبناء الذمة معاملة الضمير. وقد استمر المسلمون على هذا الصراط المثالي حتى أخذت الأحداث، العديدة والمنوعة، تقصي بعضهم عن ينبوع دينهم، وعن مروءتهم العربية، فظهر التبديل في بعض ذهنيتهم.

ان المؤلف يؤمن بأن الإسلام بريء مما اقترفه حكامٌ أكثرهم غير عرب، استطاعوا أن يغتصبوا الحكم بالسيف فأبعدوا الإسلام عن جوهره الصافي لأنهم لم يفهموا الاسلام، وخيّل اليهم أن دينهم يقول باحتقار النصارى فاحتقروهم، ثم اذّلوهم واضطهدوهم. ثم جاراهم شيوخ متحجرون، محدودو الرؤية، وتبعهم رعاع عمي، واهمين أن ذلك الاحتقار أوجبه الدين، فذرّ قرن الفتنة بعد أن ظن المسيحيون أن الإساءة اليهم يقول بها الإسلام. وهكذا فقدوا الثقة به وحزروه – ويا للأسف العظيم! – وتحوّل

(*) الدكتور حسن حبشي استاذ في جامعة عين شمس: تاريخ العصور الوسطى.

الحذر الى قلق، والى سوء ظن كبتوه في صدورهم المتعبة، ثم نقلوه الى اولادهم مع الدموع والتأوّه، وكأنهم يطلبون اليهم أن يروا رأيهم...

الخ ... الخ ... وضميري لا يسمح لي بأن أضرم النار في قومي، تداركنا الله وتداركنا العقل!

وبعد: اذا اقتنعنا أن التعايش المسيحي المسلم في لبنان حتم لا مفر منه، فلا بدّ من كلمة صريحة فيه:

١– ان المسيحيين، و «كبارهم» بالتخصيص، يجهلون الدين الإسلامي جهلاً كاملاً ويعرفون عنه أشياء خاطئة تسرب اكثرها الى أذهانهم على أنه نظام وليس ديناً. وهنا الخطأ الأعظم.

وجميع المدارس جميعها، الاوروبية والاميركية – حتى العلمانية منها أحياناً – اشتركت في تشويه صورة الاسلام، اذ أظهرته بمفهومها الغربي، المنسجم مع أغراض التبسط والتحكم لابتلاع خيرات الشرق، فصار المسيحيون من جميع المذاهب، **من جميع المذاهب**، يرونه على غير حقيقته، كما يريده الأجانب.

يضاف الى ذلك، وقد يتقدمه، سوء الحكم غير العربي وظلمه، وجهل ادّى الى غوغائية في سواد المسلمين الذين نظروا الى النصراني برؤى ما سمي بالعهد العمري، (وقد أدرك المؤلف في صغره بقايا من تلك الغوغائية المشؤومة)، فحقروه واعتدوا عليه، وساعدوا على تظهير الصورة المشوّهة. وكان ان استغلت الدسائس الأجنبية ذلك التنافر بين المواطنين فغذته أحقاداً حتى امتلأت الصدور، كما غذّته الخلافات الشخصية والخصومات المذهبية بين المسيحيين أنفسهم، ووشايات بعضهم ببعض، انتقاماً أو ثأراً، وازدلافاً أو وصولية، امتلأت بأخباره الكتب.

٢– جهل المسلمون حقيقة المسيحية، ولم يعرفوها إلا من صورة مهترئة مثّلتها «نصرانية» الجزيرة العربية في الجاهلية، وفي الحبشة والعراق

قبيل مولد الإسلام، وهي – يومها – ديانة بدائية، قليلة الايمان وفاقدة روحانيته، ومتضاربة بتيارات قبلية متخلفة، لا علاقة لها بتعاليم السيد المسيح. وقد انعكست تلك الصورة في ما جاء في القرآن الكريم عن النصارى (...)

واذا قارن العاقل بين تلك «النصرانية» البدوية، البدائية، وبين المسيحية التي يعتنقها اليوم الكاثوليك على تعدد مذاهبهم، والارثوذوكس على تنوع شيعهم، والبروتسطان على كثرة فرقهم وتكاثرهم، رأى أن ليس من رابطة بين النصرانية والمسيحية إلا الاسم.

وهكذا تساوى المسيحيون والمسلمون في جهل بعضهم بعضاً دينيا. وحفرت بينهم هاوية مخيفة جداً.

ثم تساوى أبناء جبل لبنان وأبناء الذين كانوا خاضعين للحكم التركي المباشر في ولايتي بيروت وسورية وضموهم الى الأولين، تساووا في جهل بعضهم تاريخ البعض الآخر.

ومن هذه المخلوطة ولدت دولة لبنان الكبير في أيام الانتداب. وهذه الدولة صارت جمهورية.

وهذه الجمهورية هي هي، بعينها وبينها، بقضها وقضيضها، الجمهورية التي جعلها «الميثاق الوطني» دولة الاستقلال. ولم تكن في الواقع إلا امتداداً للحكم الاقطاعي فالحكم الاستعماري.

اي أننا نخضع جميعنا الآن، مسلمين ومسيحيين، للحكم الرأسمالي القره قوشي، الفريد من نوعه في العالم الراقي. وهذا الحكم له قصته وعنوانها: الميثاق الوطني، في الصفحات الآتية.

قد تسأل كيف عاش «اللبنانيون» هذه السنين كلها ولم يقصف بعضهم عمر بعض؟

– عاشوا لأن التجارب أثبتت أن باستطاعة جارين مفترقي الدين أن يعيشا متفاهمين، بل متآخيين ومتحابّين، دون أن يتنزل أحدهما عن إيمانه الديني للآخر. وباستطاعة كل من الاثنين أن يبقى على دينه.

أضف الى ذلك عوامل حياة التجاور ومجاملاتها الاجتماعية، في الأفراح والأحزان ومختلف المناسبات والضرورات التي لا بد منها، وملزماتها الحتمية. واضف الى تلك العوامل التعامل الزمني، تجارة واشتراكاً في الكسب، وتضامناً وجوبياً بين الشريكين لتحقيق الكسب، وتضامناً وجوبياً بين كادحي العمل لتأمين حقهما ومنع استغلال تعبهما. اضف الى ذلك كله تبادل الزيارات الاجتماعية والترافق في الحفلات العامة، وهي كلها عناصر تجعل تعايش اللبنانيين شبه أخوي فيما اذا أبعدوا عنهم منافقي السياسة والوصولية.

وعلى مر السنين، اذ تتطور أنظمة الحكم وتتبدّل الى أنظمة عادلة انسانية، لا استغلالية، ويسودها الحق بمفهومه المتطور، عندها يصير التعايش أخويّا حقا، وتصير حرمته مقدسة ومضمونة. خصوصاً وان عجينة الشعب طيبة. وقديماً قال جدودنا: «جارك القريب ولا أخوك البعيد».

جنون

تركنا اللورد بالمرستون ينكر الحِنّاء واثرها في ما اقترفه الانكليز لايقاظ الفتنة في لبنان، وسمعناه يتهم الفرنسيين بأنهم هم موقظوها.

واقتفى الفرنسيون أثر اللورد الانكليزي في التبرؤ، وردّوا له الكيل كيلين، متهمين عملاء الجاسوسية البريطانية بأنهم هم المدبرون وهم المحرضون.

وصار اللبنانيون مقتنعين اليوم بصحة الاتهامين الفرنسي والانكليزي، خصوصاً بعد أن أذيع كثير من المكاتبات الدولية السرية التي دارت على تلك الفتنة، فانفضح كل من اشترك في الإِعداد لها، وترتيبها، وللنفخ فيها واستثمارها.

ولكن لا بد من استدراك: فالفتنة لم تكن من عمل الانكليز والفرنسيين وحدهم. ولم يتفرد بايقاظها شجار، هو ابن ساعته، بين صبية من دير القمر وبعقلين تناقروا في الطريق.

ولا حساسيات هامدة من أرث الحكم الشهابي الرهيب، ووحول جشع المرابين في دير القمر[1]، وذكريات الاستبداد الاقطاعي، وتحاقد بعض المتزعمين من رجال دنيا ودين.

ولا هي خيلاء الأغنياء الجدد في الفلاحين المسيحيين، ونزق بعض القيادات المستحدثة وغفولها، وضعف الوعي في الناس.

ولا هي انفعال المشايخ المسلمين السطحيين، الغاضبين على صدور الفرمان السلطاني الذي أمر بالتساوي بين الرعايا العثمانيين على اختلاف أديانهم ومذاهبهم ولغاتهم*.

وانما الفتنة كانت وليدة جميع تلك العوامل التي اشتركت في نفخ النار للتأهب. وقد دلت القرائن على ان اليد التركية الغبية (او المأجورة؟) هي التي بدأت التحريك. فحرقت بيتها جاهلة (او متجاهلة؟) انها تحقق مطامع الطامعين المتظاهرين بمحبة جلالة السلطان، وبالحرص على سلامة ممتلكاته!

وما ان اندلعت النار في جزين والشوف والمتن حتى نفخ فيها الاقطاعيون الحرافشة في بلاد بعلبك. وهؤلاء الحرافشة قد صورتهم لنا روايات التاريخ انهم كثيرو الوصولية والتذبذب. وارسلت حكومة دمشق الى بعلبك شرذمة من الجند الأكراد لحماية مسيحييها وكانوا اشدّ ضربة على المنكوبين، اذ أرخى لهم قائدهم العنان «فهاجموا كنيستنا ومقرنا الأسقفي وبيوت المسيحيين عامة، وسلبوا الأموال ودمّروا الباقي، ودنّسوا مذابح التقديس، وقتلوا بعض الرجال، واغتصبوا النساء، وافتضوا البنات ثم قتلوهن. الخ ... الخ...»**

ولم يكن للموارنة أي دخل في بعلبك، ولا كان لهم شأن أو نفوذ، بل كانوا فلاحين كادحين في السهل.

(*) قبيل الاعتداء على المسيحيين في دمشق بتحريض من الجهلاء، وزعت في أحياء المدينة دعوة تحرض المسلمين على سفك دم النصارى وحرق كنائسهم واغتصاب أموالهم وتدمير بيوتهم (الخ...)، وتدعو مسلمي حلب وحمص وحماة والمدن الأخرى الى مثل هذا العمل الأحمق. وفي اضبارات معظم وزارات الخارجية الاوروبية نسخة من تلك الدعوة.

(**) من رسالة كتبها الأسقف ملاتيوس الرشيدي صاحب الصوت الملائكي مطران الروم الكاثوليك في بعلبك الى القنصل الانكليزي في بيروت. وقد اكتفينا بقليلها للكشف عن بعض الجذور وليس لنكء الجراح. ومن أراد درس تلك الشرور فليطلب: «مجموعة المحررات االسياسية والمفاوضات الدولية عن سوريا ولبنان من سنة ١٨٤٠ الى سنة ١٩١٠» ترجمة فيليب وفريد الخازن صاحبي جريدة الارز. (صدر منها ثلاثة مجلدات. وبسبب ترجمة هذه المجموعة، ==
وسواها، شنق احمد جمال باشا الأخوين المترجمين.)

وكذلك هوجمت حاصبيا وراشيا والكفير والقرى المسيحية في وادي التيم. وقد وازن نصيبها نصيب بلاد بعلبك. إلا ان النساء لم يمسسن بسوء، لأن الدرزي من ناموسه أن لا يعتدي على عرض. وهو في هذا الخلق أشرف العرب والشرقيين اطلاقاً[٢].

ولم يكن للموارنة كيان، ولا زعامة، في وادي التيم.

وكانت الفتنة قد نشبت، قبل مدة، بين القبائل النصيرية (العلوية) والقبائل السنية في جهات اللاذقية. وليس هناك دروز، وللموارنة قلة ضئيلة.

وذات صباح استيقظت حلب ليقرأ ابناؤها على أبواب المساجد مناشير تحرض المسلمين على ذبح الكفرة المسيحيين.

وانتقل التحريض الى انطاكية وصار الرعاع يدخلون الكنائس أثناء القداديس ويضجون و «يرتلون!» بأعلى أصواتهم.

وليس في انطاكية ولا حلب إلا قلة ضئيلة من بقايا الدروز والموارنة.

وخرب في صور دير الرهبان المخلصين ودير الراهبات المخلصيات، وليس هناك موارنة ولا دروز.

واشترك الجنود الأتراك مع غوغائيي صيدا في التفظيع، وليس في المدينة دروز والموارنة يحصون على الأصابع.

== ووضعت عدة كتب ودراسات مفصلة باللغة العربية عن الحوادث المشؤومة في سنة ١٨٦٠، وهي بأكثرها بأقلام مسيحية غير مارونية. منها كتاب «حسر اللثام عن نكبات الشام»، طبع مصر سنة ١٨٩٥، بقلم مجهول، تؤكد آراؤه ونزعته أنه غير ماروني و «كتاب مشهد العيان بحوادث سوريا ولبنان» بقلم جامع حوادثه الدكتور مخائيل مشاقه. وهذا الكتاب جدد إنشاءه وزاد فيه: ملحم خليل عبده واندراوس حنا شخاشيري، طبع بمصر سنة ١٩٠٨، - «وتاريخ الشام» لميخائيل الدمشقي (والمرجح أنه من بني كحيل)، طبع في المطبعة الكاثوليكية ببيروت) الخ.... وهنالك كتب وضعها فرنسيون وانكليز وكلها مسموم ومسمّ...

وهاج المسلمون في عينتاب، وفي مدن فلسطين، وفي جدّة، وفي أزمير و ... و ... وأين الموارنة والدروز في تلك المدن؟

أولاً يلاحظ أن يداً خفية كانت تشجع على وقد النار، في سبيل مصالح ومطامع في ممتلكات السلطنة، او لمعاندة مآرب أخرى؟

نعم، ان الموظف العثماني الغبي، أو المتعصب، او المأجور، (وربما في الثلاثة معاً)، كان آلة تديرها مخططات استعمارية سرية.

والثابت الذي لا ينقض هو أن السياسة العثمانية ظلت دائما، وابداً، حاقدة على لبنان صاحب الوضع المميز الذي سمح له وساعده على أن ينشأ منه عباقرة ورجال صالحون من مختلف طوائفه، وان يحتل أفراد منهم مناصب عالية خارج جبلهم الضيق، وأن ترتفع في هذا الجبل طلائع العمران الافرادي، قصوراً ومساكن، زراعة وصناعة، مما يفسح لشعبه في بناء استقلال حقيقي في قلب السلطنة، فصارت النفسية العثمانية تريد فناءه وتريد إفناءه*. وقد تجسدت تلك الأمنية العثمانية يومئذ في حديث نقله مستر برانت قنصل انكلترة في دمشق عن المشير احمد نظيف باشا والي الشام وقائد جيش البلاد العربية. فقد نسب القنصل الى ذلك الوالي غير النظيف، قوله:

«في سورية بليّتان هما المسيحيون والدروز، وكلما ذبح احدهما الآخر كان الذبح ربحاً للباب العالي...»**

(*) سيأتيك حديث تلك الكراهية على لسان احمد جمال باشا شانق أحرار العرب، وقد باح بها في مذكراته التي كتبها بعد ستين سنة من احداثنا هذه.

(**) «سورية في ١٨٦١»، تأليف سن مارك جيراردن، ص ٥٦، نقلاً عن «مجموعة انكليزية» رقم ١٣٨ ص ١٣٢ - وصاحب هذا الكلام الوحشي الرهيب حوكم بتهمة تدبير ذبح مسيحيي دمشق وحكم عليه بالاعدام. وقد تناقلت الألسن أن فؤاد باشا أمر بتنفيذ الحكم فوراً حتى يمنع المشير المحكوم من البوح بأوامر تلقاها واذاعتها تدين استنبول.

ويثبت تلك النية العدوانية ما كتبه غير مرة، وبصورة رسمية، ممثّلو الحكومات الفرنسية والروسية والانكليزية الى وزارة الخارجية في استنبول عن أن الضباط والموظفين العثمانيين هم المسؤولون عن الدماء التي سفكت في الفتنة، وان لدى الحكومات المذكورة ما يثبت الأدلة الجرمية التي تدينهم.

مصالح دول ثمنها دماء لبنانية

ان «مجموعة المحررات السياسية والمفاوضات الدولية» التي جرت بين مختلف الدول في نكبة السنة الستين، والتي استشهدنا بها غير مرة في فصولنا السابقة، مشحونة بما يؤكد أن الانكليز والفرنسيين، وعملاءهم البلديين، اشتركوا اشتراكاً رئيسياً مع الأتراك في زرع بذور الجرائم التي ارتكبت في تلك النكبة، وانهم لا يقلون تبعةً عن الموظفين العثمانيين فيها.

وأنباء التقاتل والتخريب نقلت الى اوروبة مبالغاً في بسطها وتحريف أسبابها، سواء أمن القناصل أم من الاوروبيين المقيمين في البلاد، ولكل جماعة منهم، بل لكل شخص أحياناً، رأي ونزعة ومأرب*. إلا أن الاجماع على قول واحد يصح الأخذ به مستنداً، اذ إن من الصعب جداً أن يتفق المتخاصمون والمتضاربو الاهواء على حكم موحد، فان اتفقوا جاز قبول قولهم.

وايًّا كان الخلاف الانكليزي الفرنسي في توجيه مأساتنا، وفي قيادة نكبتها، فالحقيقة، الحقيقة المؤلمة، ان جدودنا فقدوا رشدهم وضلّوا سبيلا.

(*) يكرر هنا المؤلف رأيه الذي أعلنه مراراً، كتابةً ومحاضرة وتدريسا، في أن تقارير القناصل الذين كانوا يقيمون في المدن العثمانية لا تعتبر دائماً قول الحق. فهي تحتوي في الغالب على بعض مغالطات مأربية وعلى خطأ في الفهم والتقدير، متأثرة أحياناً بنزعات مزاجية (حبًا او كراهية)، وفي هذا النزوع المزاجي (المغتفر انسانيا) يتقدم الفرنسيون على زملائهم الآخرين. فالاستناد، والحالة هذه، الى التقارير القنصلية «على العميانة» في وضع الكتب عن بلادنا وفي رواية احداثها، بدون التحذر والانتباه، وبدون التحليل والمقارنة، خطأ فادح بل خطر مخيف. وليس من فارق بين تقارير القناصل في ذلك الزمان وأخبار الصحف في نكبتنا الحالية. وليس من عاقل يستطيع اليوم القول إنه يعرف حقيقة ما يجري معرفة صحيحة (كاملة) من جريدة واحدة. والناس تقبل على قراءة الجريدة التي تحك هواها ... ولهذا تزداد الناس انغماساً في تحجر الرأي والابتعاد عن الحقيقة الكاملة وتفقد الصواب. فتتأزم المعالجة وتصعب...

وقادهم متزعموهم ويوضاسيهم الى التناحر والتذابح، ووصلت أخبارهم الى أوروبة مروية بأقلام ذوي النزعات المختلفة، فأسرع الامبراطور الفرنسي نابوليون الثالث يقنع دولها، وفي مقدمتها انكلترة، بوجوب التدخل السريع - السريع - في لبنان لوقف النزف قبل الاجهاز على المسيحيين. ولمنع التخريب والنهب والحرق قبل أن ينتهي الجبل الصغير الجميل الى الدمار الكامل. وقد تذرع الامبراطور الفرنسي لتحقيق دعوته بأن الدول التي دعاها يحق لها هذا التدخل، استناداً الى تدخلها السابق سنة ١٨٤٥، يوم اشتركت مع الباب العالي في إعادة تنظيم الإمارة بعد زوال الحكم الشهابي، وجعلتها القائم مقاميتين طائفيتين*.

وعلناً - علنا - استنكرت الصحف الانكليزية تذابح اللبنانيين، واشمأزت من هوله، ونعتت مقترفيه بالوحوش. ووافقت بحماسة وبلاغة على وجوب الاسراع في حماية المسيحيين المهددين بالافناء. كان ذلك كله في العلن. واما في الخفاء فراحت لندن الرسمية تعرقل مسعى الامبراطور الفرنسي. وأمضت شهرين كاملين، يوماً بيوم، في مفاوضات سرية مع بعض العواصم لمنع فرنسا من الوصول الى المشرق فيما لبنان يحتضر ويحترق، وفيما نابوليون الثالث يلح عليها في وجوب التدخل «السريع!»

ذلك أن السياسة الفكتورية الحالمة بابتلاع العالم العربي كله ودول الشرق، كي تسيطر على موارده وتجارته ومواده الخام، وتحمي مواصلاتها الى الهند، كانت تتساءل بقلق: ماذا تريد المطامع الفرنسية من جديد؟ انها اغتصبت الجزائر ووسعت حدودها الجنوبية بالاستيلاء على مقاطعة سافواي ومقاطعة نيس الايطاليتين، فماذا تبغي الآن؟ هل هي تخطط

(*) عرف تنظيم القائم مقاميتين باسم واضعه شكيب أفندي وزير الخارجية الذي أعلنه في آخر تشرين الاول اكتوبر ١٨٤٥، وكان يقال له: تنظيمات شكيب افندي، أو تدبيرات شكيب افندي، او توصيات شكيب افندي، وكلها اشارة الى نظام القائم مقاميتين.

لانشاء إمارة عربية مستقلة تضم لبنان وسورية وفلسطين ويرئسها الأمير عبد القادر الجزائري، وتكون تحت حمايتها أو وصايتها؟ هل هي تطمع بالعودة الى مصر، او بعودة نفوذها اليها، بالاتفاق مع الوالي الجديد محمد سعيد باشا حفيد حليفها محمد علي؟

ان قنصل فرنسا السابق فردينان دي ليسّبس يبذل الجهد، في الشرق والغرب، لفتح ترعة السويس، وهو المشروع الخطر على طريق الهند*. اذن: لا، لمسعى نابوليون الثالث، وليمت مسيحيو لبنان ومعهم مسيحيو الشرق كله!

إلا أن جميع تلك المخاوف، العاملة في راس الانبريالية البريطانية، لم تهمسها حكومة لندن، ولا باحت بها. وظل سفيرها في استنبول يذيع أن حكومته شديدة الاخلاص لعلائقها الولائية بجلالة السلطان العثماني أمير المؤمنين (وملايين المسلمين في الهند يموتون جوعاً في ظل حكمها). بل ظل السفير البريطاني يعلن تمسك دولته بالحفاظ على سلامة السلطنة العثمانية وسلامة سيادتها، ويتصرف ضمن هذا المخطط الخبيث مع كل خطوة يخطوها، حتى صدّق كثيرون من باشاوات استنبول مزاعم الانكليز، فتصرّفوا هم أيضاً ضمن مخططها، واهمين أن سلطنتهم الزاحفة الى الانقراض لا يصونها إلا اتفاقها مع حكومة لندن.

وظلت الصحافة الانكليزية تظهر العطف على منكوبي لبنان. فبأي أسلوب تعرقل لندن الرسمية المشروع النابوليوني بوجوب التدخل السريع لوقف النزف في لبنان - وفي سورية بعد أن انتقلت الفتنة اليها - ولوقف التخريب والنهب والموبقات والحرق؟

(*) رأى الانبريالي الجشع لورد بالمرستون رئيس الوزارة البريطانية أن تحقيق هذا المشروع الجبار على يد فرنسية (يقلب أوضاع التجارة والملاحة البريطانيتين رأسا على عقب، ويحرم بلاده المزايا التي تتمتع بها، وقد يؤدي الى نفوذ فرنسي شديد في مصر، طريق الهند». فحارب المشروع بكل قوته ولكنه فشل.

كيف تلبي لندن دعوة للعاطفين على مسيحيي الشرق، وبهذه التلبية تظل الملكة فكتورية في نظر البروتسطان في العالم حامية الايمان المقدس؟

وكيف تظل في الوقت عينه في نظر الأتراك والعالم الإسلامي صديقة جلالة السلطان؟

وكيف تحول دون المطامع الفرنسية في جوار طريق الهند؟

ووضعت لندن تصميماً:

١- يطبع التدخل بطابع اوروبي، دولي، وليس بطابع فرنسي، فلا يكون لنابوليون حرية التصرف، ولا الاستغلال، ولا الزعم بأنه وحده حامي المسيحية في الشرق.

٢- تهمس لندن في أذن «اصدقائها» من الروس بأن يطلبوا هم ايضا، حماية الارثوذوكس في جميع الممتلكات العثمانية. وبهذا لا تسلبهم باريس سلاح «حماية» المسيحيين. وبهذا ايضا يوسعون الخرق على استنبول فتزداد الحكومة التركية شعوراً بحاجتها الى صديقتها انكلترة.

٣- لا يتم التدخل الاوروبي إلا بطلب من ناظر خارجية السلطان. ويجب أن يعلن في بيان رسمي أن التدخل ليس سوى «مساعدة» طلبتها حكومة استنبول، وانه ليس اكتساحاً فرضته اوروبة.

٤- تكون الجيوش الاوروبية في خدمة وزير الخارجية العثمانية فؤاد باشا الذي أوفده السلطان الى لبنان وسورية مندوباً خاصاً مزوداً بصلاحيات كاملة لتوطيد الأمن «واستئصال جرثومة الذين أيقظوا الفتنة». ومن هذا الوزير وحده تتلقى الجيوش الاوروبية الأوامر، عندما يرى هو أن الأمن مختل يحتاج الى تدخلها.

٥- يحدد زمان الاحتلال بأقل مدة مستطاعة (ستة اشهر).

٦- ايفاد لجنة دولية تمثل انكلترة وفرنسا وروسية القيصرية والنمسا وبروسية الالمانية لمساعدة فؤاد باشا في تهدئة الحالة، وتقدير خسائر

المنكوبين، وتقديم الاقتراحات التي تراها لازمة لتعديل نظام الحكم في الجبل. وتكون اللجنة الدولية برئاسة وزير الخارجية العثمانية (او من ينيبه عنه) تأكيداً لتبعية اللجنة لمشيئة الحكومة العثمانية، وزيادة في إبعاد طابع عملها عن طابع المبادرة المستقلة والتدخل في شؤون السلطنة.

ولما تمَّ اتفاق الدول على هذا المشروع الذي طبخته لندن، اعتذر الانكليز عن الاشتراك في الحملة العسكرية الى لبنان بحجة أن ليس عندهم جنود، وقالوا انهم يعوّضون عن ذلك بإرسال قطع بحرية تحرس الشواطىء!

وبهذه الحيلة الانكليزية صار الجيش الفرنسي جيشاً اوروبيا، موفداً بمهمة من الدول الاوروبية، وتحت إمرة فؤاد باشا ناظر الخارجية العثمانية. وامّحى عنه كل طابع فرنسي.

ولم يكن ذلك الخداع الانكليزي تصرفاً استثنائياً في حادثة واحدة أكره الانكليز على اللجوء اليه. وانما هو أسلوبهم الدائم المدروس والمقصود، جعلته لندن تقليداً في تحقيق مطامعها، وقد مارسته ضد «حليفتها» فرنسا يوم قمع الانكليز الثورة المصرية بضربهم الاسكندرية وتجريدهم عليها حملة عسكرية وحشية صبت النار والحديد على الأطفال والنساء والمرضى والمعمرين في الأحياء الشعبية، مما أكره البطل العربي احمد عرابي قائد الثورة على وقف القتال.

وكذلك مارست لندن ذلك الاحتيال في تحرضها الحسين بن علي شريف مكة على عصيان حكومة استنبول، وجرّه الى ثورة «عربية!» قادها الجهل والاوتوقراطية، بعد أن وعدوه وعوداً ظن أنها تجعل منه، وحده، ملك العرب وسيدهم أجمعين، ولما صحا الشريف لم يجد سوى معالم تضليل. وانتهى أمره بأنه نفته «حليفته» البارة الى قبرص لأنه استنكر وعد بلفور!

وبدأت اللجنة الدولية الاوروبية أعمالها تحت جو قلق مضطرب. وحالاً انكشفت صراعات المطامع على الساحة المنكوبة الخربة. ظهرت لفرنسا مآرب، ولانكلترة مآرب، ولروسية مآرب. وكلها لا علاقة لها بمصلحة الشعب المنكوب.

وطالت الجلسات خمسة أشهر* مليئة بالمشاحنات والنكايات، والدس والاستفزاز، كرّاً وفرّاً.

الى القارىء فقرات من تقرير سري كتبه المندوب البريطاني، لورد دوفرين، الى سفيره في استنبول، يطلعه فيه على ما يجريه النبيل الانكليزي من مقالب ومداورات في اللجنة، عابثاً بآلام اللبنانيين ومصائرهم. قال:

«... اتصل بي (؟) ان الروسيين والروم في لبنان انتبهوا الى خطر إخضاع الارثوذكسيين لسيطرة حاكم ماروني، فأخذوا يبحثون عن طريقة تكفل لطائفتهم حكومة منفصلة مستقلة (...) وما يجدر بالذكر أن الروم ساعدوا الدروز على الموارنة (...) ومن المشهور أن قنصل اليونان في دمشق حرّض المسيحيين على المهاجرة. الخ...»**

وكان هذا التقرير السري تمهيداً من النبيل الانكليزي أعدّ به حكومته للاستماع الى مقالبه الجهنمية. وبعد شهر، في ١٥ من تشرين الثاني نوفمبر، أعلن نيته بوضوح فكتب الى سفيره:

«... ولديّ ما يحملني على الاعتقاد أن مسيو بيكلار (المندوب الفرنسي في اللجنة) يعلّل نفسه بتعيين يوسف كرم اميراً على لبنان. وكرم هذا آلة في يد المطران طوبيا عون وفي يد الاكليروس الماروني. ان تعيينه قائم مقام يشق على ذوي الاقطاع من أبناء

(*) بدأت اللجنة الدولية أعمالها ببيروت في ٥ من تشرين الاول (اكتوبر) ١٨٦٠ وختمتها في الثاني من اذار (مارس) ١٨٦١.

(**) الكتاب الازرق الانكليزي عن شؤون سورية: ج ١٩٠، ص ٢٣٥.

طائفته. كما أن امتداد سلطته على قسم من طائفة الروم الارثوذوكس يسيء الى روسية (كذا) لأنه يضر بمصالحها.

وقد حادثت اليوم مسيو نوفيكوف (المندوب الروسي) بهذا الشأن، واتضح لي بجلاء أنه ينسب هذا المشروع الى المندوب الفرنسي. غير أني لا استطيع القول - فيما اذا عجز مسيو نوفيكوف عن الحصول على حكومة ارثوذوكسية مستقلة - ما اذا كان يؤثر انقاذ الروم من حكم الأتراك، على انقاذهم من حكم الموارنة. فهو معادٍ للأتراك ولكني أظن أن كراهيته للآخرين أعظم (...)

وعلى كل حال، فمن المؤكد أن روسية لا ترضى بسيطرة الموارنة في لبنان. وبسبب هذه الحالة عزمت على أن أحثّ كلاً من مندوبي فرنسا وروسية على التمسك برأيه ليزدادا تبايناً، فيتسنى لي اذ ذاك أن اقترح مشروعا، يتراءى لي أنه يحل عقدة المشكلة بشكل أقلّ ضرراً من سواه.»*

وكان النبيل الانكليزي، متفقا، سرا، مع فؤاد باشا على هذه النغمة، بدليل أن الوزير التركي «حاول» هو أيضا، التفريق بين المسيحيين، فأمّل الروم الكاثوليك والروم الارثوذوكس بأن يكون لكل منهم حاكم من طائفتهم.

وزاد النبيل الانكليزي في نشاطه الانساني لتفريق المسيحيين، بعد أن فرق بين الدروز والموارنة، فزار المندوب الألماني لهذه الغاية. وكان المندوب المذكور يرى أن يحكم الأتراك لبنان بحجة أن حاكماً تركياً يحاول اجمالاً إرضاء اوروبة بأسرها. وبعد أن مهّد لورد دوفرين لحديثه معه بمقدمة آية في المكر، دخل في صلب الموضوع. وقد روى اللورد نفسه ما دار من حديث بينهما، قال: «... اسهبت في بيان الحقد والحسد القائمين

(*) «مجموعة المحررات السياسية»: ج ٣، ص ٨٦.

بين الروم والموارنة وصعوبة اخضاع الأولين للآخرين، كما يتعذر انشاء حكومة مستقلة لكل منهم. ولا بد من تصادم مصالح (كذا) روسية وفرنسا في هذا الشأن، فيتوجب على بروسية والنمسا وانكلترة، والحالة هذه، ايجاد حلٍ يوفق بين مصالحهما المتشاكسة المتعاكسة...»*

وما هو الحل الذي يريد النبيل الانكليزي ايجاده؟

انه باح به لمحدثه. انه انشاء حكومة تحت الحكم التركي، لا تنحصر على لبنان فقط، بل تشمل سورية كلها، لأنه: «من الظلم حرمان مسيحيي شرقي لبنان ودمشق وانطاكية وحلب من فوائد أي تنظيم نسعى اليه إذ نرى فيه ضماناً لسلامتهم في المستقبل (...) وهذا المشروع يشمل بلاداً أوسع دائرة (...) وان مبدأ إبقاء سورية موحدة تحت الحكم التركي مع بعض – بعض! – التبديل فيها، خير من انشاء إمارة مارونية في شواطئها.» (المرجع عينه)

ومعناه:

ان النبيل الانكليزي يوافق أمام زميله الفرنسي على حاكم ماروني في لبنان، وامام الروسي يريد حاكماً آخر على الارثوذوكس، وامام الالماني يريد حاكماً تركيًا على سورية كلها، معترضاً على «انشاء» إمارة مارونية، في حين أن الإمارة اللبنانية عريقة الانشاء، ولم تكن مارونية وانما الانكليز وشركاؤهم صبغوها بالطائفية.

ماذا يريد؟

انه جاء يدوس على جثث الألوف من شهداء لبنان من مختلف طوائفه، وجاء يعبث بدموع أراملهم وأيتامهم، وابائهم واخوتهم.

جاء ليقصي منافِستهم فرنسا عن المشرق، لتكون بريطانية المسيطرة الأقوى على طريق الهند، وخيرات الشرق.

(*) «مجموعة المحررات السياسية»: ج ٣، ص ٩١.

وبمثل تلك المقالب الانكليزية التهت اللجنة الدولية الاوروبية أسابيع عديدة. وحرص رئيسها الداهية فؤاد باشا على التظاهر بالاصغاء الى ما يشكو منه المندوبون في عطفهم على المنكوبين المسيحيين. ولم «يدافع» عن المنكوبين الدروز إلا لورد دوفرين. وعمل الباشا التركي ذلك ليدخل في روع الاوروبيين أنه قاض سليم الطوية ونقي الضمير ومنزّه عن التعصب. ولما سمع مشاحنات زملائه أعضاء اللجنة، وأدرك ما تنطوي عليه نفوسهم، ومدى اتفاق دولهم وحرصها على انقاذ لبنان «سريعا» وادرك كنه تصريحات تلك الدول بعطفها على المسيحيين «المساكين، المظلومين» – ايقن فؤاد باشا ان كلام السياسيين الاوروبيين هوائي، يشبه صفحة الاعلان الكبير في الجريدة، اي باستطاعتك أن تكتب بين كلماته سطوراً، وانه يستر مطامع ومآرب وحزازات واحقادا، فراح يضرب بعضهم ببعض. وقد ساعده اللورد الانكليزي في ذلك الضرب مساعدة قوية.

وكان ان لجّ السأم بالمندوبين الدوليين، وعيل صبرهم من المشاحنات والمقالب، ولم يستطع واحد منهم أن يصيب هدفا، فحملهم الأمر الواقع على القبول بما تيسّر. والذي تيسّر قانون أساسي (دستور) للبنان آخر، من طراز جديد، طبخ وسلق تحت الجو القلق المضطرب الذي بدأت به اللجنة أعمالها، فيه سيئات كثيرة وحسنات قليلة ولكنها رائعة حقا.

ونصب فؤاد باشا المشانق في دمشق وبيروت عقاباً للمجرمين، وكثيرون من الموظفين والضباط العثمانيين شنقوا، واولهم احمد نظيف باشا والي الشام ومشير جيش عربستان ولكن المتزعمين البلديين الذين حرضوا وقادوا، وهم عملاء الأتراك والانكليز والفرنسيين، نجوا من الشنق!

ومنح المنكوبون تعويضاً زهيداً جدا.

وكان ثمن المأساة، من بدئها الى ختامها، دماء الشعب اللبناني، على اختلاف مذاهب منكوبيه، وحمقهم.

وودع لبنان عهداً، ليستقبل آخر جديداً.

سياسة جنبلاطيّة

«اللبنانيون طائفة واحدة:

قال نسيب بك جنبلاط* في الحفلة التي أقيمت لغبطة البطريرك اللبناني في عيد جلوسه:

انني بصفتي كبير البيت الجنبلاطي، وزعيم الحزب الجنبلاطي، ومن خاصة الطائفة الدرزية، اقول: انه لا بد لسكان جبل لبنان من راية تظلل

(*) نسيب جنبلاط، (١٨٦١ – ١٩٢٢): هو ابن الزعيم سعيد بك ابن الشيخ بشير، عمود السماء، ورث من والده ثروة طائلة جعلت منه اغنى رجل في قومه وبلده، وقد أنفق معظمها على توطيد زعامته وفي سبيل وظيفته. ولو انها بقيت الى يومنا لقدرت بمئات الملايين. وعلى عكس كثيرين من متزعمي زمانه كان نسيب جنبلاط ينفق على منصبه ولا يلوث يده بالاسترشاء.

وهو بحكم مولده وتقاليد بيت المختارة رئيس «الغرضية الجنبلاطية». وقد عاش كريم القلب واليد، هادىء العصب والتصرف، نقي السريرة، فاحبه مواطنوه على اختلاف مذاهبهم. وكان معظم مسيحيي الشوف من محازبيه.

وبدأ نسيب جنبلاط حياة الوظيفة مع اقتباله الشباب فعين مدير ناحية الشوف السويجاني. كانت ناحية الشوف السويجاني من قضاء الشوف في بدء عهد المتصرفية تضم قرى : بعقلين وعينبال وغريفة والجديدة والخريبة والمزرعة والكحلونية وبيقون والسمقانية وبيت الدين. ولم يلبث أن نقله رستم باشا الى رئاسة محكمة الجزاء الاستئنافية سنة ١٨٨٣، أعلى منصب قضائي يتولاه درزي، وكان ابن اثنتين وعشرين سنة، ورقاه بعد سنة الى قائم مقام الشوف اكبر منصب للطائفة الدرزية في ادارة الحكومة، وصار يتداوله مع منافسه الأمير مصطفى أرسلان زعيم «الغرضية اليزبكية».

ولم يعرف عن نسيب جنبلاط أنه اساء الى انسان. وقد بنى بماله سراية الحكومة في الشويفات يوم ولي قائم مقامية الشوف. وبماله جر مياه الشرب الى بعقلين. وشارك الأهلين بشق بعض الطرق الداخلية في مقاطعته. ومن الحق أن نشير هنا الى أن اكثر الطرق الفرعية بين قرى الجبل هي صنع يد الشعب وهي عرق جبينه. ومثلها قامت المدارس والمستشفيات ونبش الينابيع وزرع الأحراج. ولم يكن للحكومة يد فيها إلا في القليل.

معالمهم وتكون مرجعهم الوطني. وبعد الدرس والاختبار وجدتُ أن المقام البطريركي الماروني هو الواجب أن يكون مرجع لبنان الوحيد. وان المتصرف نفسه لا يقدر أن يمثل هذا الدور لأن أيامه في المتصرفية محدودة...»

جريدة «البرق» لصاحبها الشاعر الأخطل الصغير (بشارة عبدالله الخوري): العدد الـ ١٧١، السبت في ١٩١١/١/٢٧.

ونشأت "المسألة اللبنانية"

ألغت اللجنة الدولية الاوروبية نظام الحكم الذي كان قد أمر به السلطان عبد المجيد للجبل باسم القائم مقاميتين، والذي، بنصوصه، كرست استنبول وصديقاتها كبيرات الدول الاوروبية الحكم الطائفي في أرضنا.

وفي ٩ من حزيران يونيو نشرت الحكومة العثمانية نص القانون الأساسي (الدستور) للبنان جديد، فاذا هو يجعل كيانه طائفيا بحتاً، اكثر من النظام السابق، فقد قسم ابناءه ست أمم ذات حقوق مشتركة في دولة واحدة، وحمل توقيع الصدر الأعظم محمد أمين عالي باشا وتواقيع سفراء الدول الاوروبية الخمس. فاتخذ إعلانه بهذا الأسلوب صفة اتفاق دولي يربط الموقعين عليه بوجوب تبني نصوصه، وعرف باسم : «البروتوكول».

وبهذا الميثاق الدولي صار لبنان، مرة أخرى، دولة في حمى خمس حكومات اوروبية.

واذا اسفنا أن قام فينا الحكم الطائفي المذكور، فمن الواجب أن نقول إن الحكم الذي كان فوقه، ومسيطراً على السلطنة العثمانية من أدناها الى أقصاها، هو أشد منه غلوًا في الطائفية، اذ أنه حكم تيوقراطي[1] دينه الإسلام وحده، ومذهبه السنّة فقط - لا مكان في جوارها لأي مذهب آخر وإن مسلماً - والسلطنة كلها بما فيها من بلدان، وبمن فيها من عباد الله من مختلف القوميات والأديان والمذاهب، انما هي ملك ورعايا لصاحب الجلالة الخليفة. فجاز، والحالة هذه أن يبدو الحكم في لبنان الجديد متنفساً «ديموقراطيا» لجميع الطوائف غير السنّية العائشة في لبنان.

بل لا عجب أن نرى في ذلك المتنفس، وبالنسبة الى زمانه، أسلوباً غريباً قد يجوز نعته بالثورية لأنه اعترف لطوائف «هامشية» ينعت ابناؤها بالذميين، والرافضة، والباطنية الذين هتك أبو حامد الغزالي سترهم، بأن يكون لها في جبل لبنان – وفي هذا الجبل وحده دون سائر الأرض العثمانية – كيان خاص بها يتحدى شعار التيوقراطية السائدة في طول السلطنة وعرضها.

واذا كنا قد صرنا نرى الانتماء السياسي الى الطائفة عيبا – وهو عيب فادح، ثم انه عيب فادح ومخجل، ثم أنه عيب مخجل ومنحط – وصرنا نسمع منافقين من رجال الدين من الطوائف المختلفة يزعمون أنهم غير طائفيين (!..) فمن الحق الإشارة الى أن الطائفية السياسية التي وجدت في لبنان، جاءت نتيجة مشروعة للطائفية السياسية الكبرى السائدة على السلطنة يومها.

مع التذكير ايضاً أن الشعار الطائفي لم يكن وقفا على العرب وحدهم، ولا على الشرقيين وحدهم، وان ملوك فرنسا كانوا يزعمون ويفخرون بأنهم ملوك المسيحية وهوذا العرش البريطاني، في أواخر قرن الطلوع الى القمر، ما تزال صاحبته تعتز بشعارها الصارخ أنها حامية الدين المستقيم، جرياً على سنّة آبائها وجدودها.

وعود على بدء:

قام الحكم الطائفي فينا دون أن يطلبه الشعب أو يسعى اليه. وقد رأينا أننا لا عهد لنا به إلا بعد نظام القائم مقاميتين. فالامراء الذين حكموا في الجبل قبله كانوا مسلمين (أو متظاهرين بالإسلام وكانوا دروزاً أو متظاهرين بالدرزية أو بالنصرانية)، وعاش آخرهم بشير الشهابي الثالث صريح المسيحية، طري العود بها ولا يفهم منها سوى الادعاء بأنه عليها!

ان الغرض من هذا العرض هو التنبيه الى أن الطائفية ليست من اختراع اللبنانيين، والى أن الطائفية راسخة في الصدور، والى أن كل عربي، هو في قلبه مثل اللبناني، مسلم أو مسيحي أو يهودي، ثم هو بالتالي سني أو شيعي، وهو كاثوليكي او ارثوذكسي أو قبطي أو بروتسطاني، الى آخر معرض الفسيفساء. والى أن الطائفية قائمة علناً أو تكتماً في الحكومات العربية، وفي صدور شعوبها. (ليس غرضنا أن ندل اليها وننكأ الجراح المندملة على زغل). إلا أننا نرى مع هذا الواقع أن باستطاعة العربي، وباستطاعة اللبناني قبله، أن يعيش مع مواطنه المعتنق ديناً أو مذهباً آخر عيشاً متآخيا متحابا، دون أن يتنكر لمذهبه اذا هو مؤمن حقا. ومن المؤكد أن الطائفية ذات القابلية الاستغلالية تزول في ظل نظام يطبّق التقدمية تطبيقاً كاملاً، فتمحو معطياته العقلانية النيرة جميع رواسب الطائفية والارتجاعية.

ان ذلك العهد المنكود خلفه عهد جديد، إلا أنه جاء آية مذهلة في غرائبه وتناقضاته. وامتاز بمستحدثات. ونذكّر من جديد بأنه عاش في ظل لبنان الجبل وحده، وضمن حدوده المضيّقة، واما طرابلس وبيروت وصيدا التي ضمت اليه، واكثر أقضية ولايتي بيروت وسورية التي أعيدت إليه، فكانت تحت الحكم العثماني المباشر، لا تنعم بنظام جبل لبنان الدولي الذي قالوا فيه: هنيئاً لمن له مرقد عنزه في جبل لبنان.

ولعل أهم مستحدثات الدستور الجديد، للبنان الجديد:

اولاً: ان حاكمه مسيحي غير لبناني، من الأقليات الكاثوليكية المحسوبة أقلية في لبنان، ولقبه: دولة المتصرف. وأول متصرف على لبنان الجديد، وهو أرمني كاثوليكي إسمه قره بت أرتين دافيثيان وعرف باسم داود باشا، اختار معاونيه من وجوه غير لامعة من أبناء الذوات الذين الغيت امتيازات بيوتاتهم، وقل نصيبهم من القراءة والكتابة، واختار معهم فئة قليلة من أبناء الشعب متعلمة. وورث الى جانبهم رجال القائم مقاميتين، وجلهم رجال تقوى وصلاح وأمية. وقد قلّل أخطار هذه الأمية ذكاء فطري.

ثانياً: ان القانون الأساسي (الدستور) لتلك الحكومة الفسيفسائية التركيب، ديموقراطيّ القاعدة، بكل ما لهذه الكلمة من مفهوم في زمانها. ولم يكن لأي بلد في الشرق كله دستور عصري مثله في تطوره، حتى جاز اعتباره نظاماً «ثورياً» بالنسبة للأيام التي وضع فيها، ومن حسناته:

(أ) انه، وحده، وليس من قانون آخر سواه في البلدان العربية، وفي كثير من بلدان الغرب، ساوى بين المواطنين جميعاً، نصّا وتنفيذاً، وذلك بالغائه امتيازات أصحاب الاقطاع إلغاء قانونيا. (تحقيقا للمطلب الرئيسي من مطالب ثورة الفلاحين).

(ب) انه، وحده، في الشرق أوجب الانتخاب الشعبي لجهاز التمثيل الشعبي: فنص عليه لاختيار شيوخ الصلح الذين حصر فيهم انتخاب أعضاء مجلس الادارة الكبير* من أبناء البلاد، وأعطى أيضاً اولئك الشيوخ بعض صلاحيات قضائية وادارية في قراهم.

(ج) انه حصر جميع وظائف الحكومة بأبناء البلاد وحدهم، موزعة على جميع الطوائف، ولم يكن شيء من هذا في أراضي السلطنة.

(د) انه انشأ «جيشاً وطنياً» من أبناء البلاد وحدهم، على اختلاف مذاهبهم، لحفظ الأمن وتنفيذ أحكام القضاء واجراءات الحكومة. وهذا «الجيش الوطني» الذي كان يرتدي لباساً عسكرياً خاصاً (زواف)، وكانت له موسيقاه تعزف أمامه، لم يكن له مثيل في الأقطار العربية.

(ه) انه نظّم المحاكم تنظيماً أوروبيا، بداية واستئنافاً، وكان قضاتها بجميع الدرجات من أبناء الجبل، مع مراعاة حقوق الطوائف في تعيينهم. اما اللغة فاللغة العربية لسان لبنان. ولم تكن المحاكم في جميع البلدان العربية سوى شرعية من اصطلاحات القرون القديمة. ولما نظمت استنبول القضاء في الممتلكات العثمانية جعلت لغته اللغة التركية!

(*) هو شبه مجلس نيابي له صلاحيات لا بأس بها تتناول جميع أجهزة الحكم، واهمها اطلاق درس موازنة الحكومة فلا تفرض ضريبة على الشعب، مهما قلّت، بدون موافقتهم.

ثالثاً: ان الحاكم الجديد الجالس على عرش أمير لبنان والملقب بدولة المتصرف[٢] لم يكن متصرفاً بشؤون البلاد تصرف الأمير، وانما هو مؤتمن على تنفيذ القانون الأساسي الدستوري المنطوي على ديموقراطية حقة.

ومع ديموقراطية ذلك القانون توطدت طائفية «ديموقراطية» قانونية.

رابعاً: كان لا بد للجبل من زعيم «وطني» وطني، يبدو شعاراً للبلاد خلفاً للأمير وللقائمقامين الأميرين الذين ولّى شعارهم الوطني. فهل يكون المتصرف زعيماً؟

ان المتصرف، يشبه الفتى العربي في شِعب بوّان، الذي قال فيه أبو الطيب: غريب الوجه واليد واللسان. لا يعرف احداً، ولا عصبية له في الجبل، حق العصبية المذهبية، ولا يقربه سوى رؤساء موظفيه، وسوى المزدلفين من الوصوليين.

فمن يكون الزعيم الوطني المنشود؟

ليس من زعيم يومها يؤيده الشعب، سوى البطريرك الذي يستطيع أن يملأ كثيراً من الفراغ.

فكان...

وأثبته الواقع هذا الزعيم المنشود.

وصار مرجعاً لبنانيا. فقال فيه كبير الزعامة الدرزية الجنبلاطية، الرجل النزيه الطيب القلب نسيب بك جنبلاط، كلمته الصادقة في كونه «هو الواجب أن يكون مرجع لبنان الوحيد. وان المتصرف نفسه لا يقدر أن يمثل هذا الدور لأن أيامه في المتصرفية محدودة.»

وبهذا الواقع المضاف الى تسلّم الموظفين المنتمين للطائفة المارونية قسماً كبيراً من الوظائف المستحدثة بموجب الدستور، لأنهم أكثر المواطنين عددا، وبالاضافة الى محصول خميرة المدرسة المارونية في روما بما كان من مدارس ومثقفين، وبالاضافة الى حماية فرنسا كاثوليكيي المشرق -

والبطريرك الماروني أعلاهم كلمة، عمليا، لأنه امنعهم داراً – ازداد المجتمع الماروني شأنا. وبدأ يظهر الفارق بين أصالته ووصوله، حتى بدأ يختل توازنه. انه في نشأته مجموعة زهاد ومتقشفين ورهابين وفلاحين متوارين في ثلوج القمم ومغاور الاودية، بعيدين عن السبل المطروقة، لا يهمهم من الحياة سوى حرية الإيمان، وهم على استعداد دائم للموت دفاعاً عنها. وما زخرف الدنيا سوى هباء لا يخطر ببالهم. واما اليوم فبدأت الوصولية تذرّ قرنا عندهم، وسيظهر فيهم نفعيون ومنافقون تحت شعار الديموقراطية التي يجهل الوصوليون معناها وأحكامها.

ونشأ من اندفاع القنصلية الفرنسية في بيروت، بتأييدها المتزعمين المار ذكرهم، وباعطائها بعض معوزي العائلات المستورة منحاً مدرسية لاكمال تحصيلهم في المدارس الراقية، وبتوزيعها على كهنة القرى حسنات قداديس تساعدهم على تخفيف ضيقهم – نشأ من ذلك كله، ومن سواها من الخدمات، ان امتدّ نفوذ القنصلية في المجتمع الماروني كله، وصار الموارنة يلمسون لمس اليد أن فرنسا تحميهم، وتعطف عليهم، فصارت في نظرهم، ويقينهم، وفي نظر الواقع، «الأم الحنون» لهم. وما إن يزور قنصلها إحدى قراهم حتى يقرع جرس الكنيسة وتزحف القرية على بكرة أبيها بقيادة كاهنها، يتقدمها حامل الصليب وضاربو الصنج والناقوس، لاستقبال الزائر الحبيب*.

(*) لعل من أبلغ مظاهر ذلك الحب، عند الشعب الساذج والوفي، ان الانبراطور الألماني غليوم الثاني زار سنة ١٨٩٨ بيروت مع زوجته في طريقهما الى الأراضي المقدسة بفلسطين، فأمر السلطان عبد الحميد جميع رعاياه في البلدان التي يمر بها صديقه الكبير مع زوجته أن تحتفل باستقبالهما بأبهج ما يكون الاحتفاء. فبادرت الى مخيلة اللبنانيين ذكريات حرب السنة السبعين التي انتصرت فيها الإمارات الالمانية على «امهم الحنون»، وغصوا بأمر السلطان واوامر وزرائه وولاته ... وامتثلت مدينة بيروت واقامت أجمل زينة. وفيما الإبالات تتصاعد أنوارها في مختلف احيائها، بدت جبال كسروان مظلمة. واظلمت بيوتها، لأن الزائر «لم يكن صديقاً، ولا حامياً...» – روى هذه الحادثة الحقيقية صحافي فرنسي كان في بيروت يوم زيارة العاهل الألماني وزوجته، في كتاب عنوانه: «الشرق، بسرعة الطير، دفتر حاج»: ص ٣٣١ و ٣٣٩.
واقرأ في «حسر اللثام عن نكبات الشام»: ص ١٢٨، عن استقبال الموارنة قنصل فرنسا.

وظهر بعد حرب القرم من القناصل الاوروبيين، ومن الفرنسيين بالتخصيص، صلف وسوء تصرف مع أبناء البلاد، وضيقوا على موظفيها أنفاسهم وصاروا يراقبون سلوكهم غير القانوني، ويحاسبونهم على الكبيرة والصغيرة، مسلحين بالامتيازات الأجنبية وبحاجة السلطان الى دولهم.

وكان الموظف التركي يتبرم بمضايقة القناصل له، وهو عارف خطأه ومدرك سوء عاقبته، فصار ينتقم منه باثارة الجماهير الاسلامية على مواطنيها المسيحيين، بأنهم عمال الدول الاوروبية الكافرة عدوة السلطان. وصارت الفرقة تزداد هوة بين الأخوة أبناء البلد الواحد.

وحصل في العهد المتصرفي الجديد شيء جديد:

ان تكاثر المدارس في القرى المسيحية عامة، والمارونية بالتخصيص، أتاح للمتعلمين الموارنة أن يفتشوا عن تاريخ طائفتهم: من هم؟ أبطالهم، رهبانهم، مقدموهم، فلاسفتهم، ادباؤهم. ما قصة الآلام والاضطهادات التي حلت بهم وما سببها؟ الخ... وراح اولئك «المؤرخون» يكتبون تاريخ طائفتهم وجلّهم عمل بنزعة عاطفية أكثر منها موضوعية، وانتشرت «تواريخ» فيها طابع حماسي. وتحركت «موجة مارونية» ذات وجه غربي مثقف، جعلت أصحابها يعتزون بأن لهم تاريخاً جليلا. وكانوا في نواح كثيرة على حق. وستكثر مع مر الأيام، أعمالهم الطليعية، ومآثرهم الثقافية والوطنية القومية، هنا وفي المهاجر حيث الحريات مرفوعة الرايات. وستعلو اسماء أحرارهم ومفكريهم وعلمائهم، فيحسب المجتمع الماروني أنه صار «شيئاً» غير عادي في البقعة الصغيرة التي يعيشون عليها من العالم الواسع.

خامساً: قُيدت أرض الجبل تقييداً دستورياً ودولياً ضمن حدود ضيقة جداً، ومحصورة جدا، بعد أن كان أمير الجبل القوي يغزو ويوسع في مساحته، ويحتل الحصون والمدن والبقاع.

وبهذا التضييق المحصور شعر جميع اللبنانيين، جميعهم، بأنهم مسجونون، وبأن في قانونهم الأساسي نقصاناً، وبأن لبنان الجديد في وضعه هذا يستحيل العيش فيه براحة وطمأنينة واكتفاء، وبأن حاجاته الحيوية ومطالبه الضرورية كثيرة، فخلعوا أبواب الحصار الى المهاجر، وهب احرارهم الى بسط أمانيه الوطنية. ونشأت «المسألة اللبنانية» وصارت هذه المسألة جزءاً حسّاساً من معضلة الشرق.

وكان المدهش في ذلك العهد المتصرفي أنه اعتُبر العهد الذهبي في حياة لبنان، منذ وجد لبنان. وقال جيرانه في بيروت وطرابلس وصيدا وأراضي الولاية العثمانية: «هنيئاً لمن له مرقد عنزة في جبل لبنان!»

يوسف كرم رائد الاتحاد العربي

بخيبة الأمل، ولكن بجرأة ورجولة، قابل اللبنانيون مصيرهم النكد الذي فرضته عليهم الدول. وهبّوا يكدّون في أرضهم الضيقة[1] وجبالهم الجرد، ويفتّتون صخورها ليجعلوا منها جنة يجري فيها الماء العذب وفيها من كل فاكهة زوجان وسيغادرون وكورهم مغتربين تحت كل كوكب طلباً للرزق والحرية والمعرفة. وسيسبقون شعوب الشرق الى الحضارة والرقي.

وعلى إقبال كثيرين من مثقفيهم على الأفكار النيّرة والمبادىء التقدمية سيبقى معظم الموارنة منهم محافظين على التفافهم حول زعيمهم الوطني – «غبطة سيدنا البطرك» – وعلى إجلالهم لمقامه، وقد نقشوا فوق رتاج صرحه في بكركي: «مجد لبنان أعطي له».

وستعصف الديموقراطية بلبنان عصفاً فوضوياً يقلب الموازين والمكاييل، فينحرف الكثيرون من الحديثي النعمة، وتسكرهم مدنيّة الدولار[2]، وتبدأ عندهم عقدة التعاظم، وتسكرهم الزبيبة، ويستفزهم الغرور الاهوج...

ولكن، لا نستبقنَّ الحوادث. ولنتابع تسلسلها التاريخي، فمعرفتها تقربنا الى المهجر لرؤية جذور الأزمات التي هزت لبنان بعد استقلاله الكامل.

ان أول صوت دوّى بعرض «المسألة اللبنانية» على العالم المتمدن كان صوت يوسف كرم[3]. والوثائق الكثيرة التي نشرت عنه بعد وفاته – دون النظر الى الكتب والمؤلفات والسير التي كتبت عنه بدوافع المحبة والتحمس والهوى – تظهره بطلاً قومياً فريد الجرأة والنزاهة. ولولا سرعة انفعال في

كثير من اجراءات رافقت أعماله، ولولا تربية اقطاعية غذت فيه حب التفرد بالتقرير والتنفيذ، لجاز القول بأنه لم يعش بطلاً لبنانياً فحسب، بل بدا رائداً قومياً عربيا.

وقضى يوسف السنين الطويلة متنقلاً من بلد الى بلد، في الشرق والغرب، ساعياً الى تصحيح أخطاء البروتوكول الدولي الذي محا امتيازات وطنه السابقة، وخنق معالم استقلاله، معترضاً على عبث الحكام بما بقي لحكم لبنان من مظهر وطني، فوضع تقارير مسهبة وصريحة وجريئة في ذلك، تعتبر بواكير المساعي القلمية في سبيل المسألة اللبنانية*. وسيقتفي أثره في مسعاه المحمود لبنانيون كرام آخرون، نسيهم أبناء لبنان، ونسيهم الذين قطفوا ثمار جهادهم وصاروا «شيئاً» في لبنان المستقل. وهذا العقوق رفع رأسه كثيراً بعد استقلال ١٩٤٣، إذ استأسدت الثعالب...

ان جهاد يوسف كرم، الذي امتاز بلمعات وطنية، لا يجوز بسطه وحده دون الكشف عن عروبته الرائدة والنادرة، في زمانه، ودون الوقوف عندها وقفة جادّة ترتبط بالعوامل الرئيسية للجذور التي يبسطها هذا الكتاب. واذا لم يكن من شأننا التأريخ ليوسف كرم، إلا بقدر ما كان منه ذا صلة بموضوعنا، فان عروبته في ذلك الماضي تستحق التحليل. وهذا التحليل، في موضوعية بعيدة عن الغرض، يساعد على توضيح رؤية الجذور التي نفتش عنها لنستطيع فهم وضعنا ومأساتنا فهما صحيحا:

نشأ يوسف كرم في بيت ماروني، ومحيط ماروني، شديدي التمسك بالدين المسيحي، لا يهادنان فيه ولا يحابيان. وعاش ابن ذينك البيت والمحيط طوال حياته عيش الراهب المتبتّل الورع، لم يعرف عنه أنه اقترف

(*) المؤرخ المغفور له الخوري اسطفان البشعلاني وضع كتاباً كثير الفوائد والمستندات والمراجع عن «لبنان ويوسف بك كرم» نشر فيه بياناً بالرسائل والتقارير والمذكرات التي كتبها المجاهد في سبيل وطنه وهي توازي مجلدين ضخمين واكثر: ص ٦٣٦.

خطيئة ضد الناموس، ولا ضد وصايا الكنيسة، يصلي راكعاً، بالعربية والسريانية، ويصوم جميع الصيامات، ومحيطه الشمالي منطوٍ على نفسه لا ينفتح للاتصال بسواه، فلا يحتك بما هو في خارج دائرته. ويجوز القول عنه إنه المحيط المقفل اقفالاً شبه كامل. ومن هنا ننطلق الى عروبة يوسف كرم:

ان العروبة في ذلك الزمان لم تكن معروفة بمعناها القومي، ولا السياسي، وانما هي مرويات خلقية وومضات أدب وخطرات شعر ترتل، يومها، في بعض الأديار والمدارس المسيحية، في الجبل وليس في المدن. فالمسلمون العرب كانوا شعباً مخدراً بمورفين الخلافة، وهي أغلى ما عندهم في الحياة الدنيا. ولم يصل الينا قبل الذي نرويه هنا نبأ عن مسلم عربي بأنه تحدّى الحكم العثماني في سبيل ابتعاث الحكم العربي، أو بشّر بتعاليم القومية العربية في سبيل بعث الأمة العربية، أو سعى، وإن سرّا، الى تنظيم قومي عربي لانتشال بني جنسه من قاع البحر.

وفجأة، وبدون أي إعداد، يسمع المشرق العربي صوت شاب ماروني من لبنان يلي قائم مقامية النصارى ساعة طغيان الأتراك وبطشهم، فيذيع منشوراً على سكان إمارته يدعوهم الى تعلّم اللغة العربية:

«وكم نتمنى أن نرى أبناء وطننا والأجانب الذين يرغبون خير البلاد يتفقون على تعليم الأبناء ما يجهلونه بلغة البلاد أي العربية (...)»

ولم تكن دعوة القائم مقام المسيحي لتعلم اللغة العربية حاجة يقتضيها التنظيم الاداري للحكومة بقدر كونها نابعةً من إيمان يوسف كرم بالحضارة العربية التي كان الشعب العربي المسلم يجهلها، ويجهل الافصاح عنها في ذلك الزمان، والتي لم يشر اليها حاكم مسلم عربي قبل يوسف كرم القائل:

«... والذين يدعون بأنه لا يمكن التمدن تحت اللغة العربية ربما كانوا لا يعرفون مقدار فضل هذه اللغة. وقد فاتهم أن تمدنها أقرب وأسهل وأفعل من تمدن أبناء العرب تحت لغات أجنبية متنوعة، وإلا يلزمنا الحكم بكل غم وأسف بأنه قد قُدّر للبنان أن يكون بابل اللغات والعادات والمشارب كما هو بابل الأديان والأجناس والمذاهب.»

«يوسف بك كرم قائم مقام نصارى لبنان»، ص ١٩٦.

وتمر على ذلك النداء الرائد عشر سنوات، فنسمع صاحبه، وهو في وضع جديد معاكس لوضعه الاول، انه في المنفى، يعتز ثانية بعروبته، وبفضلها على الحضارة. وذلك في حفلة راقصة أحياها القنصل الروسي العام في جزيرة كورفو اليونانية ودعا اليها ممثلي الدول الاوروبية وكبار القوم. وكان بين المدعوين السفير الألماني لدى البلاط اليوناني ويوسف كرم العائش في الجزيرة. وفي حديث بين هذين الغريبين قال السفير ليوسف:

– «ان الشعب التركي هو الشعب الاول المتمدن في العالم، لأنه عندما استولى على اسبانية أسس التمدن في أوروبة (كذا).

واجاب يوسف فوراً:

– اني أشكر لك نيتك الطيبة، يا فخامة السفير، ولكن اسمح لي أن أعيد على ذاكرتك ان المسلمين الذين استلوا على اسبانية كانوا من الأمة العربية الشريفة.»*

وتمر سنوات سبع أخرى وتثور الامارات البلقانية على الحكم العثماني الذي كان يرهقها، فنهض قيصر الروس الى تأييد الثوار علناً، بعد أن

(*) ترجمها سمعان خازن عن «مذكرة يوسف كرم الى حكومات اوروبة وشعوبها»: ص ٤١ و ٤٢
– («يوسف بك كرم في المنفى»: ص ٩٣).

حرضهم سراً، ووقفت حكومتا باريس ولندن ترتقبان الساعة لتحقيق مطامعهما في تربة الرجل المريض. في تلك الأزمة الخطرة ينظر يوسف كرم متشائماً الى مستقبل السلطنة عامة، والى مستقبل لبنان وسورية والعالم العربي بالتخصيص، فيسرع الى مكاتبة صديقه الأمير عبد القادر الجزائري في دمشق مقترحاً عليه جمع شتات القبائل العربية بتأليف «كونفدراسيون» عربي لانقاذ الجنس والوطن».

والكتابة التي تتحدث عن ذلك المشروع الاول من نوعه في تاريخ النهضة العربية الحديثة لم تدرس درساً علمياً يوضح تلك المرحلة من حياتنا القومية ايضاحاً كاملاً، ولكنها تثبت، بايضاح كامل، ان يوسف كرم كان رائد الاتحاد العربي، والمخطط الاول لجمع العرب*.

ففي رسالة منه الى الأمير عبد القادر يقول يوسف فيها، بعد مقدمة طويلة، ان الحكومة العثمانية «لا همّ لها إلا اثارة الفتن بين شعوب الأقطار العربية المختلفي المذاهب، تلك الأقطار التي طرحتها تحت رحمة كل عابر طريق خوفاً من أن تطالبها بحقوقها...»

بعد مقدمة طويلة يقول يوسف لعبد القادر:

«... وحتى اتمّم واجباتي وجهودي حتى النهاية، اتوسل للذات الكريمة ألاّ تدعو الفرصة الحاضرة تذهب بدون جدوى، وان تعتمدوا على خلوص نية كل ذي بصيرة من أبناء الجنس العربي، ولو مهما كانت مذاهبهم متنوعة.

(*) الخوري اسطفان البشعلاني في كتابه: «لبنان ويوسف بك كرم» نشر رسائل تتعلق بهذا الموضوع ارسلت من لبنان الى كرم، وفيها اشارات الى اتفاق سري بينه وبين عبد القادر الجزائري. (ص ٥٤٠ وما بعدها).
وفي كتابه: «يوسف كرم في المنفى» زاد سمعان خازن على ما نشره البشعلاني خمس رسائل أخرى نقلها عن الأصل المكتوب بخط كرم (ص ٣٤٦ وما بعدها) وهي مجموعة تصلح نواة لدرس تلك المحاولة العربية الرائدة.

والاعمال التي أخالها جوهرية هي أن ترسلوا فخامتكم معتمدين ليخابروا حكومات وشعوب اوروبا، بما يناسب أن تُخابر به، كل واحدة على حدة، بما يلامس تنظيم الجنس العربي على قارعة طريق الحقوق الأدبية والواجبات البشرية والحرية الداخلية، الأمر الذي تعترف به وتعتبره اوروبا بأسرها.»

ثم ترسلون معتمدين يخابرون بالموضوع ذاته سائر القبائل العربية. وان شئتم يمكنكم ايضاً أن ترسلوا معتمداً يخابر الحكومة العثمانية بالاتفاق مع الجنس العربي، مؤكداً لها استعداد الأقطار العربية لمساعدتها بما يوافق الحق المبين، ورغبتها في تأييد الحقوق المؤسسة على العدل المفروض من الناموس الأدبي والوصايا الإلهية. فان وافقت الحكومة العثمانية على ذلك فيزداد التوفيق توفيقا. وإلا فالأفضل أيها المولى العظيم أن تنزعوا من الحكومة العثمانية الأقطار العربية التي تتوق بالطبع لاحياء سطوة وحقوق الجنس والوطن، من أن تشاهدوا سقوط جميعنا بوهدة الاحادة عن طريق الدين والدنيا معا.

ان فخامتكم أحق وأولى من غيرها بالإمارة، وذلك نظراً للأصل الشريف والمقام الرفيع، ونظراً لمقتضيات الظروف وأحكام العناية الإلهية، لأن السلطة قد غرقت في لجج الديون المتوجبة للأجانب، ولم يبق للجنس العربي سبيل للنجاة من غوائل أرباب المطامع إلا باعطاء القوس راميها والإمارة مستحقها. باستنادي الى هذه الحقائق الواضحة أضع ثقتي بحكمة فخامتكم، بل برأفة من له السماء والأرض، مكرراً التوسل أن تعتنوا قدر جهدكم بتحسين السياسة وتلطيف ما قد اضافه بعض العلماء الى الشريعة السنية بما يلامس المعاملات البشرية. وهكذا فإن سائر أبناء الجنس العربي على اختلاف مذاهبهم يخدمون ولا شك حكومة الإسلام وإمارة فخامتكم بقلب كامل ونية خالصة... الخ.

وفي رسالة ثانية، كتب يوسف كرم الى عبد القادر الجزائري، يقول: سر مودوع لأمانة وشهامة فخامتكم، سيدي ومولاي الأفخم، بينما حكومة روسيا منهمكة بالحرب الحاضرة، فان حكومتي فرنسا وانكلترة، لاعتقادهما بسقوط الحكومة العثمانية القريب، قد هيأتا الوسائل الآيلة الى تجزئة الديار العربية الى أقاليم تلجأ الى حمايتها، ولحمل هذه الأقاليم على رفض حماية الحكومة الروسية، خوفاً من أن يجمع الجنس العربي صفوفه ويصبح حكومة واحدة. والسبب في ذلك أن حكومتي فرنسا وانكلترة تخشيان من أن يمتد فيما بعد اتحاد الجنس العربي فينزع منها الجزائر وبعض أقاليم الهند. لذلك فهما ترغبان في استعبادنا جميعاً (...)

ثم اذا رأت فخامتكم أن تعين على الأقاليم العربية أمراء مستقلين، يدفعون اليكم أموالاً مقررة ويوحدون صفوفهم تحت رايتكم ضد كل تعدّي، قبل أن تتداخل بأمورنا الدول الأجنبية. فذلك كما يتراءى لي هو أحسن سياسة. بل هو نفس السياسة التي قد استخدمها المسلمون منذ فجر نشأتهم (...)

غير أنه بما أن الحكومة العثمانية قد عزمت على نزع الاستقلال من الأقاليم العربية، واخضاع قوانينها وشعوبها الى مطامع ذواتها (متزعميها) المتشاغلين بما لا حاجة لايضاحه الآن، فقد تعاكست بذلك المقاصد والمصالح بين الحكومة الرئيسية والأقاليم التابعة لها، فاستطاع أعداء السلطنة أن يستخدموا ضدها ابناءها، بينما الاستقلال الحقيقي يوجب على السلطة العليا أن تجعل جميع مقاطعاتها أعضاء جسد واحد مرتبطين بالحقوق والمصالح (...)»

ويختم صاحب الرسالة كلامه بأن التباطوء يسبب ضياع المنافع المنشودة، وهو يرى أنه «لدى سقوط الحكومة العثمانية يتلقانا الأجانب بالأرث عنها، ولا يعود يستطيع الجنس العربي أن يتحد تحت راية واحدة (...)»

وفي منشور الى بني قومه العرب، ملأه يوسف كرم آراء تصوفية، غيبية وتدينية، على غرار مزامير داود، ورصّعه بحكم ومواعظ خلقية وايمانية وقومية عربية لا عهد للناس بأسلوبها، دعا صاحبنا قومه لأن «يصافح بعضهم بعضاً بالمحبة والسلام النقي، ليكونوا أسياداً في وطنهم وإلاّ فهم عبيد لعبيد الكافرين (...) أما حكومة الأستانة التي اتخذت بحق اللبنانيين صفة مشتكٍ وجلاد معاً (...) فأجيبها: ان عساكرها قد استلمت أسلحة النصارى بدير القمر، باسم الحكومة، وذبحت هي وبعض جهلاء الدروز على باب قشلة العسكر ١٢٠٠ شاب نصراني. وقد شاهد الدروز جريان الدم اللبناني وسمعوا هديره حتى صاحوا قائلين: يا ليتنا ذُبحنا مع أهل وطننا، ولا فعلت الدولة على اسمنا هذا الشر العظيم. فلتسكت اذاً هذه الحكومة الظالمة!...»

ولعل من الحق التعقيب على ذلك المنشور التصوفي، القومي، الثوري، بأن كاتبه استطاع أن يفسر الجهاد، ويبسط الدوافع الخلقية والدينية اليه، دون الانتساب الى أي مذهب، بأحسن وأعقل مما بسطها به الحسين بن علي شريف مكة في منشور ثورته «القومية» بعد أربعين سنة.

واثمر جهاد كرم في حقلين: في عرضه المسألة اللبنانية على عواصم أوروبة، وفي فتحة عيون مواطنيه. واثمر في دعوته الى اتحاد عربي*.

كـلـنـا واحـدٌ لـنـا وطـن فـر ... دٌ وإن عُـددت بـنـا الاسـمـاءُ

انما نحن هيكل واختلاف الـ ... إسـم وهـمٌ فـكـلـنـا أعـضـاءُ

نجيب الحداد

(*) تكراراً يتمنى المؤلف أن ينهض عربي مخلص من شبيبتنا لدرس ذلك المسعى الكرمي الجزائري الى الانبعاث القومي: لقد وقف عبد القادر في وجه الاستعمار الفرنسي في الجزائر بدافع من دينه التحرري. وبهذا الدافع أيضاً وقف وقفته الاسلامية التاريخية دفاعاً عن مسيحيي دمشق في فتنة ١٨٦٠.

الى عقيدة لبنانية متمدّنة

قام بروتوكول استقلال الجبل على قاعدة ديموقراطية عدّت شبه تقدمية بالنسبة الى زمانها في الشرق، فقد نص دستوره على اجراء انتخابات شعبية، بالمعنى الصحيح الكامل لهذه الكلمة، في أجهزة الحكم الادارية. وهذا النظام الجديد الذي حمت اوروبة نصوصه وصيّرته شبه مقدس لا يمس إلا باتفاق جميع الدول، كان من البديهي أن يقود أصحابه الى التقدم، وان تهيب الظروف ببعضٍ منهم، من أرباب المصالح المتقاربة، والغايات المتشابهة، وجماعات الأفكار الجانحة نحو مبادىء الديموقراطية، الى التعاضد والتعاصم للوصول الى الحكم، أو للمطالبة بتطوير أجهزته لاستكمال الاستقلال: فمشائخ الصلح، مثلاً، ينتخبهم الشعب مباشرة، (وهم باكورة هذا الانتخاب الشعبي في العالم العربي) قد أعطاهم الدستور المذكور صلاحيات ادارية وقضائية لا بأس بها، وأعطاهم حق انتخاب أعضاء مجلس الإدارة الكبيرة، كما جعل هذا المجلس رقيباً على موازنة الحكومة، وصاحب المشورة للحاكم، وصاحب المقام الاول بعده، فمن الحتم أن يؤدي ذلك التطور السياسي والاجتماعي الى انشاء الأحزاب، سواءً أكان ذلك لأجل تأييد مبادىء الديموقراطية أم لأجل الوصول الى الحكم.

وكلامنا على الأحزاب، هنا، ينطبق على تلك التي عملت في تيار «المسألة اللبنانية» وحدها، ولم تشترك في مسعى آخر.

اننا في تفتيشنا ومراجعاتنا وقتاً طويلاً لاستقصاء جذور التطور اللبناني لم نصل الى معرفة أحزاب منظمة تنظيماً انضباطياً عملت لأجل المسألة

اللبنانية قبل إعلان الدستور العثماني. والمرجح في اعتقادنا أنها لم تكن. ولكننا عرفنا تكتلات ضمت متزعمين ومستزلمين، أوجدها أصحابها لمماحكة المتصرف، أملاً بالوصول الى منصب يبتغونه، أو أوجدوها للشغب على المتصرف ، للنكاية فيه، لأنه أقال أقطابها من وظائفهم[1] وجاء بمنافسيهم المحليين الى الحكم، فحقد عليه المقالون وتكتلوا في «حزب» قد يكون إسمه براقاً لإقلاقه.

وذلك النوع من التكتلات عرفه المجتمع اللبناني في عهديه القديم والجديد طوال أكثر من قرن وحتى اليوم ما تزال دوافعه وأساليبه غير الانضباطية، وغير الإديولوجية، بالتالي، تتمثل في المجلس النيابي، وفي الصالونات البورجوازية، والدكاكين الطائفية، ولها شعارات ديموقراطية وإصلاحية وثورية، ويا للأسف!

غير أن تلك التكتلات لم تكن وحدها في تاريخ متصرفية البروتوكول: فقد عرف لبنان يومها تكتلات من نوع آخر أوجدتها حاجات شعبية وطنية واتخذت طابعاً تحزّبياً خطيراً تطاير عنقه حتى كسر العظم. وقد سجل التاريخ ثلاثاً منها كانت أهمها إطلاقاً:

الاولى: معارضة يوسف كرم لداود باشا، المتصرف الاول، وهي ثورة وطنية بمعناها الواسع على ما مر بنا.

الثانية: معارضة بضعة أساقفة مارونيين للمتصرف رستم باشا الذي انحرف عن التقيد بنصوص البروتوكول وبروحه. وقد كشفت تلك المعارضة عن حقيقة «محبة» السياسة الفرنسية للاكليروس الماروني*.

(*) انظر: «عهد المتصرفين في لبنان» بقلم المغفور له لحد خاطر: ص ٦٩ وما يليها.

الثالثة: معارضة طليعة الشبيبة الاستقلالية «الثورية»، بقيادة الزعيم الديموقراطي سليم عمون ضد المتصرف يوسف فرنكو باشا الذي كان يميل الى الطغيان.

فتلك المعارضات الشعبية الثلاث التي اتخذت شبه طابع تحزبي في سبيل غايات وطنية اكيدة، قد يجوز القول عنها إنها نواة الحزبية بمفهومها القريب من مسماها الليبرالي. اما السبب الأكبر في تلكؤ اللبنانيين عن تأليف الأحزاب الانضباطية فيرجع الى انغماس سكان المتن والشوف في «الحرتقات» السياسية، بالغرضية الجنبلاطية أو اليزبكية الاقطاعية الجذور[2].

وكان بديهيا أن لا تطول أساليب ذلك التكتل العشوائي. فانتشار المدارس، وتنامي الاغتراب، وتكاثر الإرساليات التبشيرية – على وحدة مراميها وتعدد ألوانها واختلاف لغاتها – واحتكاكها بالمواطنين ثم امتزاجها بهم، وارتياد الأجانب الكثيري المشارب والغايات بيروت والجبل كل، كل هذه أوجدت عوامل منوعة ومتفاعلة ساعدت على تبلور المسألة اللبنانية. وهذا التبلور ساعد على وضع المدماك «المتمدن» الاول في بناء عقيدة تلك المسألة، مستقياً مبادىء القوانين الدولية والأسانيد التاريخية والبراهين الجدلية، مما دعا إلى تنظيم الأحزاب الانضباطية ذات البرامج الوطنية الواضحة، على غرار الأحزاب الوطنية في أوروبة.

وبذلك التطور المرحلي اجتازت «المسألة اللبنانية» طورها البدائي الى صيرورتها «القضية اللبنانية» التي صارت تشغل عواصم الدول فمن البديهي أن تعنى الصحف العالمية بمعالجتها. وهكذا صارت «المسألة اللبنانية» قضية، وتستحق أن تكون موضوعاً «داخلياً» من مواضيع الصحف الكبيرة والمجلات الشهيرة، باعتبار هذه القضية فرعاً من المعضلة الشرقية، كما كانت القضية المصرية يومذاك، وباعتبارها إحدى القضايا الخطرة، ذات المزالق، التي تتشابك فيها تدخلات الدول للحفاظ على «حقوقها» «وامتيازاتها» في البلد المستضعف.

هوامش واستدراكات

من ظلام الى ظلام

(١) بلاد الروم: اسم اطلقه العرب على الانبراطورية البيزنطية وهي الانبراطورية الرومانية الشرقية وكانت عاصمتها القسطنطينية (استنبول)، وفيها نزلت آية «غلبت الروم» فمثلت عطف الإسلام عليها لأنها مسيحية صاحبة كتاب تحارب الفرس الوثنيين. وكان للانبراطورية البيزنطية شأن خطير في مرحلة من مراحل تاريخ بلادنا، فقد ضم اباطرتها الى دائرة نفوذهم امارة الغساسنة وهؤلاء هم عرب مسيحيون في الشام وقد قواهم البيزنطيون واستخدموهم لتنفيذ سياستهم في منافسة ايران الطامعة ابداً بالعالم العربي. والامارة الغسانية تعتبر أساس الدولة الاموية في نشأتها. وكان من سوء مصير بيزنطية ان بَطِرَ اصحاب الشأن فيها وعربدوا وتفرقوا شيعاً واحزابا فهاجمها الترك غير مرة حتى احتلّوها (١٤٥٣) وتوطنوها وورثوا عظمتها وخيراتها، ومنها انطلقوا غزاة مع كل ربح وحكموا بلداناً جديدة وشعوباً كثيرة في الشرق والغرب. ومع كونهم مسلمين فقد ظلّ الكتّاب العرب يسمون بلادهم ببلاد الروم، ويسمون التركي رومياً.

اما السلطان سليم فهو حفيد السلطان محمد العثماني فاتح القسطنطينية ومحطم العرش البيزنطي بانياً مكانه السلطنة العثمانية. وقد عرف حفيده السلطان سليم بالقسوة والغدر وكراهيته لإيران خاصة وللشيعة عامة. وهو ما ولي العرش إلا بعد آن تآمر على والده مع الجند فخلعوع واماتوه مقهوراً. وما مرت السنة الاولى من حكمه إلا وكان قد فتك بجميع أخوته وألحق بهم ابناءهم. استأصلهم جميعاً لئلا ينافسه أحدهم على العرش. توفي سنة ١٥٢٠ (اقرأ أخباره في «تاريخ الدولة العلية العثمانية» لمحمد فريد بك: ص ٧٢ وما بعدها).

(٢) السلطان الأشرف قانصوه الغوري:
شركسي جلب الى مصر واشتراه سلطانها الاشرف قايتباي. خدم سيده بصدق وحزم فأعتقه. تسلطن بعد فتنة دموية بين زعماء المماليك. هبت في وجهه ثورات كثيرة أهمها - قوميا - ثورات العربان الضاربين في وادي النيل في عزلة عن المدن والمعتبرين أن مصر بلادهم وليس المماليك سوى دخلاء يحكمونها بالسيف.
اساء موظفو الغوري معاملة الفلاح المصري فضربوه وعذبوه وارغموه على تأدية الضرائب الفادحة سلباً واغتصاباً، واذا فرّ من وجههم اعتقلوا نساءه وأطفاله وأوسعوهم ضربا.
ثار على الغوري شريف مكة ليرفع حكم المماليك عن الحجاز ففشل، واقتفى مشايخ العربان في مناطق كثيرة ولم ينجحوا.
موظفوه في حلب كانوا آية الظلم «فعاثوا فيها فساداً، ونهبوا بيوتها واسواقها، واستباحوا نساءها وغلمانها. ونبذوا طاعة قادتهم، وكانوا شر دعاية للغوري ودولته.» - محمود رزق سليم في «الأشرف قانصوه الغوري»، ص ١٣٥.
قتل السلطان قانصوه (١٥١٦/٨/٢٥) في معركة مرج دابق وهو يرد هجوم الجيش التركي الذي قاده السلطان سليم العثماني، عن حلب. بمصرعه انتهى حكم المماليك في هذه البلاد وبقيت ذهنيته ومواريثه. وخلفه حكم العثمانيين.
(٣) حمزه سباط العاليهي: فقيه ونسابة ومؤرخ درزي ولد في النصف الثاني من القرن الخامس عشر في قرية عاليه.
ابوه فقيه اسمه شهاب الدين احمد بن عمر بن صالح بن ابي المواهب سباط العاليهي. لا يعرف عنه سوى ما قاله ابنه حمزه في تاريخه: «كان من التلاميذ (تلاميذ الأمير السيد) ومعلم غالبهم. وهو الذي اقرأهم القرآن الشريف. وكان فقيهاً هماما، فطنا بارعا، ذا هيبة وهبة. علّم جماعة كثيرة وذاع خبره بالتعليم وتأديب الاولاد. وكان إمام

الأمير جمال الدين عبدالله (الأمير السيد) وخطيب جامع قرية عاليه. وكان له صوت شجي في الاسحار، في التسبيح والتذكير، اذا ابتدأ بتسبيح أو تذكير أنصتت رؤساء مؤذني المدن الى حسن صوته. لم يسبقه الى فنه أحد في البر. وقد ندر امثاله في الأمصار الكبيرة. وكانت وفاته سلخ شوال من سنة ٨٨٧هـ.» (١٤٨٢/١٢/١١).
اما ابنه حمزة سباط فترك تاريخا في جزءين عنوانه «كتاب صدق الاخبار» جزؤه الاول مفقود، وحتى الآن لم يصل اليه الباحثون عنه. والجزء الآخر مخطوط في بضع نسخ موزعة في الشرق والغرب، يحتوي في مواده على حوادث جرت في لبنان ولم يشر اليها المؤرخون السابقون، كما يحتوي على ملخص لما رواه صالح بن يحيى التنوخي في تاريخه عن انسبائه بني بحتر التنوخيين امراء بيروت والغرب، وقد أضاف اليه حمزه بن سباط ما سمعه من والده ومعاصريه عنهم. وهنا كانت قيمة تأريخ ابن سباط لشؤون لبنانية مسكوت عنها.
وفي المكتبة الوطنية بباريس نسخة من هذا المخطوط بخط جرجس موسى القسيس المعادي (١٦٧٠)، منها أخذنا ما نشرناه عن سيرة الأمير السيد بعنوان «ولي من لبنان».
توفي المؤرخ حمزة سباط سنة ١٥٢٠، بعد أربع سنوات من الاحتلال التركي لبلاد الشام، ولبنان في جنوبيه يحكمه الأمير فخر الدين المعني الاول «امير الأشواف».
(٤) بنو حماده: ان في لبنان ثلاث أسر مختلفات المذاهب تحمل هذا الاسم، قامت فيه بدور سياسي وصدارة. ليس بين واحدة وأخرى أية قربى سوى التشابه اسماً لا نسباً، فهي في التنسيب متباعدة جدا. اما زعم بعضهم، استوجاها، أو لمقصد وصولي أن الأصل واحد فخطأ مبين.
أ - ان بني حماده السنيين مصريو الأصل: نزح جدهم الاول عبد الرزاق حماده الى بيروت في أواخر القرن الثامن عشر وفيها أقام وانجب. وصار لابنائه وجاهة ولأحفاده زعامة بيروتية محترمة. ومما

يذكر عنهم أنهم لم يرحبوا وهم المصريو الأصل باحتلال ابرهيم بن محمد علي، ولم يؤيدوه...

ب – بنو حماده الدروز (بعقلين) عرب شوايزانيون من آل تنوخ، نزحوا من الجبل الأعلى الى لبنان في النزحات الاسماعيلية الهاربة من اضطهاد العباسيين لأبناء هذا المذهب. في لبنان استجابوا للدعوة الحاكمية. من جدودهم الشيخ أبو علي مرعي زهر الدين الذي عاش في القرن الخامس عشر وكان من تلاميذ الأمير السيد التنوخي، ومن أصحاب الغيرة على تاريخ دين التوحيد وعلى كتبه.

ج – اما حماده الشيعة، موضوعنا هنا، فمن بخارى. (كانت تتبع ايران في أيام الحكم الصفوي، وهي الآن في جمهورية اوزبكستان).

في القرن الخامس عشر، وقد ترامت حدود ايران الى البعيد، اعتنق شاهها اسمعيل الصفوي المذهب الشيعي مؤمناً بروحانيته ومتحمساً له. وصارت له علاقة طيبة بعلماء الشيعة اللبنانيين، وطّدتها معاملته الكريمة لمن جاء بهم من جبل عامل للتعليم الديني في مملكته.

وباتساع السلطنة الصفوية فصل الشاه اسمعيل بين الحكم السني في الأفغان والهند وبين الحكم السني في السلطنة العثمانية، مما أقلق بني عثمان الطامعين بالشرق كله، وبالغرب بعده، كما طمع الرومان، فأخذوا يعدّون العدة لوقف تطلعات الشاه.

ولهذا السبب، على الأخص، نشأت أسرة السلاطين العثمانية على كراهية ايران وجماعة الشيعة. (وقد نالت شيعة لبنان نصيبها من تلك الكراهية التركية ولحقها اضطهاد ظالم). فلما سنحت الفرصة للسلطان سليمان القانوني أن يشفي غليله زحف على ايران واحتل عاصمتها تبريز (١٥٣٤) واحتل اصفهان، وقسا على المدن والقرى والأهلين وأكره كثيرين منهم على الهرب من بلادهم. وفي اولئك الهاربين كانت جماعة من قبائل بخارى لجأوا الى جبال لبنان وعرفوا باسم الحمادية نسبة الى اسم زعيمهم حماده (جدّ الأسرة المعروفة اليوم).

ولكنهم لم يكونوا من بيت واحد، بل من بيوت عديدة، جمع بينهم اسم الزعيم حماده الذي التفّوا حوله.

ومن موبقات السياسة الكاذبة ان الخليفة أمير المؤمنين السلطان سليمان القانوني صاحب ذلك الزحف الذي ما يزال الايرانيون يذكرونه، كان صديق اوروبة المسيحية، فأرسل يبشر ملوكها وامراءها المسيحيين بانتصاره على «الخارجي» شاه الفرس، وجاءته الوفود تهنئه!

ضرب الحماديون خيامهم، اول وصولهم الى لبنان، في الهرمل. وما طال زمانهم حتى بدأوا ينتشرون الى الغرب الشمالي وبدأت حوادثهم تُغضب عليهم الولاة وطاردوهم، ولجأوا في بادىء الأمر الى فخر الدين المعني حامي الحمى وكفلهم هذا عند أولي أمرهم فسكنوا.

وبرز فيهم على مر الايام متزعمون جدد حكموا جبة بشري ولم يحسنوا التصرف. ولكنهم بكثرة المقاتلين فيهم وبانصياع هؤلاء المقاتلين لرؤساء أسرهم صاروا عنصراً ذا بأس، يستأجرهم كبار الحكام لسحق معارضيهم، او يستميلهم الاقطاعيون المعارضون لتكثير عدد أنصارهم. وهكذا كبر شأن الحمادية حتى استطاع بيت الزعامة أن يضمن باسمه، ولحسابه، المقاطعات من وزراء طرابلس ويحكمها.

وفي المنتصف الشمالي من لبنان – من فتوح كسروان الى جبة بشري – امتد نفوذ القبائل الحمادية وعلت كلمتهم. واغتصبوا قرى كثيرة وامتلكوها. ووضعوا يدهم على الجبال، وعلى أراض شاسعة غير مملوكة، أسوة بجيرانهم الخوازنة. غير أن الحمادية لم «يتبلّدوا» تبلّد جيرانهم: ما عمّروا مساجد، ولا مدارس، ولا وقفوا عقارات وحقولاً. بل انهم حافظوا على عاداتهم القبلية بجميع تخلفها سطواً، غزواً، وثأراً. واخذ اشرارهم يفوقون اخيارهم، وراح المتزعمون الجدد يقطعون الطرق، ويحرقون القرى، ويسلبون المستضعفين الآمنين ويطردونهم من مزارعهم وقراهم، حتى ضجت منهم الأرض والسماء وكان أشهرهم شرًّا مغامر اسمه ابو موسى زعرور حمله شره الى وطا الجوز في جرود

كسروان ليلقى حتفه فيه.
ولما تختم السلسلة:
فقد قامت الفتنة في بيت الزعامة وانقسم شطرين: رجع اولهما «بيت الشيخ احمد» الى الهرمل وولي الآخر «بيت الشيخ اسمعيل» جبة بشري.
وبعد سنين رجع عيسى بن الشيخ احمد الى ولاية جبة بشري وطرد انسباءه بني الشيخ اسمعيل. وعيسى هذا هو الذي احتل دير قنوبين وأهان البطريرك الدويهي وضربه على «طابيته» ورماها ارضاً، مما هو مذكور بالتفصيل في جميع الكتب التاريخية المارونية. (وليس من راهب أو كاهن ماروني يجهل هذه الحادثة المؤسفة...)
وظل ذلك حال القبائل الحمادية حتى حكم الأمير يوسف ملحم الشهابي (١٧٧٧) فبدأ عهده محاولاً تأديبهم ولم يفلح فحاربهم حرباً قاسية حتى اجلاهم الى قرى البقاع وبعلبك والهرمل. واخذوا «يذوبون» عشائرياً وينمون بأسماء مستقلة. وفي الهرمل استقر بيت الزعامة. وفي عهد بروتوكول جبل لبنان لَمَّ شعثه، وفي ايام الانتداب ترابط بعثه، وفي مزارع الاستقلال خفقت راياته!
(كثير من أيام الحمادية مبسوط في كتاب «من تاريخ لبنان» وهو العنوان الجديد لتاريخ «المقاطعة الكسروانية» الذي أعيد طبعه في «منشورات أوراق لبنانية»).

(٥) الباب العالي (وبالتركية: بابي همايون) في استنبول: مدخل الى قصر سلطاني في حديقة مترامية الأطراف تضم مجموعة سرايات، أي قصور، ومحاطة بسور قديم مفتوح على أربعة أبواب، احدها الباب المذكور (العالي). وقد وصفوه بالعالي لأنه مدخل قصر السلطان. وقد جرى العرف في بلدان شرقية كثيرة على تسمية قصر الملك أو سراية الحاكم العام بالباب. فعظمه الأتراك وعلوه. وهذا ما يفسّر قول الشاعر شوقي إنه ربي في باب اسماعيل، اي في قصره وبأمر من السلطان

سليمان جعل قصر الباب العالي مقراً للصدر الأعظم. وهذه الكلمة هي لقب رئيس الوزراء في عهد السلاطين. وفي هذا القصر جميع دوائر الصدارة العظمى كلها.
والبند الاول من بروتوكول جبل لبنان نص على أن حكومة الجبل ترجع رأساً بجميع شؤونها الى الباب العالي. وذلك تمييزاً لها عن الولايات العثمانية التي كانت مرتبطة بوزارة الداخلية.
ثم صار الباب العالي، على توالي الايام، مجمعاً لدوائر الحكومة. باستثناء الدوائر المالية. ثم تبدل الحال بعد صيرورة انقره عاصمة للجمهورية التركية.
وللمناسبة نقول: ان احد أقبية الباب العالي كان مستودعاً واسعاً لرسائل متصرفية جبل لبنان محفوظة في اكياس، وتعتبر جواهر تاريخية.

(٦) الفرمان: تعبير تركي من أصل يوناني وفارسي معناه: أمر. والفرمان السلطاني هو ما نعبر عنه في أيامنا بالمرسوم، مع فارق النظام الدستوري، اي أن الفرمان عنوان ارادة السلطان المطلقة الصلاحية وذي الحق الالهي، يفرضه بمشيئته الفردية ساعة يشاء. واما المرسوم الجمهوري فلا يصدر ألا في مجلس الوزراء ويشترك في التوقيع عليه رئيس الجمهورية والوزراء أصحاب الشأن فيه.

(٧) البراءات للبطاركة والمطارين (او الفرمانات السلطانية): من تقاليد السلطنة العثمانية – وصارت التقاليد عملاً رسمياً نصت عليه القوانين – ان البطاركة والمطارنة يتولون مناصبهم الدينية بموجب فرمان سلطاني. والارجح في الداعي لذلك الاجراء كون رؤساء الدين المسيحي لهم صلاحيات قانونية وامتيازات ذات مساس بالحكم، بسبب قوانين الأحوال الشخصية.
وتفردت الطائفة المارونية في عدم طلب الفرمان.

والسلاطين العثمانيون لم يفرضوا الفرمانات، من عندهم، بل ورثوها من الحكم البيزنطي. فالاباطرة اليونانيون كانوا يمارسون، «بموجب الحق الالهي» (!)، سيطرتهم على الاكليروس، وكثيراً ما عينوا رؤساءه تعييناً كيفيا، او خلعوهم خلعاً كيفيا. فلما انهارت المملكة البيزنطية رأى وارثها السلطان محمد الفاتح أن يحتفظ بعادة «الحق الالهي» الذي كان يدّعيه الأباطرة فمنح بطريرك القسطنطينية هيمنةً (سلطة) روحية على رعاياه المسيحيين بوصف كونه اميراً من أهل الذمة. وحرص السلطان محمد الفاتح على تكريم البطريرك تكريماً علنياً (احتفالياً) «فألبسه بيده التاج، وسلمه صولجاناً مرصعاً بألماس رمزاً لسلطته الزمنية. ورافقه الى باب القصر، وعيّن له حرساً من الانكشارية، وأنشأ له مجلساً عدليا (محكمة روحية) كامل الجهاز، مع محبس وغرفة تعذيب، وان يكون له حق استيفاء ضرائب من ملته، وان يراقب شرطته الخاصة. ولقاء تلك المنح السلطانية راح الاكليروس الارثوذوكسي يحث ابناء مذهبه في المقاطعات التركية على احترام حق السلطان الإلهي، وان «يعطوا قيصر ما كان لقيصر»، بما في ذلك الجزية عن اولادهم المعدّين للانخراط في جيش الانكشارية أو في خدمة القصور» [جورج يانغ في كتابه: «كونستانتينوبل»، ص ٢٢٠]. وسلك السلطان محمد الفاتح سلوكه العاقل لأن البابوية الرومانية كانت في تلك الآونة تبذل الجهد الأقصى لتوحيد الكنيستين الارثوذوكسية واللاتينية تحت سلطتها، وما خاف السلطان شيئاً مثل خوفه من النفوذ السياسي الذي كان يتمتع به البابا في اوروبة، فمنح الارثوذوكسيين الاستقلال في ظل بطريركهم ليحول دون اتحادهم بروما. وساعده على تحقيق رغبته اشمئزاز البيزنطيين من تصرف بعض الدوائر البابوية ازاءهم في ظروف كثيرة تصرفاً أساء الى كرامتهم وعدّوه غير مسيحي ... وفي ذلك الزمان قيل: ان تجار استنبول (يريد المسيحيين فيها) آثروا عمامة الشيخ على قبعة الكردينال!

وصارت بادرة السلطان محمد الفاتح عادة، وصارت تقليداً رسميا. ولما نشأت طوائف كاثوليكية مستحدثة في السلطنة العثمانية قامت مماحكات واعتراضات، ومشادات وشكاوى بين السادة بطاركة القديم والجديد، وتدخل السفراء المزعجون لدى الباب العالي سلباً وايجاباً، كل يؤيد البطريرك الذي يحميه (!) فوضعت استنبول قانوناً ينظم علاقة رؤساء المذاهب المسيحية بها، وحقوقهم على أرض ممتلكاتها، واوجبت عليهم أن يطلبوا براءة سلطانية (فرماناً. وبلغتنا اليوم: مرسوماً) بتعيينهم في «مأموريتهم» – كذا – وإلا، فلا يعترف بهم رؤساء. ولا تلبي الدوائر الحكومية طلباتهم كرؤساء، ولا يدعون الى الحفلات الرسمية، ومعنى ذلك كله أن سلطتهم مشلولة وليسوا سوى كهنة عاديين!

وشذّت الطائفة المارونية عن تلك القاعدة وظلت لا تطلب البراءة لأنها في جبالها، بعيدة عن الحكم العثماني المباشر، وفي منأى عن «التزاحم» على النفوذ المذهبي، في سبيل نيل الحق المذهبي. وما ادراك!

وبعد البروتوكول الذي وضعته الدول الست لنظام جبل لبنان المستقل، وربط علاقته بالسلطنة بواسطة الباب العالي رأساً، دون تدخل الوزراء والولاة والموظفين في شؤونه،

وبتحريض من احدى الطوائف المسيحية التي احتجت بأن البطريرك الماروني يمارس سلطانه الكنسي بدون فرمان، فلماذا يفرض عليها هي الفرمان «في حين أنها مثله تابعة للحبر الأعظم الخ... الخ...»،

ولأجل زيادة التدخل العثماني في الجبل، فان استنبول كانت تعد البطريرك الماروني «عاصيا» – كذا – لأنه لا يطلب البراءة، وان لا بد له من أن يركع ويطلبها...

لأجل ما تقدم أمر الباب العالي دولة المتصرف واصا باشا الارناؤوطي بأن يقول للبطريرك يوحنا الحاج، على أثر انتخابه رئيساً للكنيسة المارونية (١٨٩٠)، بوجوب طلبه البراءة من جلالة السلطان بتعيينه

رئيساً على ملته – وكان أول بطريرك بعد البروتوكول – فتهرب صاحبنا مداوراً بالتي هي احسن. واعادت استنبول الكرة، ومغمغت بكركي بانتظار رأي الفاتيكان ومساعي الحكومة الفرنسية، واطلق البطريرك الداهية يوحنا الحاج جوابه التاريخي المشهور عند القدماء:
«ولو، يا دولة الباشا! ان الفرمان يطلبه البطرك الغريب، غير العثماني، حتى يمارس سلطته الكنسية على رعيته في أرض الدولة. واما نحن، البطرك والمطارنة والطائفة، فمن أهل البيت ومن أخلص عبيد جلالة متبوعنا الأعظم. وهذا اعتزازنا الدائم بأننا عثمانيون. فلا حاجة بنا للفرمان...»

وابرق واصا باشا الى الباب العالي بجواب الحاج، ثم تدخل مسيو ريبو وزير خارجية فرنسا في الأمر بحجة أن طلب الفرمان «اجراء جديد يخالف الامتيازات التي يتمتع بها اللبنانيون منذ بضعة قرون، ومنها الامتيازات الدينية، برضى أصحاب الجلالة السلاطين.»

فصرف النظر عن فرض الفرمان.

وعندما انتخب البطريرك الياس الحويك (١٨٩٩) لم تثر استنبول موضوع البراءة. وظلت نائمة على تغاضيها حتى اندلعت نيران الحرب العالمية وتفارقت الدول الست الضامنات استقلال لبنان فاغتنمتها حكومة الاتحاديين فرصة سعيدة وألغت الامتيازات الاجنبية، وسيأتي خبرها، وارغم جمال باشا، الحاكم العسكري لهذه البلاد، البطريرك الحويك، في جوٍ إرهابي، على طلب البراءات له وللمطارنة الموارنة جميعا. ولم يكن له مناص من الامتثال فطلبها وصدرت في ١٤ من كانون الثاني (يناير). وكانت الاولى والاخيرة.

[باستطاعة من يرغب في تفصيل ما دار حول طلب هذه البراءة أن يقرأه في كتاب «دلائل العناية الصمدانية» للأب ابرهيم حرفوش: ص ٥٢٩ وما بعدها.]

من الجذور

(١) الامتيازات الاجنبية: اصطلاح دولي يشير الى معاهدات منحت السلطنة العثمانية بموجبها دولاً أجنبية حقوقاً قضائية وسياسية ومالية يتمتع بها رعايا هذه الدول في أراضي السلطنة. وليس لواحدة منها مثل هذه الحقوق ولا مثل ربعها، في أية دولة غربية، وإن صغيرة!

ان الامتيازات المذكورة قديمة الوجود منذ الدول الاولى التي بادت. ثم صارت المعاملات التجارية والأسفار والنيات الامبريالية تفرضها على الدول الشرقية المتخلفة يومئذ، كالصين واليابان وفارس (ايران) ومصر وتركية.

واضطرت الدولة الشرقية الى منحها، منزلقة من دولة الى دولة. وبلغ عدد الدول التي نالتها في السلطنة العثمانية ما يقرب العشرين!

وكان من أمر الامتيازات الأجنبية أن استفحل، واشتد خطرها إذ اوجد دولة ذات اجراء مؤثر في قلب الدولة.

وحسبك أن تعرف عن هذه الامتيازات في السلطنة العثمانية انها نصت على:

(أ) حرية مطلقة للأجنبي في زيارة الأراضي المقدسة (فلسطين) والتجول في ممتلكات الدولة، والتجارة فيها، واستخدام مرافئها.

(ب) حرية الاجنبي في ممارسة جميع طقوسه الدينية وأعيادها، واحياء عاداته وتقاليده دون أي اعتراض.

(ج) اعفاء الأجنبي من جميع الرسوم والضرائب التي يدفعها المواطن لمختلف الأسباب، باستثناء الرسم الجمركي.

(د) ان جميع الموظفين والخدم البلديين في القنصليات يتمتعون بالحقوق عينها. وتشمل الامتيازات الأديار والكنائس والمدارس والمستشفيات

والمصارف والمحال التجارية والشركات ومختلف المؤسسات الأجنبية.
(هـ) اذا اختلف أجنبيان من جنسية واحدة جرت محاكمتهما أمام قنصلهما.
(و) اذا اختلف مواطن واجنبي فلا يحق للمحاكم المحلية أن تنظر في الدعوى إلا بحضور قنصل الأجنبي أو ممثله. ولا يدعى الشاهد الأجنبي الى المحكمة إلا بواسطة قنصله.
(ز) لا يجوز للموظف العثماني دخول بيت الأجنبي للتحقيق أو التفتيش إلا باذن من قنصله. وكذلك لا يجوز له إخراج مجرم عثماني لجأ الى بيت أجنبي إلا بموافقة القنصل.
الخ ... الخ ... الخ ...

ومن تلك الامتيازات الخطيرة حق بعض الدول في حماية الرعايا المسيحيين واليهود العثمانيين، مما أجاز للقناصل التدخل في الكبيرة والصغيرة، وإقلاق الادارة العثمانية والعبث بكرامتها واذلال سيادتها. وصار كثيرون من العثمانيين يلجأون الى القنصليات طالبين حمايتها، هرباً من رعونة الموظف العثماني وفظاظة تصرفه وتبليصه وتحقيره لهم. وراح العقلاء العثمانيون، وهم قلة ضئيلة جداً، يتمزقون تفجعاً من تخلف دولتهم، وسوء ادارتها، وانحطاط قضائها مما أعطى الأجنبي حق الامتياز عن العثماني وجعله يتبغدد عليه. وكانت الدول الأجنبية منحطة هي أيضاً في استعمال بعض الامتيازات...

ودامت الحالة على ذلك المنوال حتى انخرطت حكومة استنبول في المجزرة العالمية الاولى فألغت الامتيازات الأجنبية بجرة قلم. وكانت حكومات باريس ولندن وبطرسبورغ قد عرضت عليها التنازل عن جميع امتيازاتها لقاء بقاء السلطنة على الحياد. فرفض أنور باشا واخوانه العرض بتأثير من الانبراطور غليوم. ولما انتهت الحرب أعادت بريطانية وفرنسا الامتيازات الى الأقطار العربية، ولم تلغ إلا بعد معاهدة لوزان! (للمغفور له حبيب ابي شهلا دراسة قيمة جداً بالفرنسية عنوانها:

«الغاء الامتيازات الأجنبية في تركية والأقطار العربية» - الناشر بيكار، باريس. استندنا اليها في كتابة هذه الكلمة).

(٢) الكردينال ريشيليو (١٥٨٥ - ١٦٤٢): داهية ساسة زمانه في حزمه وذكائه. دعاه الملك لويس الثالث عشر الى الحكم وفرنسا غرقى في أزماتها الدينية والاجتماعية والمالية الخانقة، بسبب تسلط الأعيان والاقطاعيين، فأكلت السمكة الكبيرة السمكة الصغيرة وانتشرت الفوضى في كل مكان. فواجه الكردينال ريشيليو الحالة المتردية بقساوة وبطش بلا هوادة بثورة البروتسطان، ظالماً متعصباً، وحجته «ان الدين لا ينبع من الدم»..
مأثرته الخالدة تبقى في كونه قد أسس «الاكاديمية الفرنسية» (١٦٣٥) فخدم الفكر والفن في بلاده وفي العالم. ومن تلك الاكاديمية انبثقت مبادىء الثورة الكبرى وتحرير الانسان من الاستبداد.
وعلى كثرة شجونه ومشاغله المرهقة في حكم فرنسا ومداورة عروش اوروبة، مد ريشيليو، هو ايضا، بنظره الى المشرق، مقتفيا سياسة سلفه الملك فرنسيس الاول، وفي صدره ذكريات صليبية تجيش، ولكن عن طريق السلم والرفق الانساني في هذه المرة، فعزز انتشار الارساليات الكاثوليكية و «عملها الخيري» في بلادنا، وحماها لدى صديقه جلالة السلطان التركي. كما انه راقب التطور الوطني في السياسة التي كان يتبعها أمير لبنان فخر الدين المعني الثاني. ومن المؤكد أنه تدخل فيها. ريشيليو في كلمة: كان في زمانه المستبد رجل فرنسا وواحداً من أعاظم العالم.

(٣) مازاران (١٦٠٢ - ١٦٦١): دبلوماسي بعيد النظر شديد المكر عيّنه البابا ممثلاً له لدى بلاط لويس الثالث عشر فنشأت صداقة بينه وبين الملك والكردينال ريشيليو. عينه لويس الثالث عشر خلفاً لريشيليو عمل بنصح هذا قبيل وفاته. ولكن الملك توفي بعد قليل وخلفه ابنه الصغير لويس الرابع عشر بوصاية والدته آن النمسوية. امتاز مازاران بشراء

الاصدقاء والأنصار وبالمراوغة في إسكات المعارضة. ثار الامراء ورجال البرلمان على سياسته المالية التي أثقلتهم بالضرائب فاضطر للهرب مع الملكة الوالدة والملك الصغير. وبعد فشل الثورة رجع معهما ليحقق مبدأ سلفه الكردينال ريشيليو في اثبات وجود الدولة، وهي السياسة التي ستجعل من لويس الرابع عشر الملك الشمس المطلق.

وفي عهد مازاران أصدر الملك لويس الرابع عشر براءته التاريخية (١٦٤٩) بحماية موارنة لبنان وبوضعهم تحت كنفه الخصوصي (مجموعة البارون دي تيستا: ج ٣، ص ١٤٠).

الى الاستقلال اللبناني

(١) بنو حنش: قبيلة ذات شكيمة في عربان الشام، اعتبر مشايخها من مقدمي البلاد في العهد الايوبي، ويلقب أحدهم في الكتابة إليه بـ «المجلس السامي الأمير الكبير فلان» واشتهر منهم الأمير ناصر الدين الذي حكم صيدا والبقاعين. اوكل اليه السلطان سليم العثماني حفظ الشام (١٥١٦) في غيابه لفتح مصر فخانه. قتله المعنيون وبعثوا برأسه الى السلطان.

(٢) «البقاعين»: اولهما البقاع العزيز (ضد الذليل). وقيل ايضا: البقاع العزيزي، نسبة الى الملك العزيز ابن السلطان صلاح الدين الأيوبي، وكان البقاع من ولا يته التي جعل مقرها «كرك نوح». وفي العهد الشهابي سُمي هذا البقاع بالشوف البياضي، واما البقاع الآخر فهو بقاع بعلبك المجاور للمدينة الأثرية. والجبليون يسمون الاول: السهل، او سهل البقاع، ويسمون الآخر سهل بعلبك. وفي الحكم الأيوبي كان كل بقاع تابعاً لحاكم.

(٣) بنو سيفا: اسرة كردية قليلة العدد جداً. مؤسسها جندي اسمه جمال الدين خدم عند قائد من مماليك الشراكسة ملقب بسيفا، وانتسب اليه وحمل اسمه على العادة المملوكية. ومن أحفاده يوسف كان شديد الذكاء والجرأة والكرم. بدأ حياته جندياً في خدمة الحكومة العثمانية وتنقل في الترقية حتى حكم طرابلس وصار باشا، واميراً، ذا عز وسؤدد. وامتد سلطانه الى بيروت. اشتهر بعدائه لفخر الدين المعني ولعلي جنبلاط على رغم المصاهرة بينه وبينهما. وامتاز بمصانعة استنبول ومداهنة وزرائها، وبالدس على جميع الامراء الحاكمين في المنطقة وعمل عينا للترك ووشى بالمعنيين والعسافيين

وخرب بيوتهم. وحذا ابنه علي باشا حذوه ولكنه كان على قول المؤرخ المحبّي «يبالغ في ظلم العباد». واشتهر من السيفاويين يوسف باشا وابنه علي باشا، واخوه الأمير علي، وابن أخيه الأمير محمد بن علي. وأشاد المؤرخ المحبي في قاموسه: «خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر» بآل سيفا كلما ذكرهم في كتابه وقال: «... فكانت دولتهم السيفية كما سمعت عن الدولة البرمكية والمعتمدية. جمعوا للمعالي شملا، واصبحوا للمكارم أهلا، وكانت لهم بلاد طرابلس صافية»: ج ٤، ص ٥٠٣.

ومن آثار يوسف سيفا مسجد في طرابلس قيل في تاريخه:

«بنى ابن سيفا يوسف مسجداً دام اميراً للحلى راقيا

ومن بنى لله بيتاً يكن عليه في تاريخه: راضيا»

(سنة ١٠١٢هـ/١٦٠٣م.)

توفي يوسف باشا سنة ١٦٢٤.

وفي رأي الاستاذ كامل البابا نسّابة طرابلس ان اسرتي الشهال وعويضا هما من بني سيفا.

(٤) العسافيون: تركمانيون وأول ما نعرفه عنهم أنهم كانوا امراء المماليك التركمان في الكورة. امرهم نائب دمشق «باحتلال سواحل كسروان للمحافظة عليها من رجوع الافرنج اليها (...) قطنوا ازواق مصبح ومكايل والخراب والعامرية، وجددوا مباني وبساتين وجنائن في عينطورة وعين شقيق لاقامة الامراء شتاء وصيفا».

احدهم الأمير عساف اشترك مع فخر الدين المعني الاول في سفرته التاريخية الى دمشق لتهنئة السلطان سليم العثماني بعد فتحه البلاد فولاه الفاتح بلاد كسروان وجبيل.

ثم امتد الحكم العسافي الى عكار شمالاً وبيروت غربا. ووصل حكم أحدهم الأمير منصور حتى حماة. خدمهم بنو حبيش مدبرين شؤون ولايتهم فمشيخوهم. ظلّ العسافيون على عداء متحكم لبني سيفا (جميعهم تركمانيون) وظل السيفويون يطاردونهم حتى قضوا عليهم.

(اخبارهم في «المقاطعة الكسروانية) او: «من تاريخ لبنان»).

من آثارهم الباقية في غزير، عاصمتهم، مدافنهم وتعرف باسم «القبة» وفيها دفن الأمير قاسم عمر شهاب والد الأمير بشير الشهير.

(٥) سمّاه اكثرهم سيف الدين التنوخي غير أن العلامة الأمير أمين ناصر الدين، المدقق الخبير بتاريخ قومه التنوخيين شكك بصحة «الاسم» اذ روى أن فخر الدين كان يدعو الأمير بدر الدين حسناً التنوخي يا خالي. وفي هذا التشكيك شيء معقول، فكلمة سيف الدين ليست اسماً وانما هي لقب عند التنوخيين. ولم يعرف أمير ذو شأن يحمل هذا اللقب في عهد فخر الدين الثاني، قال البحاثة الأمير أمين ناصر الدين: «كان الأمير بدر الدين حسن السيد المطاع في قومه، والرئيس المبجّل في عشيرته. وكان على جانب عظيم من مكارم الأخلاق والمزايا العالية ورفعة المقام والتقوى والفضل وكان الأمير فخر الدين المعني الثاني يدعوه يا خالي. فلم ندرِ اكان فخر الدين ابن أخت بدر الدين أم كان يدعوه بذلك من ناحية كون أم فخر الدين تنوخية» وقد قُلّد الامير بدر الدين «رئاسة المذهب العليا ولُقّب بشيخ المشايخ»، «اوراق لبنانية»: ايلول ١٩٥٦ – ص ٤٢٥.

وهذا الامير «الشيخ» بدر الدين حسن هو الثالث عشر في تسلسل رؤساء المذهب التوحيدي (مشايخ العقل) ومدفون في مدافن التنوخيين في عبيه. (١٥٦٢ – ١٦٣٠)

(٦) بنو الخازن: هم أسرة مارونية عريقة في كسروان، عربية النجار غسانية الارومة، مئة في المئة. تقلب الدهر على ابنائهم في مساكنهم الاولى وتقلبوا عليه، حتى نزحوا في القرن الرابع عشر من محطّتهم الاخيرة في أذرع حوران الى قرية قب الياس في البقاع.

وجاء في مخطوطة كتبها الشيخ شيبان الخازن حوالي سنة ١٨٢٠ في تاريخ أسرته، وحققها وحشّاها العلاّمة نسيب وهيبة الخازن: ان الخوازنة لم يطيلوا المكث في قب الياس أكثر من سنة «لكون كان

قصدهم الطلوع الى الجبل لحماية المشايخ الدروز المشهورين بحسن السجايا والمناقب الحميدة، والى الموارنة الذين كانوا منهم بالديانة والعقيدة» – منشورات «الأصول التاريخية»، المجلد الثالث: ص ٢٩٠.
وبعد هذا الانتقال تفرقوا في أماكن عديدة: في كسروان محافظين على اسمهم، وفي الكورة حيث عرفوا ببيت العازار، وفي بلاد عكار والحصن عرفوا ببيت موسى الحنا وبيت الشيخ. (وهم مشايخ على اختلاف منازلهم).
وكُتب لأحدهم ابرهيم ان يربي الشقيقين اليتيمين فخر الدين وقرقماس المعني اللذين هربتهما أمهما من الشوف بعد مصرع والدهما، خوفاً من اليمانية، فخبأهما ابرهيم خازن في مزرعة بلونة من أرض عجلتون، وعاشا فيها متنكرين أكثر من عشر سنوات، احدهما باسم فخر، والآخر باسم يونان.
تلك الصدفة ستفتح باب الباس والنفوذ والوجاهة والاثراء في وجه الخازنيين، إذ اقطعهم ربيبهم فخر الدين بعد استيلائه على الحكم مقاطعة كسروان، وصاروا مشايخ اقطاعيين ودخلت ال التعريف على اسم الأسرة.
ونشطوا الى ضمان المقاطعات في الشمال، ووضعوا يدهم على الأراضي غير المملوكة، أسوة بجميع الامراء والمقدمين والمشايخ الاقطاعيين، ونعموا بالعز والخير وكسبوا مالاً مثل رمل البحر لا يحصى.
واخذ يلمع من بني الخازن بطاركة ومطارنة وقناصل لملك فرنسا، وزعماء وأبطال حرب، ورجال فضل ومعروف ووفاء واحسان، ووقفوا الأراضي الشاسعة لطائفتهم، وبنوا الأديار والمدارس، واحتضنوا جميع الأقليات الكاثوليكية المذهب من إرساليات أجنبية وطوائف مستحدثة (سريان كاثوليكيين، روم كاثوليكيين، أرمن كاثوليكيين الخ...) فعمر كسروان.
ولكن الأسرة كبرت، وكثرت ذراريها. وبدأ بعض الجدد يشطون عن سلوك الأباء، ورويداً رويداً تعوّد بعضهم الكسل، والانحراف،

والتعالي، ورأوا كبارهم ولاةً يحكمون في الناس فحلا للصغار أن يجعل كل منهم من نفسه حاكما وواليا! ورافق ذلك الوهم اعتداء على الأعراض والكرامات مما لا مجال لبسطه، فانفجر الفلاح عليهم في ثورة تاريخية وطردهم من كسروان. وراح الصالح في عزاء الطالح! (انظر كتابنا: «ثورة وفتنة في لبنان»).
الا ان أخطاء ذلك الماضي قد محاها باستشهادهما في سبيل لبنان الشهيدان الشقيقان: فيليب وفريد قعدان الخازن. وعنهما قصّرت الناس.
(٧) حريم السلطان: هو في الأصل نساء السلطان الشرعيات، الاربع. ومع امتداد الحكم العثماني الى شعوب وأراض وممالك جديدة صارت النساء تكثر في القصر، باسم زوجات شرعيات، وسرار، ومحظيات... وصار عددهن لا يحصى، فبنيت لهن قصور خاصة، او أجنحة خاصة، في قصور السلاطين أطلق عليها اسم: الحريم.
واثبت جميع الذين عالجوا موضوع «الحريم السلطاني» ان هذا الحريم كان أعظم الآفات الرئيسية التي نخرت السلطنة وهدّتها الى الحضيض. وفيه وضعت كتب كثيرة بلغات مختلفة توجز بكلمات ثلاث: فجور وتبذير وانحطاط!
وصار الحريم خليطاً من قوميات كثيرة شرقية وغربية، ومن مسلمات ومسيحيات ويهوديات وبوذيات، على اختلاف المذاهب الدينية، وكثيرات منهن هدايا، وسلاح الجميع جمال ساحر، يرافقهن حسد وتباغض ودس وإغواء غلمي في سبيل البقاء أو للدفاع عن النفس.
وادى ذلك الى ولادة ابناء للسلاطين (امراء!!) يعيشون في ذلك المحيط المنحط فيبغض بعضهم بعضاً ويغدر بعضهم ببعض، والسلاطين الذين قتلوا أخوتهم أو ابناءهم، والامراء الذين قتلوا اباءهم أو أخوتهم أو اعمامهم لا يحصى عددهم.
وتطور الحريم السلطاني في تسلطه على صاحب العرش، وعلى الوزراء وكبار الموظفين، حتى صار نفوذه لا يقاوم. وصار لرئيس الخصيان

الذين يحرسون الحريم نفوذ لا يقهر. وروى الدبلوماسي الانكليزي جورج يانغ في كتابه «كونستانتينوبل» ان السلطان محموداً الاول عاش اسير زنجي حبشي، اسمه بشير، وولي منصب رئيس الخصيان طوال ثلاثين سنة، ومات عن ثروة بلغت ثلاثين مليون ليرة ذهباً. ولم يكن ثمن ذلك الزنجي سوى ثلاثين قرشاً!.. (ص ٢١٦) وكانت الملايين من رعية السلطان تعيش في ضيق وبؤس وحرمان.

انظر «فلسفة التاريخ العثماني» تأليف محمد جميل بيّهم الذي «بسط أسباب انحطاط الانبراطورية العثمانية وزوالها»، ففيه معلومات قيمة في هذا الصدد. وفيه مراجع.

(٨) التقيّة: مصدر فعل توقّى واتقى، بمعنى الصيانة، والحفظ، والحذر، الخ... وهي مبدأ اساسي في المذاهب الباطنية يأمر مؤمنها بأن لا يبوح بأسرار المذهب. ثم توسعوا في معناها فصارت أمراً للباطني بأن لا يظهر في حالة خطر عليه ما يبطن، وبأنه من حقه أن يداور عدوه فيكتمه الحقيقة اتقاء لشره. ولعل ابا جعفر الكليني شيخ بغداد وعالمها كان أوضح من كتب في التقية، وقد روى عن الامام أبي عبدالله جعفر الصادق أنه قال: «تسعة أعشار الدين في التقية، ولا دين لمن لا تقية له.» ونقل فقيه الاسماعيلية وداعي دعاتها القاضي النعمان بن محمد كلاماً آخر للامام أبي عبدالله قاله لأحد اصحابه: «اكتم سرنا ولا تذعه، فان من كتم سرنا ولم يذعه أعزه الله به في الدنيا والآخرة. ومن أذاع سرنا ولم يكتمه اذلّه الله به في الدنيا والآخرة، ونزع النور من بين عينيه. ان ابي، رضوان الله عليه وصلواته كان يقول: «ان التقية من ديني ودين آبائي. ولا دين لمن لا تقية له. وان الله يحب ان يعبد في السر كما يحب ان يعبد في العلانية، والمذيع لأمرنا كالجاحد له» – دعائم الاسلام: ج ١، ص ٥٩، تحقيق آصف بن علي اصفر فيضي. وبعد ازدياد اضطهاد العباسيين للاسماعيلية، ثم للفاطمية توسع فقهاء المضطهدين (بفتح الهاء في قصد التقية) كما ذكرنا. قال العالم المغربي

عبدالله علي علام: «... وصار للتقية بالمعنى السابق مكانة رفيعة بين مبادىء الشيعة حتى اضحت ركناً من عقيدتهم الدينية (...) وقد فسروا كثيراً من أعمال الائمة على أنها من التقية: فسكوت علي بن أبي طالب على أبي بكر وعمر وعثمان كان تقية. ومصالحة الحسين لمعاوية كان تقية الخ...» – الدعوة الموحدية بالمغرب: ص ٢٤٦.

وجميع الباطنية عملوا، ويعملون، بالتقية هرباً من التضييق والاضطهاد.

(٩) من الحق والواجب أن يقال: ان بني معروف (الدروز) كانوا منذ لجؤ الدرزية الى لبنان عنوان التآخي الصادق مع جيرانهم المسيحيين؛ وقد عاشوا قروناً حياة التعاطف ولم يعكرها معكر. ولهم في دنيا المروءة حوادث لا تحصى وليتها تُسجّل.

واتبع الابناء والاحفاد صراط فخر الدين في تسامحه، وعاش سيد المختارة الشيخ بشير جنبلاط الشهيد اللبناني في الذؤابة من الوفاء والسخاء والمعروف وكان يلقب بعمود السماء وله علاقة صداقة بالكرسي الرسولي بروما نشأت من عطفه على المسيحيين الباباويين، وقد ذكرناها في مجلتنا «اوراق لبنانية» غير مرة.

ولم تبدأ حياة التآخي بين بني معروف ومواطنيهم المسيحيين تتعكر بعض الشي إلا في المنتصف الأخير من الحكم الشهابي، وبخاصة في عهدي المير يوسف وخليفه المير بشير الثاني ثم عهد المير بشير الثالث. أضف الى تلك العهود سياسة التفرقة التي خطها ابرهيم باشا المصري أثناء احتلاله هذه الديار، فأقام طائفة على أختها، ونفخت في نارها بعده السياسة الاستعمارية الغربية بسبب طريق الهند.

توطيد الاقطاعية

(١) حيدر الشهابي (١٧٦١ - ١٨٣٥): احد رجال عهد بشير الثاني في ادارة امارته ومكافحة خصومها. صار كثير الاطلاع على شؤون اسرته فاقتفى أثر المؤرخ صالح بن يحيى الذي حفظ ما وصل اليه من وثائق بيته البحتري التنوخي ومروياته، فحفظ حيدر، هو ايضا، وثائق كثيرة تتعلق بحكم بشير الثاني وروى أخباراً وعنعنات عن لبنان القديم تصلح للاستنارة بها في المحاولة لفهم ذلك القديم.

وهكذا «وضع» حيدر المذكور تاريخا ضخماً عنوانه «الغرر الحسان في أخبار ابناء الزمان» جمع مادته من مصادر كثيرة اكثرها مضطرب إلا أنه زيَّنه بوثائق رسمية خطيرة جداً بالنسبة الى عهد بشير الشهابي الثاني. ولولا تعصبه التعصب الأعمى لنسيبه المذكور وجعله منه الحاكم الأعظم الأعدل لعدّت مروياته عن العهد البشيري مرجعاً منسوباً الى شاهد عيان. ويخفف من عيب تعصب «المؤلف» لنسيبه أنه كان أصدق مساعديه له ومن ألصقهم به فمعقول جداً أن يكون قد رأى المعاملة الحسنة منه، ناهيك بأن ابنته الست فانوس كانت زوجة الأمير أمين بن بشير المذكور، مما زاد في أواصر التوافق بينهما.

وعمل أدباء كثيرون من مختلف المذاهب في مساعدة «المؤلف» على وضع تاريخه، منهم فارس الشدياق، قبل صيرورته أحمد فارس، فعرفه معرفة صحيحة تسمح له بالقول عنه أنه كان «على جانب عظيم من التغفل»، لكن هذا القول لا يمنع من أن يكون تاريخه الذي ساعده فيه كثيرون مرجعاً ذا شأن.

وطبع كتاب «الغرر الحسان» طبعة اولى بمصر سنة ١٩٠٠ بجهد المرحوم نعوم مغبغب ثم طبع ثانية بالمطبعة الكاثوليكية ببيروت

(١٩٣٣) بجهد المرحوم الدكتور أسد رستم والعلاّمة فؤاد افرام البستاني وتعتبر علمية ومتقنة.

(٢) معركة عين دارة: اختلف الرواة في تاريخ وقوعها. والذائع أنها وقعت سنة ١٧١١، وقد أتى القيسيون اعداءهم في حصن قيادتهم (عين دارة) على غرة وحطموهم بعد عراك عنيف. واشترك منهم في المعركة امراء شهابيون وأفراد من آل القاضي وأبي اللمع والعماد والخازن ونكد وتلحوق وعبد الملك كما اشترك معهم كاهن قرية رشميا وزعيمها الخوري عبدالله صالح. وبعد انتصار منحهم الحاكم حيدر شهاب لقب شيخ لهم ولذراريهم، إلا الامراء ابي اللمع فقد كانوا امراء قبل المعركة على ما حققه المؤرخ اسطفان البشعلاني.

اما ممثلو اليمانية فلم يشتركوا جميعا في الحرب وانما خاضوها قلة بقيادة الطاغية الجبار محمود باشا هرموش، وهم الامراء آل علم الدين التنوخيين (الفرع الآخر الذي انشق عن اقربائه القيسيين) وبعض المقدمين الصوافين وواحد من الامراء الارسلانيين.

وعاشت الحزبية القيسية اليمانية منذ دخول جبل لبنان حتى انقراضها في حرب عين داره حزبية عشائرية عربية يعتنقها المسيحيون والمسلمون والدروز، وقد تطاحنت في تلك الحرب تطاحن المستميت وقلبت مصير الجبل رأساً على عقب، وكانت أخطر حادثة في تاريخه الوطني بعد شنق فخر الدين الثاني، ولم تعرف التفرقة الدينية، فحارب الدروز القيسيون ابناء دينهم الدروز اليمانيين، وانضم الى الأولين جنود مسيحيون، والى الآخرين جنود مسيحيون، ولم ينظر واحد من جميع المتحاربين الى مذهب خصمه الديني وانما كان يحارب حزبيته.

(٣) الانبراطورة كاترين الروسية (١٧٢٩ - ١٧٩٦): زوجة الانبراطور الروسي بطرس الثالث (وكلاهما الماني الأصل)، تآمرت على مخلعه، وقيل: قتلته، وخلفته في الحكم (١٧٦٢) وراحت تخوض الحروب شمالاً وجنوباً وترجع جيوشها منها منتصرة فلقبت بكاترينة الكبيرة،

اسوة ببطرس الكبير المصلح العاتي، واشتهرت بأنها اقتفت أثره طمعاً بالسلطنة العثمانية واحتلت بلداناً خاضعة لها أهمها بلاد القرم باعتبارها «طريق بيزنطية» - استنبول - الحلم الروسي منذ الساعة الاولى وحلم كاترينة بأن تجعلها مرفأ روسيا.

وقد وضعت كاترينة خطة باسم «المشروع الشرقي» لاثارة الأقطار العربية والبلقانية التي تتحرك فيها رغبة التحرر من النير العثماني، ومساعدتها للانتفاض عليه، فكان ضرب اسطولها لبيروت جزءاً من ذلك المشروع.

وساعدت كاترينة العلماء والفلاسفة وقربتهم الى بلاطها. واصلحت الدولة بالبطش والطغيان. وخضعت لشبقها فملأت حياتها الخاصة كبائر حتى اتهمت بمضاجعة خدام قصرها...

(٤) ظاهر عمر الزيداني، (١٦٩٤ - ١٧٧٥): عصامي من عربان فلسطين، قيل في أصله أنه يرجع الى زيد حفيد الامام علي بن أبي طالب. اشتهر بالبطولة والجود والوفاء فأحبته الناس وبايعه أهل طبرية على أن يكون كبيرهم يرد عنهم ظلم الولاة العثمانيين والاقطاعيين المحليين، وعلى أنهم جنوده واصحابه.

وقام ظاهر بالمهمة وشعاره: «لا يستقيم أمر البلاد إلا بالعدل والوقوف عند الحدود». وبسبب هذا الشعار نشأت خلافات كثيرة بينه وبين الحكام ومشايخ العربان فانبرى لهم يحاربهم ووفق في أكثر معاركه حتى استولى على ديار صفد والناصرة وحيفا والرملة وغزة ويافا وصيدا. ورممها وأعاد لها بهجتها وبنى حولها سوراً يحميها.

وانشأ ظاهر شبه «دولة» ووظف خبيرين بلديين لتنظيم شؤونها المالية والقضائية والعسكرية؛ وحالف سياسة الانبراطورة كاترينة الروسية في مشروعها الشرقي متأثراً بمجاملة الاقوياء - او مضطراً الى محالفة الشيطان التشرشلي: عدو عدوي حليفي - فلما استبد أحمد الجزار بحكم بيروت مستقلاً عن سيده الأمير يوسف الشهابي لجأ الأمير

يوسف الى جاره ظاهر، فلباه هذا مشترطاً أن تصير بيروت في حكمه، واستعان بالأسطول الروسي فضرب المدينة واكره الجزار على الانسحاب منها.

ولمع اسم الشيخ ظاهر بين أخطر زعماء الشرق. وكاد يعلن استقلاله عن السلطنة العثمانية بمعونة حلفائه وجيرانه أهل جبل عامل، لو لم ترهقه الحروب المتتابعة، ولولا خيانة من كان يأتمنهم من حاشيته وأخوته وبنيه فانتهى بأن قتل غدراً، وانهار بيته وتلاشى سلطانه. وقال حيدر الشهابي في التاريخ المنسوب اليه أنه شاهد ابنة ظاهر، وحفيدته، «تتسألان الصدقات من الناس، والعوذ بالله من تقلبات الزمان» (طبعة مصر: ص ٨٣٢). وقال المناضل الوطني السوري فخري البارودي في مذكراته أنه من ذرية ظاهر. (ج ١، ص ٩).

(٥) احمد الجزار، (١٧٣٥ - ١٨٠٤) متطوع من البشناق، احدى جمهوريات يوغوسلافية اليوم وكانت مع البانية من أهم المقاطعات العثمانية التي تقدم للسلطان جنود الغزو. بدأ احمد حياته متسكعا على الأبواب ونقله طموحه الجريء الى مصر وخدم بعض بكواتها من بقايا المماليك وسفك بأسلوب همجي دماء منافسيهم فلقبوه بالجزار واشتهر بلقبه.

وبعد مجازفات قام بها الى جبل لبنان عند حاكمه الامير يوسف الشهابي عيّنه هذا بتوصية من وزير الشام متسلماً من قبله على بيروت فحصنها الجزار وتمسك بحكمها مستقلاً بها. ومعقول جداً أن يكون قد اتفق على ذلك مع استنبول التي كانت تنظر دائماً بعين الحذر الى توسع الحكام العرب في مناطقهم وازدياد نفوذهم. ولما عصى الجزار سيده استعان الأمير يوسف جاره ظاهر العمر وأخرجا الجزار من بيروت بقوة الأسطول الروسي.

وكان للاقطاعيين الدروز والشهابيين مبان ومصالح كثيرة في المدينة، واراض مترامية شاسعة خارج سورها.

(٦) خرج الجيب: نوع من تبليص كان يفرضه النواب المماليكيون على الاغنياء في نياباتهم (مقاطعاتهم). ثم قفا أثرهم الباشاوات في الحكم العثماني وفرضوه على موظفيهم في المدن الصغيرة وعلى الأمراء والمشايخ الأقطاعيين الذين في ايالاتهم. وليس هذا النوع من الضرائب شرعياً بل أنه تسول وطمع وتبليص بالمعنى الكامل طلبه الحاكم بحجة أنه مضطر للإحسان الى السائلين بعد صلاة الجمعة ومضطر أيضاً الى اهداء هدايا خاصة، تشجيعاً او مكافأة، وتعزية أو تهنئة، ولكن ماله لا يكفيه لذلك الاحسان وهذه الهدايا، ولهذا يفرض على الاقطاعيين وكبار الموظفين والمقتدرين من أصحاب المصالح ما سموه بخرج جيب. وهذا المال الذي يبلصه الوزير الباشا لا يسجل في الدفاتر الرسمية بل يدخل صندوقه الخصوصي لنفقاته الخاصة. والوزير الجزار كان يدوّن خرج الجيب الذي يدخل عليه والهدايا التي يهديها في سجل خاص وكان يسترجع هداياه أحياناً!!

(٧) كلمة «عامية» في عرف العهد الاقطاعي هي الثورة التي تعلنها الجماهير على الحاكم. وسميت بهذا تمييزاً عن «القومات» التي يقوم بها الاقطاعيون على الحاكم. وقد استغلت العاميات غير مرة لمآرب اقطاعية ووصولية وحوّلوها عن مجراها. ولفظة عامية ترجمة حرفية لكلمة COMMUNE الفرنسية التي سميت بها ثورة الشعب الباريسي سنة ١٨٧١ غير أن فلاح جبل لبنان سبق الباريسيين في ممارسة العامية. وفي مجلة «اوراق لبنانية» – ٢: ص ٣٨٩ و ٤٣٣ كلام مفصل على العامية اللحفدية، مع مراجع رئيسية.

(٨) الانكشارية: تحريف للكلمة التركية «يكيجري» (تلفظ الكاف نوناً وهي حرف تركي اسمه الكاف النونية) ومعنى يكيجري: الجيش الجديد. وهو جيش نظامي انشأه السلطان اورخان في القرن الرابع عشر ودرّبه تدريباً منتظماً وجعله اكبر جيش منظم في الشرق. وبه استولى على بلدان آسية الصغرى الخاضعة للانبراطورية البيزنطية.

والانكشارية هم الذين فتحوا استنبول، ثم فتحوا القسم المتحضر من العالم العربي. وهم الذين وسعوا رقعة السلطنة العثمانية في الشرق والغرب حتى عدت أعظم دولة حربية.

ولما اخذت السلطنة بالامتداد احتاجت الى جنود لتكبير الجيش فصارت تفرض على البلدان التي تحتلها جزية من ابنائها الفتيان تعلمهم الدين الاسلامي في مدارس خاصة وتدربهم التدريب العسكري ثم تدخلهم «الجيش الجديد»، وتعدّهم ارقاء للسلطان. وصار هؤلاء يتزوجون القرويات التركيات ويسمى ابناؤهم «قول أوغلي» (ابناء الارقاء) ويصيرون انكشارية.

وتطور تنظيم هذا الجيش وتسليحه حتى اشتدّ ساعده وسيطر على جميع قوى الحكم واستبد بالسلاطين وقصورهم وصار يرغمهم على تنفيذ مطامعهم، وعلى تعيين الوزراء والولاة والموظفين الذين يرغبون فيهم، وعلى عزلهم أو سجنهم أو قتلهم فيما اذا استاؤوا منهم. وهكذا اسسوا سلطنة أخرى وانتشرت الفوضى والرشوة والانقسامات حتى وصلت السلطنة الى شفير الهاوية. وظل الانكشارية على الاستئثار بالحكم حتى قضى عليهم السلطان محمود قضاء تاماً (١٨٢٦) على أثر فتنة قاموا بها.

واستطرادا: في ظل ذلك الحكم الانكشاري عاش العالم العربي! (انظر: كتاب «دولة عسكرية عثمانية»، بالفرنسية، بقلم ج. ماكريياس – استنبول: ١٨٨٢ – و «تاريخ الدولة العلية العثمانية» لمحمد فريد: ص ٤٢ و ٤٣، وص ٢١٩ و ٢٢٠ (ط ٣، القاهرة).

(٩) الممتلكات العثمانية: هي الاسم الحكومي الرسمي لكل أرض خاضعة للسلطان، اغربية كانت أم شرقية، على اختلاف الجنسيات. انها ملكه – من «ممتلكاته» – وما حاكمها سوى عبد لجلالته ووكيل عنه في إدارة شؤونها وجباية ضرائبها. وبذلك العرف الرسمي كان حكام لبنان عبيد السلطان، ولبنان ملكه، اسوة بجميع الحكام والمقاطعات.

إلا متى ضعفت حكومة استنبول وهان امرها، وقوي ساعد أمير لبنان وأحسن الحكم واستطاع أن يستقل بأرضه استقلالاً فعّالاً مع مراعاته السيادة العثمانية الرمزية!

(١٠) فقد بشير والده وهو في السنة الاولى من طفولته (١٧٦٧)، فتزوجت أمه ثانية واضطرت الى الابتعاد عنه وعن شقيقه حسن. وعاش اليتيمان بضع سنين بقهر وفقر في بستان لهما بقرية برج البراجنة. ثم انتقلا عند نسيبهما الحاكم الأمير يوسف في دير القمر فعطف عليهما ورباهما وصار يكلفهما ببعض مهام لديه. وكان وفاء بشير بمربيه ان مال سرّاً الى اعدائه وخانه طمعاً بالوصول، وجاراهم في تآمرهم على خلعه. وكان اولئك المتآمرون برئاسة الزعيم والثري الكبير الشيخ بشير جنبلاط قد عيل صبرهم من استبداد الامير يوسف وانتقامه من معارضيه (سمل عيون، قطع ألسنة، قتل، مطاردة، خرب بيوت، الخ...) وكثرت اخطاؤه – ومن افدحها عبثه بصداقة حلفائه وأنصاره بني علي الصغير زعماء جبل عامل حتى قال فيه نسيبه صاحب «الغرر الحسان» «...فلم يحفظ الجوار ولا رعى الذمم، ولامته الناس على ذلك» (ج ١، ص ١٤١). وظل الوزير احمد الجزار حاقداً عليه منذ اخراجه من حاكمية مدينة بيروت، واحرجه كثيراً بعد صيرورته وزيراً حتى اضطره للاستقالة (١٧٨٨). وفي رواية أن الامير يوسف هو الذي رشح ربيبه بشيراً ليخلفه وقال له: «انزل يا ابني الى عكا عند الجزار وتفاهم معه»، وأجاب الشاب: «اخشى أن أنزل ابنك وارجع ابن الجزار.» والرواية قصها المؤرخ طنوس الشدياق (ص ٥٥٨) ولكنها حكاية قروية ... ونحن نميل الى الظن ان الست شمس الأرملة الشهابية الحسناء التي تزوجها الأمير بشير الشاب، والحاقدة على نسيبها الحاكم الأمير يوسف لقتله زوجها الاول، وهو ابن خاله، كانت من العناصر التي أثارت بشيراً فخان مربيه. وكم في حياة المربي والربيب من اسرار!

(١١) محمود الثاني (١٨٠٨ – ١٨٣٩): قضى على الانكشارية وفسادهم فلقبه الاوروبيون بالمصلح. ولي ابنه عبد العزيز (١٨٣٠ – ١٨٧٦) العرش سنة ١٨٦١ خلفاً لأخيه السلطان عبد المجيد صاحب فرمان «كلخانة» والاصلاحات الخيرية. ومنذ الساعة الاولى بدأ عبد العزيز عهده باتباع خطة أخيه في التظاهر بفرض المساواة بين جميع أفراد المواطنين على اختلاف مللهم ونواحلهم، فاعلن ارادته السلطانية بأن لا تكون تفرقة في «العدالة والتأمين والهمة (العمل) وحسن الحال، بين جميع العثمانيين على اختلاف الأديان والأجيال» – (من كتابه في أول تموز ١٨٦١ الى الوزارة التي أبقاها في الحكم على أثر وفاة أخيه.) وقد أعلن ما أعلنه حتى لا يكون للدول الغربية حجة كي تتدخل في شؤون الدولة.

وفي عهد عبد العزيز عدّلت الدول الاوروبية بالاشتراك مع استنبول نظام جبل لبنان الذي كانت قد وضعته سنة ١٨٦١، وكرست فيه استقلاله الداخلي.

وفي عهده ايضا فتحت قناة السويس (١٨٦٩) بأبهى حفلة شهدها الملوك والامراء والعظماء. وعبد العزيز هو بعد السلطان سليم أول خليفة عثماني زار مصر، ونشأت بينه وبين الخديوي اسمعيل صداقة، بعد عداء والديهما. ومن غرائب الصدف أن كلاً من الصديقين قد خلع عن العرش، وهما شديدا التشابه في التبذير والفحشاء الخ... وبلغ من تبذير السلطان عبد العزيز أن تصرف بخزانة الدولة تصرفاً كيفياً مما أدى الى خلعه (١٨٧٦) بفتوى من شيخ الاسلام تقول إن السلطان «مختل الشعور وليس له إلمام بالأمور السياسية. وما برح ينفق الأموال الاميرية على شؤونه النفسانية (شهواته) بدرجة لاطاقة للدولة، ولا الملة، على تحملها. وقد أخلّ بالأمور الدينية وشوشها وخرب المملكة والملة.»

وروى الدبلوماسي الانكليزي جورج يانغ الذي عاش عمراً مديداً في السفارة البريطانية باستنبول وعرف خبايا القصور وأسرار السلاطين أن

السلطان عبد العزيز ترك في سراياته يوم خلعه الفاً ومايتي امرأة بين زوجات ومحظّيات، وام وأخوات وبنات، وجوارٍ، ينفق عليهن سنوياً من اعتماد خاص في موازنة الدولة ما قدره مليونا ليرة عثمانية ذهباً – في ذلك الزمان! – (جورج يانغ: «كونستانتينوبل»، الترجمة الفرنسية: ص ٢٠٩).

(١) جامع المختارة: بناء هذا الجامع روى خبره مؤرخون كثر من معاصريه. وتبسط فيه رجل رصين خدم الشيخ بشيراً جنبلاط بكل اخلاص في مهام خطيرة وعرف حقيقة سياسته معرفة تامة، وحفظ له الود بعد مصرعه، هو العالم الدكتور ميخائيل مشاقة الذي قال: «... وتظاهر الشيخ بشير جنبلاط باسلامه. وتأييداً لاعتناقه مذهب الاسلام بنى جامعاً أمام قصر (...) والشيخ بشير، بتركه دين أجداده واعتناقه دين الاسلام لم يكن إلا لغايات في صدره يريد تنفيذها. وكانت نفسه تطمح الى ولاية لبنان.» (انشأ الخبر انشاء جديداً ملحم خليل عبده واندراوس حنا شخاشيري – مصر ١٩٠٨).
ولما غدر الوزير عبدالله باشا بالشيخ بشير جنبلاط في عكا كتب الى الحاكم الشهابي شريكه في الجريمة «بهدم جامع المختارة الذي بناه الشيخ من جيبه لأنه كان يرتاب باسلامه ويعده مذبذباً زنديقا لا دين له» كذا! («مشهد العيان»: ص ٩٥ – والشدياق: ص ٥٥٨).

عهد ابرهيم باشا

(١) ابو سعدى: كنية زائفة للامير بشير الثاني، ابتكرها المعلم بطرس كرامه رئيس كتاب الامير الحاكم تملقًا للست حسنجهان الزوجة الثانية للامير. اما كنيته الحقيقية فهي «ابو قاسم» الابن البكر من زواجه الاول. ولكن ما أن جيء له من استنبول بالشركسية الحسناء حسنجهان زوجة ثانية له، بعد فقده زوجته الاولى أم أولاده الذكور الثلاثة، حتى سيطرت العروس الشابة على الزوج الشيخ المتصابي، وسيطرت بالتالي على سرايته، فاخذت حاشيته بالنفاق والزلفى لها. وكان المعلم بطرس كرامه سيد المتزلفين، فزوّر كنية مولاه الحقيقية «ابا قاسم» وكناه بأبي سعدى اسم الابنة الاولى التي رزقها من زوجته ومتيمته حسنجهان التي سلب هواها لبه.
وجارى المتملقون المعلم بطرس في ازدلافه فاشتهر الامير بكنيته الزائفة. ومعظم الكتاب الحاليين واقعون في هذا الخطأ..

(٢) الاسر الطرابلسية التي أنجبت العلماء في القرن الماضي، ومنها كان يعيّن المفتون والقضاة ونقباء الاشراف، هي، بالترتيب الابجدي:
الاحدب، الادهمي، الافيوني، البيصار، الثمين، الجسر، الحافظ، الحسيني، الذوق، الرافعي، الزغبي، زيلع، سلطان، سلهب، السندروسي، الشهال، الصوفي، القاوقجي، كرامي، المغربي، المقدم، منقاره، الميقاتي الخ...

اعطيت ملكا

(١) الكولونيل روز: هو في البدء من رفقاء المبشرين البروتسطان الذين درسوا العربية في مالطة على علامة عصره فارس الشدياق اللبناني (الذي صار بعدها احمد فارس صاحب «الجوائب» في استنبول). وكانت مالطة المحطة الاولى لاولئك المبشرين في طريقهم الى العالم العربي، ثم انتقلوا منها الى بيروت ومعهم مطبعتهم.

ولما استشرى خطر ابرهيم باشا المصري على السلطنة العثمانية وعملت انكلترة على اجلائه عنها أرسلت (١٨٤٠) قطعاً من أسطولها ترافقها بارجتان نمسويتان، وبارجة عثمانية للتمويه، لضرب المعسكرات المصرية في الشواطيء اللبنانية. وجاء مع هذا الأسطول الكولونيل روز لتشجيع الثورة اللبنانية وادارة السياسة الانكليزية الجديدة في طريق الهند.

وسبق الكولونيل الى لبنان جاسوس انكليزي آخر اسمه ريتشارد وود، عمله الظاهر ترجمان في السفارة الانكليزية باستنبول. وزعم يوم وصوله أنه آت ليدرس العربية واختار كاهناً مارونياً ذا شأن في جونيه لتدريسه، اما مهمته الحقيقية فاستغلال استياء الشعب اللبناني من سوء الحكم الذي تدهور اليه الاحتلال المصري. وبواسطة الكاهن اتصل ريتشارد وود بأفراد من المشايخ الخازنيين وبأشخاص آخرين وأعدّهم لليوم المنشود. وسهلت على صاحبنا مهمته لكونه كاثوليكي المذهب يطمئن اليه الموارنة وبطريركهم. وهكذا استطاع أن يوطد علاقة الصداقة والهدايا بينه وبين أصحابه واستطاع أن يمهد السبل أمام رئيسه الكولونيل روز لاستغلال الثورة على ابرهيم باشا.

ووهم الكولونيل من مماشاة بعض الاقطاعية المارونية للمآرب الانكليزية أنه ملك القاعدة الشعبية التي يعتمد عليها في لبنان، ولكن البطريرك الحبيشي خيّب امله.

وبعد جلاء جيش ابرهيم باشا عن بر الشام عيّن الكولونيل روز قنصلاً عاماً لحكومته في سورية، وهو أول قنصل فيها، ودخل دمشق بأبهة دخول الملوك!

وكانت لصديقه ريتشارد وود أطوار مدهشة، ونزعات مريضة، فهو يحرض بالاتفاق مع روز على ذبح المسيحيين وطردهم من بيوتهم، ولكنه يبكي ساعة يرى متسولاً جائعاً ويعطيه ما في جيبه من نقود. وله مع صديقه الصيرفي اليهودي فارحي حكايات عن اضطهاد الموظفين المسيحيين بدمشق واثارة زملائهم المسلمين عليهم...

(٢) عمر باشا النمسوي: (١٨٠٦ – ١٨٧١) اسمه الاول شارل لاتاس كاثوليكي من كرواسية إحدى مقاطعات مملكة المجر القديمة (هي في يوغوسلافية الحالية). عمل في جيش المجر قائداً ذكياً وشجاعاً واضطر للهرب الى ولاية البوسنة العثمانية بسبب تهمة ألصقت به وعمل في الجيش العثماني واعتنق الاسلام متخذاً اسم عمر. وبسرعة رقي الى رتبة لواء وهو في عنفوان الشباب. ثم نقل الى استنبول وعين معلم التاريخ والفنون العسكرية لولي العهد الأمير عبد المجيد (السلطان عبد المجيد بعدها).

ولما عزل الامير بشير بو طحين من إمارة الجبل أصدر السلطان عبد المجيد فرماناً بتعيين أستاذه عمر باشا خلفاً للأمير المعزول وطلب اليه بذل الجهد لأجل عثمنة لبنان عثمنة كاملة والقضاء على امتيازاته.

ولكن عمر باشا لم يوفق بهذه المهمة وفشل فشلاً ذريعا.

واضطرت استنبول الى استرجاع صاحبنا بعد أن قامت قيامة اللبنانيين عليه، دروزاً ومسيحيين، وحاصروه في بيت الدين، فعاد الى الجيش وأخذ يتدرج في مناصبه القيادية حتى صار «سر عسكر الجيوش العثمانية» (قائداً عاماً). وخاض المعارك التاريخية ضد روسية وانتصر

فيها كلها «فأدهش فوزه المبين جميع العالم المتمدن». وكان أهم انتصاراته في حرب القرم التي قاد فيها الحملة العثمانية.

والمعجب في أمر عمر باشا أنه لم يخض معركة في حياته العسكرية الا وانتصر فيها ولكنه انكسر في معركته لعثمنة لبنان انكساراً مدويا!

وقال المنسنيور ميسلَن، مرشد امبراطور النمسا، في كتاب رحلته الى «الاماكن المقدسة» انه شاهد عمر باشا في ڤيانه «محفوفا باكرام البلاط والمدينة» – الترجمة العربية للأب اغناطيوس طنوس الخوري: ص ٦١٨ – ومتى ذكرنا أن البلاط النمسوي كاثوليكي ومدينة ڤيانه شديدة التكثلك، وجب علينا أن نفسر رواية المنسنيور ميسلَن أكثر من تفسير...

ومن أحب معرفة حياة عمر باشا النمسوي الحربية فليقرأها في مجلة «المقتطف» في مجلدها الـ ٣٧ (١٩١٠)، وفي تاريخ الدولة العلية العثمانية «لمحمد فريد» ص ٢٦٥، ٢٨٩، و ٢٩٧، و ٣١٣ الخ...

اقطاعية اشتراكية روحية

(١) هم جبريل حواء وعبدالله قراعلي ويوسف البتن. غادروا مدينتهم في ربيع سنة ١٦٩٤ لزيارة الأراضي المقدسة. وبعدها التقوا في زغرتا وصعدوا الى المقر البطريركي في قنوبين وقابلوا السيد الدويهي وعرضوا عليه ما يتوقون اليه من تأسيس رهبانية مارونية تستوحي دستورها من مختلف القوانين الرهبانية المعمول بها في العالم الكاثوليكي. ورفض السيد البطريرك في البدء طلبهم لعلمه بما في سبيل أمنيتهم من مصاعب. ولكن الشبان لم ييأسوا واعادوا الكرة على البطريرك مراراً حتى قبل أخيراً طلبهم. وكانت ساعة خير لطائفته وللبنان والشرق.

(٢) البطريرك اسطفان الدويهي (١٦٣٠ - ١٧٠٤): من اسرة عريقة ذات شأن في لبنان الشمالي. ارسله بطريركه صغيراً الى المدرسة المارونية في روما، منجبة الملافنة والفلاسفة، فدرس علومه كلها فيها، وسبق اقرانه «على شبه النسر الذي يفوق كل الطيور بالطيران». اشتهر في الأوساط الاكليريكية كلها بذكائه وعلمه وتقواه ورغبت رهبانيات ايطالية كثيرة بانتزاعه اليها فاعتذر بأن وطنه لبنان محتاج اليه لتعليم بنيه. عينه مجمع نشر الايمان مرسلاً رسولياً فعاد الى وطنه مشتعلاً شوقاً وحماسة لتحقيق رسالته.

طلب موارنة حلب الى البطريرك مرشداً ومعلماً فأوفده اليهم، ومكث بينهم ست سنوات وصارت مواعظه حديث المدينة على بكرة أبيها. ومن حسناته فيها جهاده الجريء في مساعدة المطران اندراوس أخيجان الذي كان يدعو طائفته السريانية الى الانضمام الى الكنيسة الكاثوليكية.

عين اسقفا على قبرص ولكن اسقفيته لم تطل سنة واحدة اذ إن طائفته اختارته بطريركاً عليها خلفا للبطريرك جرجس السبعلي، فطفق يزور ابناءه في مختلف مقاطعاتهم.

ما زار بلداً الا وفتش عن المخطوطات التي تشير الى طائفته، او تذكر واحداً من ابنائها، او تذكر لبنان، فكان ينقلها أو يشتريها.

وضع كتباً عديدة وقيمة في الدين وفي التاريخ واعتبره المؤرخون الذين جاؤوا بعده مستندهم وعميدهم. وما يزال كتابه «تاريخ الازمنة»، على قدمه، حجة ومعلماً يرجع اليه اليوم. له يد كريمة في تضييف الرعاة السريان الكاثوليكيين والروم الكاثوليكيين والأرمن الكاثوليكيين الذين لجأوا الى جبل كسروان هرباً من الاضطهاد وطلباً للحرية في ممارسة معتقدهم الديني. وبمسعى البطريرك الدويهي حماهم المشايخ الخوازنة.

سنة ١٧٠١ كتب اليه لويس الرابع عشر ملك فرنسا يجدّد حمايته له ولطائفته. حدث قبيل وفاته أن ثلاثة من متزعمي العشيرة الحمادية ضمنوا جباية ضريبة الجزية المفروضة على منطقة الجبة، فاهانوا البطريرك لأنه رفض الخضوع لتبليصهم وضربه احدهم على رأسه وأسقط منديله على الأرض، فكتب البطريرك الى المشايخ الخازنيين حكام كسروان بما جرى له. واثار نبأ الاعتداء الشائن غضب حكام الجبل وطرابلس وجاء أربعماية جندي لنقل البطريرك الى كسروان. فندم الشيخ عيسى كبير الحمادية على ما حدث. قال المطران بطرس شبلي في ترجمته للبطريرك الدويهي: «ووقع الشيخ عيسى حماده على قدميه قائلاً: أسألك يا مولاي أن تغفر لي زلتي ولا تنتقل الى كسروان، وانا قدامك من الآن، ورهين أمرك في كل ما تريد. وان شئت أن تدوس رقبتي الآن فافعل ما تشاء.» وكان خوف الشيخ عيسى من انتقال البطريرك الى كسروان أن يعزل من جباية الضرائب ويسقط من عين الأمير بشير الاول الذي شفع به عند حاكم طرابلس حتى عينه على الجبة. قال المطران شبلي: «فاجابه السيد البطريرك: اني اغفر لك جميع ما عملته

معي، واني لمستعد واشتهي أن أحمل اكثر من ذلك حبا بسيدي (المسيح) الذي لأجلي تألم ومات. لكن شعبي لا يدعني أن أمكث في الجبة.» (ص ٢٢٤).

وتوفي العلامة الملفان اسطفان الدويهي من شدة تأثره من تلك الاهانة والتاريخ يذكره بعملين خالدين: مصنفاته التاريخية الدينية والزمنية، وتأسيسه الرهبانية المارونية وصبره على بعض ابنائها...

(٣) وادي قنوبين: من أعمال بشري في سفح الارز. وقنوبين من اليونانية، بمعنى بيت تعيش فيه جماعة من الناس عيشا مشتركاً. ودير قنوبين في البدء مغارة سكنها ناسك في أواخر القرن الرابع يقال إن اسمه توادوسيوس. واقتدى به نساك آخرون وبنوا حوله غرفاً بدائية. وقد بدأ المتعبدون المارونيون سكنى قنوبين منذ انتشارهم في المنطقة. وفي القرن الرابع عشر صار الدير كرسي أسقفية باسم مطران سيدة قنوبين. اول بطريرك سكنه يوحنا الجاجي في سنة ١٤٤٤ وجعله مقاماً بطريركياً بحماية المقدم يعقوب بن أيوب حاكم بشري فسكنه بعد الجاجي ثلاثة وعشرون بطريركاً واشتهر ساكنيه وصار مقصداً للاوروبيين الذين يزورون الشرق، وقال فيه احدهم مسيو دي لا روك انه عش نسور. ذكر البطريرك الدويهي عنه حادثة لم نقرأها الا في كتابه «تاريخ الازمنة»، وهذا نصها:

«... ولما تدروش الملك الظاهر (سلطان مصر) قدم الى قرية بشري شرقي طرابلس فأقام الشدياق يعقوب بن أيوب مقدماً وكتب له بذلك صفحة من نحاس. ثم نزل الى دير قنوبين فاقتبله القس بطرس رئيس الدير بكل كرامة، فحرر (الملك) على صفحة بأن ديره يكون معاف، وان تكون له الرئاسة على كافة الأديرة بتلك الجهات. وعندما عاود الملك الظاهر الى الكرك كان البطرك داود قاطن بأرض حردين بدير مار سركيس القرن، فرسم القس بطرس اسقفاً وقرره بدير قنوبين. وسمي قنوبين من اجتماع الرهبان وكان يقال له: دير المائتين

راهب...» - ط. توتل: ص ١٩٠ - وننقل كلام الدويهي بتحفظ شديد. والله أعلم!

(٤) ان البطاركة المنحدرين من أسر اقطاعية كبني الخازن وبني حبيش، لم يكونوا دائماً كثيري الوداعة المسيحية في معاملتهم الأساقفة والرهبان والارساليات الأجنبية، ناهيك بأفراد الشعب، فهم بتأثير تربيتهم الاقطاعية (مال ووجاهة، ودلع وسلطان زمني) لم يقو التعليم الديني على تليين ملمسهم تليناً كاملاً. وزاد في تصلبهم وتشددهم ان الارساليات الأجنبية التي لقيت الترحيب الأخوي الخالص لدى موارنة جبل لبنان عند وصولها الى شطآنه - ووحدهم، وحدهم، دون سواهم رحبوا بها - يوم استقبلها الشعب عامة وبنو الخازن على الأخص، بمحبة وايناس، وساعدوها معنوياً ومادياً وقدموا لها الأديار والأراضي - لم تحفظ جميعها جميل الموارنة. وظل البطاركة يذكرون ما عملته إحدى الارساليات اللاتينية بموارنة القدس وبيت لحم والناصرة حتى اذابتهم في رعويتها وقلبتهم الى لاتين. وظل البطاركة يذكرون ما عملته بعض الارساليات اللاتينيات بموارنة دمشق وموارنة حلب، وكان عددهم في حلب وحدها أكثر من خمسة آلاف نسمة، في ذلك الزمان: القرن السابع عشر. ولم ينس البطاركة ما عملته معظم الارساليات اللاتينية بموارنة بيروت وكهنتهم. ولم ينس البطاركة ما عملته بعض الارساليات اللاتينية بالبطاركة أنفسهم وحملاتها عليهم. الخ... الخ... الخ...

تلك الذكريات، وسواها أدهى وانكى وأشد ايلاما، جعل البطاركة المارونيين يستقبلون بعض مشاغبي الارساليات اللاتينية بحذر، وان لا يقروهم على تجاوزاتهم، وان يؤنبوهم مراراً ليعيدوهم الى الصواب، وان يروا فيهم دائماً طغمة غادرة تحرض بعض الرهبان على رؤسائهم البطاركة، وتحثهم على كتابة رسائل الشكوى منهم الى مجمع نشر الايمان في روما - وما ادراك! (يراجع ما كتبه في هذا الصدد المثلث

الرحمة المطران بطرس شبلي في الفصل السابع من سيرة البطريرك اسطفان الدويهي.)

(٥) لم يكن للكاثوليكيين العرب في القطر المصري كاهن يخدمهم – او يحق له أن يخدمهم، ذلك لأن حكم المماليك فيه حصر هذا الحق بالمرسلين الفرنسيسيين الأجانب. ولم يكن عدد الكاثوليكيين العرب كبيراً في وادي النيل، ولم تبدأ الصلاة الكاثوليكية ترتفع الى الله باللغة العربية في مصر الا من أفواه الموارنة، ومثلها ارتفعت في اديارهم بروما عاصمة الكثلكة، كما ارتفعت من قبل من أفواه مطارنتهم وكهنتهم الموفدين الى البابوات في مهمات رسمية. واول مرة في التاريخ سمعت في كاتدرائية الحبر الأعظم بالمدينة الأبدية صلاة بالعربية انما كانت صلاة البطريرك أرميا العمشيتي الماروني.

ولا نعرف بالضبط تاريخ بدء الهجرة المارونية الى مصر. ومن الثابت المؤكد أن في مطلع القرن السابع عشر كانت فيها جالية مارونية وقد زارها البطريرك جرجس سنة ١٦٣٨ متفقداً أبناءه فيها. وفي سجل الزواج المحفوظ بدير الفرنسيسكان بالموسكي ما ترجمته: «تكلل موسى الماروني في ١٢ اكتوبر ١٦٤٣ بحضور كل الموارنة.» وكلمة كل، خصوصاً هنا، تشير الى جمهور.

وفي سنة ١٧٤٥ اوفدت الرهبانية الحلبية اللبنانية المارونية الى دمياط القس موسى هيلاني لتأسيس رسالة تخدم الكاثوليكيين العرب فيها (سافر القس موسى من لبنان على سفينة شراعية في ١٧ من حزيران ومعه ماية وعشرون غرشا. ووصل الى دمياط في ٥ من تموز. اي قضى ثمانية عشر يوماً في البحر من بيروت الى دمياط!) فاستأجر بناية كبيرة تعرف باسم «البارجة» على شاطىء البحر، في خط البنط، من أوقاف الحاج ابرهيم خفاجي، وجعل قسماً منها كنيسة وقسما لسكناه وقسما للضيوف.

وتتابعت الكنائس المارونية: في القاهرة (على أرض اسمها معمل البارود بمصر القديمة) ثم في درب الجنينة، وفي الزقازيق، وفي بور

سعيد، وفي طنطا وفي شبرا وفي الخرطوم (السودان) وفي مصر الجديدة وفي الزيتون (استندت في كتابة هذه النبذة الى «كتاب اليوبيل القرني الثاني للرهبانية الحلبية المارونية في وادي النيل.»

(٦) بعد تكاثر عدد الرهابين من مختلف المقاطعات ظهرت بينهم نزعة اقليمية لم تلبث أن شطرتهم شطرين: كسرواني وشمالي، وظهورها طبيعي في أفراد نأوا عن منزلهم وبلدتهم، وحرموا محبة الأم والأب والأخ والأخت، واوجبت عليهم حياة التنسك ترك العالم وماضيه، ونسيان ذوي القربى والأصدقاء، حتى صار واحدهم يعرف باسم بلدته ولا ينسب الى أسرته، فيقال له: الغزيري، الجبيلي، البتروني، الحلتاوي، الحصروني، الزحلاوي، الجزيني، الخ... وهذا أسلوب بعض الرهبانيات في الغرب توكيداً لانفصال الراهب انفصالا كليا وابديا عن ذويه، واغترابه عن كل ما يحيط به خارج الرهبانية، فلا عجب أن يحس باقليمية تمثل له أشباح العائلة والبيت والضيعة.

وفي سنة ١٨٧٤ دنا وعد المجمع الرهباني الذي ينتخب فيه الرئيس العام ومدبروه الأربعة وبدأت تظهر النزعة الاقليمية الكسروانية والشمالية واتضح أن أكثر الكسروانيين يميلون الى انتخاب مواطنهم الأب مرتينوس الدرعوني (هو من أسرة سابا الغوسطاوية، وعم والد الشاعر أسعد سابا) والرسائل المحفوظة في سجلات البطريركية المارونية تصوره رئيساً «حربوقا»، قويا، مع وداعة في بعض الحالات، وممتثلا مطيعا لرؤسائه الأعلين من دينيين ومدنيين. واذا احتاج أمراً بذل كل ما في جيبه للحصول عليه، والا فالقرش لا يسقط من يده الا بعد تحطيمها!

لقاء ترشيح الكسرواني مواطنهم الأب مرتينوس الدرعوني مال اكثر الشماليين الى تأييد مواطنهم الرئيس العام الأب افرام البشراني لتجديد انتخابه. والأب افرام من أسرة جعجع المنتشرة في جهات كثيرة من لبنان، وولي الرئاسة العامة أربع مرات متتالية لأنه محبوب وقوي النفوذ

في الرهبانية وفي المجتمع، يمشي فيواكبه خمْسون راهباً وفلاحاً في أراضي الأديار. كثير التصلب في الرأي وفي «الاستقلال الماروني»، أي: انه لا يركع أمام القاصد الرسولي والمرسلين اللاتين. وهذا شأن خطير جداً في ما نحن بصدده.

قيل، وفي القول صحة: ان البطريرك الشعبي بولس مسعد ومستشاره الداهية المطران يوحنا الحاج (وقد خلفه على السدة البطريركية) كانا يميلان الى انتخاب رئيس عام من مقاطعتهما، كسروان، على الرهبانية اللبنانية، توطيدا للزعامة الاكليريكية التي سعى البطريرك مسعد الى ايجادها في المنطقة، الى جانب النفوذ الاقطاعي الذي كان للمشايخ الخازنيين، ولم تخل ثورة الفلاح الكسرواني بقيادة طانيوس شاهين من المسعى المسعدي...

فبدا ترشيح الراهب الكسرواني، الاب الدرعوني، للرئاسة العامة على الرهبانية متمماً لفكرة البطريرك ومستشاره. ناهيك بأن هذه المؤسسة صارت الأغنى من نوعها في الشرق العربي وبلغ عدد رهابينها الفي شخص، يضاف اليهم الف فلاح، ولكل فلاح أهله يعملون معه في اراضي الأديار، يقال لهم «شركاء» ويطيعون الرؤساء طاعة عمياء.

ولسبب آخر مشى السيد لوديفيكوس بيافي القاصد الرسولي على مخطط مسعد والحاج. وكان شائعاً انه كان شديد التقدير لسخاء الأب مرتينوس الدرعوني، ويرتاح ارتياحاً كاملاً الى هداياه القيمة، فشجعه على المضي في الترشيح ووعده بالعون والتأييد بوصفه يمثل مجمع نشر الايمان (اطعم الفم تستح العين).

ولم يبق ما يمنع الأب مرتينوس من الاقدام على تنفيذ المخطط، فبكركي معه، وروما بشخص المونسنيور بيافي معه، ورستم باشا حاكم لبنان، وهو مواطن القاصد الايطالي وصديقه، معه. ما اروع الدين والدنيا اذا اجتمعا!

وبدأت مرحلة الإعداد:

(أ) كان المطران يوسف جعجع، مطران قبرص ونسيب الأب افرام البشراني المرشح الآخر، زائراً رسولياً على الرهبانية اللبنانية ومحبوباً من رهبانها. فانتزعت مهمة الزيارة من يده. ودوّت القنبلة الاولى!

(ب) كشف القاصد عن وجهه في تأييده حزب الأب مرتينوس بدعوته الناخبين علنا للانضمام الى الأب الدرعوني.

(ج) امر القاصد، بالسلطان المعطى له من مجمع نشر الايمان، بعضا من معارضي مرشحه بأن لا يشتركوا في الانتخاب، فامتثلوا طائعين – رأس نذورهم الثلاثة: الطاعة! الخ... الخ...

ولما انعقد المجمع في دير طاميش (منطقة نهر الكلب) للاقتراع، لمس السيد لوديفيكوس بيافي ان التيار المؤيد انتخاب «خصمه» الأب افرام البشراني قوي جدا، اقوى مما خيّل اليه، فوقف وقال للناخبين بصوت راعد: «ارى انكم غير انضباطيين في هذا الانتخاب، مما يخالف القوانين الرهبانية المقدسة (كذا...) التي لا تسمح باقتراع فوضوي، فأنا القاصد الرسولي، بالسلطان المعطى لي من قداسة ابينا الحبر الأعظم، اسمي سيادة الأب المحترم مرتينوس الدرعوني رئيسا عاما على الرهبانية اللبنانية المارونية...»

وما كانت كلمة القاصد سوى نار فوق البارود، فماد الدير منفجرا، وعلا الاحتجاج والصراخ في وجه صاحبنا، وروى كثيرون أن بعض الهائجين هجموا عليه، ولولا دفاع الأب افرام عنه لمزقوه اربا اربا. وتعالت كلمات نابية تمس سلوكه الشخصي بخطيئتين مميتتين. ثم خرج الهائجون يصيحون: «يا عيب الشوم... هذا استبداد ... ظلم ... برطيل ... (خطيئة مميتة) ... لا نقبل ... لا نرضى ... الخ... الخ...)

ونتج من ذلك التدخل المؤلم شق الرهبانية رهبانيتين، ورفضت احداهما الشمالية تنفيذ اوامر القاصد الرسولي، كما رفضت التعاطي معه. وسافر الأب افرام البشراني الى روما شاكياً مستجيراً.

وتحركت حكومتا باريس واستنبول فاشتدت الأزمة. وصب الزيت
على نارها ان السيد بيافي طلب الى مواطنه الايطالي رستم باشا أن
يرغم الرهبان الرافضين على الاعتراف بالرئيس الدرعوني والخضوع له
فلباه المتصرف برعونة. وقيل لرستم باشا ايضا إن الرهبان المعارضين هم
من حزب يوسف بك كرم – وكانت السياسة قد جعلت من رستم
خصماً لكرم العائش في المنفى ينتظر رحمة الله – ثم اكدوا أيضاً
للمتصرف أن الرهبان في الشمال يشترون الأسلحة لإعلان الثورة.
فازداد الحاكم رغبة في الانتقام. وسافر على رأس قوة من الجند الى
اهدن وحل في بيت زعيمها اسعد كرم وأمر عسكره بالهجوم على
الأديار في المنطقة تفتيشاً عن الأسلحة. وجرت معركة عنيفة بين الجند
وسكان دير قزحيا واستطاع العسكر أن يقود خمسة عشر راهباً الى
اهدن ويحجزهم في اسطبل البيت الكَرَمي. وهنا تعددت الروايات
المختلفة. ومنها: ان الرهبان لم يؤت بهم معتقلين، وانما هم الذين
صعدوا الى إهدن بعد انسحاب العسكر من ديرهم. فوصلوا الى بيت
كرم ليلا ودخلوا الي حيث رستم باشا واطفأوا القناديل وانهالوا عليه
بالعصي: هذه تضرك وهذه تنفعك، ولولا تدخل صاحب الدار ورجاله
لقتلوه ... وانتهت أزمة الرهبان بأن نذرهم الطاعة هو الذي ساد وقاد
خطى اكثرهم، واخضعهم لأوامر رومة القاضية بتنفيذ تدابير قاصدها
الرسولي، وعصت أقلية فتاهت في البراري محافظة على التنسك،
وترك ثلاثة الحياة الرهبانية.

انظر: «اوراق لبنانية»: تشرين الثاني ١٩٥٧، ص ٥٢٤ – وانظر:
«لبنان ويوسف بك كرم» للخوري اسطفان البشعلاني، ص ٥٤٩. وما
كتبه المغفور له الأب اغناطيوس طنوس الخوري في تاريخه المخطوط
عن رهبانيته.

(٧) رستم باشا (١٨١٠ – ١٨٩٤). اختلفوا على نسبه، ففي قول انه ابن
كونت ايطالي من فلورنسه اسمه ماريني. وقيل أنه ابن غير شرعي له.

وفي قول ثالث أنه مجهول الأب رباه الكونت ماريني صغيراً وأعطاه
اسمه. وتوفي مربيه فنقلته أمه الى رومة وفيها تعرفت الى سفير تركية
فيها (وقيل إنه تزوجها سرا) فعطف على يتيمه وعلّمه وثقفه في أعلى
الكليات. ولما رجع السفير الى استنبول صحبته الأم والشاب وحمل
هذا اسم رستم. وادخله مربيه وزارة الخارجية مسلحاً بذكائه ونشاطه
وشهاداته العالية وتربيته الاوروبية دون أن يعرف أحد عن أصله المبهم
شيئا. وبرز رستم افندي في جميع المهمات التي اوكلت اليه ولفت
انظار جميع باشاوات الخارجية والباب العالي حتى اختير سفيراً
للسلطان عبد العزيز لدى بلاط امبراطور روسية في بطرسبرج وهي
أخطر مهمة دبلوماسية عثمانية في تلك الأيام بسبب حرج العلائق بين
العاصمتين.

واستطاع السفير أن يحسن عمله فكسب صداقة الأمير غورتشاكوف
رئيس الوزارة الروسية وابن احدى الأسر الاريستوقراطية المتصلة بالعثرة
المالكة. وبواسطة غورتشاكوف تقرب رستم من القيصر وصار يرافقه
في رحلات القنص. وفي ذات يوم فوجيء بأمر تعيينه متصرفاً على
جبل لبنان فاكتأب ظاناً أن وظيفته الجديدة تعني انتقاصا من مركزه
وقدره فشكا سوء حظه الى صديقه الأمير غورتشاكوف واسترسل هذا
في الضحك وقال له: «بل اني اهنئك فقد صرت ثالث رجل في
الدولة بعد سلطانك وخديوي مصر» وشرح له غورتشاكوف خطورة
منصب متصرف جبل لبنان الذي يحق له أن ينشيء دولة مستقلة في
قلب السلطنة العثمانية ولا يستطيع السلطان اقالته الا بموافقة الدول
الاوروبية حامية نظام لبنان.

ولم يكن عهد رستم باشا كثير التوفيق الذي تستحقه كفاءات الرجل
ذكاء وإقداماً ونزاهة وعدلاً، الا أنه حكم باعتداد بالنفس، وعصبية،
وتسرع، وإصغاء الى الهمس. اراد أن يصلح فكسر رؤوساء وربى
القمل في رؤوس (وتشبه به مواطنه موسوليني بعد نصف قرن!).

وعلى الرغم من اختياره معاونيه من ابناء الاقطاعية التي الغى نظام الجبل امتيازاتها فقد احسن اختيار معاونين آخرين من أبناء الشعب وفي مقدمتهم عمون عمون. وبواسطة عمون الذي كان وكيل المتصرف في رئاسة مجلس الادارة الكبير دخلت فئة كثيرة من أبناء الشعب في خدمة الحكومة.

ظل رستم باشا شديد الحفاظ على عثمانيته. ومما يؤثر عنه في هذا المجال انه قام بزيارة تفتيشية الى لبنان الشمالي وصادف أن رجع وقد بدأ شهر رمضان، فاستقبله في جسر البحصاص استقبالاً رسمياً متصرف طرابلس وكبار موظفيها وأعيانها، وقدمت له الليمونادة فاعتذر عن الشرب وقال بصوت عال اراد ان يسمعه الجميع: «انا خادم مولاي أمير المؤمنين، وجلالته صائم فأنا لا افطر...» وكان لذلك الكلام العاقل وقع طيب في نفس السلطان عبد الحميد فأرسل يبلغه رضاه.

وكان السلطان قد انقلب على الحكم الدستوري الذي جيء بهذا السلطان ليطبقه، وبدأ حكمه الاوتوقراطي فعيّن مدحت باشا الملقب بأبي الدستور والياً على سورية ليبعده عن العاصمة، هو الذي أجلسه على العرش بعد أن خلع السلطانين السابقين عبد العزيز ومراد. وظل عبد الحميد شديد الحذر من مدحت باشا فطلب سراً من رستم باشا أن يتجسس حركاته ويتسقط أخباره في دمشق وبيروت التابعة يومها ولاية سورية. فقام رستم بمهمته على أكمل وجه وصارت تقاريره عنه من الأسباب التي دفعت السلطان الطاغية الى اغتيال أبي الدستور في السجن بمدينة الطائف.

اما حكم رستم باشا في لبنان فلم يكن له بد من الاصطدام بالاكليروس المتصاعد الى قمة النفوذ، مع أن المتصرف قد بدأ ذلك الحكم بمسايرة البطريركية المارونية. ولكن المطارنة كانوا عديدين في أرض المتصرفية، وكل منهم زعيم ديني ومتزعم زمني، يرجع اليهم ابناء

ابرشياتهم، ومعظمهم طلاب حاجات من الحكومة صعبة التحقيق.

وشاء القدر أن يقع الاصطدام، اول وقوعه بين رستم باشا وجاره في بيت الدين المطران بطرس البستاني رئيس اساقفة صيدا وصور. والمطران لا يقل عن المتصرف شدة ورجولة واعتدادا ونفوذا شعبيا. ثم ازداد الخلاف بازدياد المحازبين وتأزم حتى شطر الجبل حزبين متناقرين وايقظ الحزازات الطائفية. وداسَ مسيو تريكو القنصل الفرنسي امضاءات ملوك فرنسا بحماية الاكليروس الماروني وشعبه وانضم الى المتصرف يؤيده بجميع جهده، وانضم القنصل الانكليزي الى الاثنين حتى يحفر هوة بين فرنسا والموارنة، وأدى الأمر الى أن استنبول أمرت بنفي السيد البستاني الى القدس. وكان لذلك التصرف صدى عنيف في فرنسا والنمسا والفاتيكان، فتدخلت لدى السلطان شخصيا، وهاجت المعارضة هيجاناً شديداً وخيف من فتنة. فأعيد المطران مكرما على بارجة فرنسية أبحرت من فرنسا خصيصاً لنقله الى لبنان.

والخصام مع رستم باشا مفصل في كتاب «عهد المتصرفين في لبنان» بقلم لحد خاطر: ص ٦٦ - ١٣٥ - وفي مذكرات جرجس صفا المنشورة في المجلدين الرابع والخامس من «الحياة النيابية»، ارقى انتاج ثقافي حققه برلمان عربي.

اذا الموارنة والدروز...

(١) لبنان مثل بولونية: كانت بولونية مملكة كبيرة متحضرة في اوروبة الشرقية، فجزأتها مطامع الروس والنمسويين والبروسيين وضم الطامعون اراضيها الى دولهم فنزحت أسر كثيرة منها الى الخارج، والى فرنسا على الأخص. وخدم المهاجرون البولونيون في مختلف الميادين الفرنسية ولمع منهم رجال فكر وجيش ودبلوماسية وصناعة وتجارة ورجال دين الخ...

وبقيت «محبة الوطن» تتأجج في قلوب البولونيين المقيمين والمهاجرين، وحاولوا مراراً أن يستعيدوا استقلالهم ولم يوفقوا. وكان من مصلحة فرنسا أن تحقق هذه الأمنية خوفاً من تكابر جيرانها واشتداد قوتهم، فصارت تشجع البولونيين سرا، ورجال الفكر ودعاة الحرية يظاهرونهم علنا. وكاد ينشأ في الرأي العام الفرنسي ما يشبه مطلباً وطنيا اسمه: تحرير بولونية.

وفي سنة ١٨٣٠ ثار البولونيون بتأثير جميع تلك العوامل لاسترجاع استقلالهم غير أن سياسة باريس عجزت، او جبنت، عن نصرة الثائرين فاتهمها أحرار العالم بأنها خانت عهودها لهم.

وبلغ من بغي القيصر الروسي العاني، ان جنوده سحقوا الثورة بمنتهى الضراوة ومحوا كل أثـر يـذكّر المسحوقين باستقلال بولونية!

وهذه النبذة تفسّر تهكّم النائب دي ملفيل بالحكومة الفرنسية، خائفا ان لا تجعل لبنان مثل بولونية. وكان مصيبا حقا.

لبنانان

(١) البرنس دي ميترنيخ (١٧٧٣ - ١٨٥٩): سياسي نمسوي، من دهاة المكر الدبلوماسي والتلاعب بمقدرات الدول والشعوب المستضعفة. لمع لأول مرة في سفارته لامبراطوره فرانتز الثاني لدى نابوليون الاول بأن أعدّ بحكمة ولباقة زفاف الارشيدوقة ماري لويز، ابنة سيده، الى نابوليون بونابرت (١٨١٠). وكان ذلك الزواج في حينه يحسب شبه مستحيل بسبب العداء المستحكم من قديم بين عرشي فرنسا والنمسا. فذلك التقريب بين العرشين، وسواه من دهاء ومقالب، اوصل صاحبه دي ميترنيخ الى أن يصير مستشار النمسا (رئيسا لحكومتها).

وعلى أثر سقوط نابوليون دعيت الدول التي تحالفت على مكافحة مطامعه الى مؤتمر نظمه دي ميترنيخ في العاصمة النمسوية وعرف باسم «مؤتمر فيانة» (١٨١٥) لأجل ايجاد توازن اوروبي يمحو التفوق الذي سجله نابوليون لفرنسا ويقسم تركة الرجل الذي دوّخ العالم. وقد اسفرت أعمال المؤتمر عن فوز ملوك روسية والنمسا وانكلترة بالحصة الكبرى على حساب الشعوب الايطالية والمجرية والسلافية والرومانية التي حرمت حرياتها واغتصبت اراضيها.

وتثبيتا لذلك الجشع جنح الملوك المذكورون ورؤساء حكوماتهم الى تقوية الحكم الاوتوقراطي ومكافحة المبادىء الانسانية التي نادت بها الثورة الفرنسية الكبرى لمحو الطغيان والاستبداد، ولتقديس كرامة الانسان في المواطن وتحرر الشعوب.

ولم يوفق الطغاة توفيقاً كاملاً في تنفيذ استبدادهم، اذ لم تلبث رياح الثورات الوطنية ان هبت في ايطالية والمانية اولا، ثم في اسبانية

وبولونية والمجر، وانتقلت الى النمسا عينها وانفجر شعبها مطالباً بالحكم الدستوري والغاء الاقطاعية بمختلف وجوهها، ففر البرنس دي ميترنيخ (١٨٤٨) من غضب الشعب الذي ظلمه.

ترك دي ميترنيخ تسعة مجلدات سجل فيها مذكراته، ووثائقه، وكتاباته المنوعة وفيها معلومات كثيرة عن مطامع الغربيين بالشرق. ومما قاله في أحدها «ان الحكومة الفرنسية لم تخط منذ بدأت الشرور ترهق لبنان التاعس الا الخطى العاثرة، فارتكبت سلسلة من الأخطاء لم تنقطع... وان سياسة العبث (الفانتيزية) التي لا تنظر الا للفائدة الآنية (الموقتة) لا تقود صاحبها الا الى الضلال». - المجلد السادس: ص ٦١٢.

والى ان دي ميترنيخ لعب اللعبة الانبريالية القذرة التي اوحت بها حكومة الانكليز في قسم لبنان قائمقاميتين، احداهما درزية والأخرى مسيحية، وبها كرس انشقاقنا تكريساً، رسمياً، قانونياً، نذكر ايضاً ان دي ميترنيخ كان العاطف الاكبر على النهضة اليهودية في اوروبة، وبذل ما لا يبذل طوال حكمه في الدفاع عن اليهود انّى وُجدوا، مما حمل المؤرخ ابا ايبان وزير خارجية اسرائيل على وصفه في كتابه المخيف «شعبي» بان «الرئيس النمسوي ميترنيج كان المحامي الذي لا يتعب لأجل التحرر اليهودي.» - ص ٢٢٧ من الترجمة الفرنسية.

(٢) اعترض ممثلو الاسر الاقطاعية الدرزية على تولية الأمير الأرسلاني في حين أن هذه الأسرة، اليمانية الحزبية، فقدت نفوذها بعد معركة عيندارة وانتقل الى متزعمي الاقطاعية القيسية. ولم يبق لها سوى اقطاعية صغيرة جداً. وكان المعترضون على تولية القائم مقام المقترح: نعمان جنبلاط، خطار العماد، عبد السلام العماد، نصيف ابو نكد، حمود أبو نكد، خطار تلحوق، حمد تلحوق، محمود تلحوق، شبلي عبد الملك، اسمعيل عبد الملك وخنجر عبد الملك. وحجتهم في اعتراضهم أن رئيساً درزياً عليهم يقضي على نفوذهم ومصالحهم، ويصغر شأنهم في عين اتباعهم ... وبعد جهد والحاح استطاع

الكولونيل روز أن يوفق بينهم على توزيع النفوذ، والدخل والخرج، كذا، وعلى أن لا يكون القائم مقام رئيساً وانما هو شريكهم وممثلهم في وجه القائم مقامية المسيحية.

وعلى ذلك الأساس «الكولونروزي» كتب الأمير احمد عباس أرسلان تعهداً تاريخيا الى القائد الأعلى للجيش التركي (١٨٤٣/١/٣٠) يقول له فيه ما حرفيته:

«... ولن اعمل شيئا بدون معرفة مستشاريّ المذكورين، ولا اتصرف الا بعد أخذ رأيهم في كل ما له علاقة بالراحة والطمأنينة والطاعة الواجبة للحكومة (العثمانية)، وبتنفيذ اوامر المشير (سليم باشا القائد التركي الأعلى). وستكون هذه العائلات شريكاتي في الدخل والخرج: تتلقى ما يصيبها من الربح (كذا)، وتحمل ايضا تبعة الخسائر. ومن حقها الزامي بأن أعمل كل ما في وسعي لقضاء حاجاتها وتأمين راحتها، ولزيادة وارداتها (كذا ايضا!)، والمحافظة على كرامتها، دون أن أفضل واحدة منها على أخرى، ولا شخصاً على آخر، خلافا للعدل ولمقاماتها...»

نقلها وترجمها عادل اسمعيل من ملف وزارة الخارجية الفرنسية - ملف «بيروت» الخامس.

ونسأل:

ماذا ربح ايتام الدروز الذين قتلوا في الثورة على عمر باشا النمسوي؟

بماذا عوّض عليهم؟

من استفاد من معطيات الحكم الجديد؟

من اصابه الربح؟

ومن زادت وارداته؟

وعند سيدنا القايمقام المير حيدر ابي اللمع، من ربح، ومن زادت وارداته؟

(٣) البطريرك بولس مسعد (١٨٠٦ - ١٨٩٠): من عشقوت. واسرته من الشجرة المشروقية العريقة التي تفرعت منها بيوتات كريمة انجبت

الفلاسفة والعلماء والمؤرخين وعباقرة الصحافة والبطاركة والأساقفة. منهم بنو السمعاني وعواد والشدياق ومسعد وبركات وفرحات وفهد الخ... درس بولس مسعد دروسه البدائية والثانوية في عينطورة وعين ورقة فاتقن العربية والسريانية واللاتينية والايطالية. واتم دروسه الفلسفية واللاهوتية في رومة.

دعاه البطريرك يوسف الحبيشي ليكون سكرتيراً له فامتثل. وعمل في خدمة سيده خمسة عشر عاماً، كان فيها مثال الأمين النشيط الناذر نفسه لخدمة بطريركه، فصار السيد الحبيشي يطلعه أحياناً على أسرار لا يعرفها المطارنة.

لم يترك ورقة أو مخطوطا أو وثيقة في بكركي وقنوبين الا واطلع عليها ثم رتبها بتواريخ البطاركة المتعلقة وجعل منها «خزانة درر» على حد قول المطران الدبس. وهكذا صار مرجعاً غنياً لتاريخ طائفته ولأنساب أسرها.

اشهر مؤلفاته الدينية والتاريخية والحقوقية كتاب «الدر المنظوم». رقي الى الاسقفية سنة ١٨٤١، وعمر ٣٥ سنة وصار نائباً بطريركيا. وفي سنة ١٨٥٤ انتخبه مجمع المطارنة بالصوت الحي بطريركيا. اشترك في الأحداث المصيرية التي عصفت بالجبل. زار رومة وباريس واستنبول (١٨٦٧) وقابل البابا اكليمنضوس الـ ١٣ والأمبراطور نابوليون الثالث والسلطان عبد العزيز. ومما يذكر عن هذه الزيادة الأخيرة أنه ألقى أمام السلطان دعاء باللغة العربية ليحرس الله عرشه فسر السلطان سروراً بالغاً بسماعه لغة القرآن الكريم على لسان حبر مسيحي وأهداه حقة للعطوس مرصعة بالحجارة الكريمة والماس.

نسب اليه، عشوائيا، انه كان المحرك الاول، من وراء الستار، في تفجير غضبة الفلاح في منطقته كسروان على مشيختها الاقطاعية. وفي هذه النسبة مبالغة كبرى، بل اساءة الى بريء، لا مجال لعرضها هنا. ويكفي القول في دحضها ان الفلاح، بل الشعب عامة في كسروان،

كان قد بدأت شكواه من سيدنا الشيخ وستنا الشيخة من قبل أن يولد مسعد. والثابت في الأمر أن البطريرك المذكور لم يكن مستاء كثيراً من تضامن الفلاحين ضد الحكم الاقطاعي، بل يجوز الظن أنه ارتاح اليه أملاً بأنسنة الاقطاعية وصيرورة الكسروانيين شعباً له كرامته. ولعله، في قلبه، بارك المسعى. وهذا لا يصح أن يفسر بأنه حرّك وشجع وقاد.

ان السيد بولس مسعد كان من أشد رجال الدين تقىً، وفهما للمحبة المسيحية والتآخي المسيحي، ومن أرقى مثقفي عصره، ومن ابعدهم حكمة واتزاناً. ولبنانيته عميقة الجذور تتصل بأجداده المقدمين حكام الشمال. ويدرك ادراكاً تاماً وهو في مجتمع طائفي حاجة بطريركيته الى الأسرة الخازنية القوية والغنية وذات التحسس المسيحي، ويعرف الخدمات الجلى التي ادّاها أفرادها للاكليروس. فمهما عظم قصده أن تكون بكركي مقر تمثيل الموارنة كنيسةً وتوجيها، ليسهل جمع شمل طائفته وإِضعاف الحساسية القبلية بين أسرها المتزعمة والمستوجهة، فانه كان يعرف أيضاً أن الزمان الذي يعيش فيه لا يسمح بكسر زجاج الود بين بكركي وبيت الخازن.

ان الارجح في تفسير سياسة البطريرك مسعد هو أن السيد مسعد رأى أن بكركي يجب أن تكون المرجع الأعلى لكل أمر ماروني، تمهيداً للتزعم اللبناني، وبهذا التفسير عينه نفهم موقفه من ثورة ابنه الروحي يوسف بك كرم على داود باشا أول متصرف على لبنان، وتنديده بالبروتوكول الدولي الذي سلب لبنان معالمه الاستقلالية وأراضيه الخصيبة.

وما يذكر عن علاقة السيد بولس مسعد بالأسرة الخازنية أنها قبل وصوله الى السدة العليا في كنيسته لم تكن علاقة ولاء. وقد لصقت بذاكرته منها حوادث ورؤى مؤلمة: فمما يروي منها – وقد سمعها المؤلف غير مرة في صغره من بني مسعد في عشقوت ومن انسبائهم ومصاهريهم بني الشدياق في الحدث – ان والدة الخوري (البطريرك)

بولس مسعد راحت ذات يوم الى مأتم في قرية تجاور عشقوت، ومن العادة في الجبل أن المعزين يرتدون أغلى ما عندهم من ثياب، وتتبهرج المعزيات بأثمن حلاهن، ويرفعن على رؤوسهن طنطورا – ويقال له الطرطور ايضا، بضم الطاءين، وهو قطعة من نحاس أو خشب، مستطيلة، واسعة القاعدة وضيقة الرأس، توضع على الشعر وتغطّى ببرقع حريري كبير، وهي من أغلى الزين النسائية في الماضي – وكلما علا الطنطور وطال، علا قدر لابسته في المجتمع! ولما دخلت أم الخوري بولس بيت الميت ورأتها احدى الخازنيات المتصدرة المكان – وكان الصدر للخازنيات وحدهن – غضبت من تأنق السيدة مسعد فوقفت نابحة تؤنبها وضربت طنطورها فرمته أرضا وهي تصرخ «اذا كنت أنت يا فلاحة بتلبسي هيك، ايش خليت لاسيادك المشايخ؟»

ولم تكن ام الخوري بولس ممن يقال لها هذا القول: فهي متعلمة والشيخة أمية، وابو الخوري، السيد مبارك مسعد كبير قومه وقيدوم بلده. وكانت أم الخوري بولس أعرق وجاهة وان لم تكن من الاقطاعيين. وابنها كاهن ملفان دكتور في الفلسفة من روما. وما اشتم كاهن ولا مطران ولا بطريرك من الخازنيين رائحة علومه. فرأت حكمة السيدة المسعدية ان حرمة الموت يجب أن تعلو الفجور الاقطاعي الجاهل فخرجت من البيت محافظة على تهذيبها ورجعت الى عشقوت.

وعرف ابنها بما جرى فقبّل يدها قائلاً لها: «انت كل عمرك كبيرة، وبنت أصل!...»

وقصة ثانية:

لما توفي البطريرك الحبيشي رشح كثيرون من المطارنة أخاهم المطران بولس مسعد ليخلفه. وكان الكرسي البطريركي في عسر شديد ومرهقا بالديون، بسبب الحوادث المشؤومة التي مرت بلبنان، فرأى المطران العاقل السيد يوسف رزق (جزين)، الصديق الحميم لمسعد ، ان

ينضم مسعد وأخوته الى الفئة المؤيدة ترشيح المطران يوسف الخازن فينتخب بالاجماع، نظرا لثروته الطائلة التي تساعده على وفاء ديون البطريركية وتفرج عن كربة الكرسي. ووافق مسعد على رأي رزق وانتخب السيد يوسف الخازن.

وقال بعض الذين عاشوا في تلك الأيام إن هذا البطريرك لم يقدر عمل المطران مسعد حق قدره الذي يستحقه.

وتضاربت الأقوال في تصرف المطران مسعد مع بطريركه الجديد: فمن قائل أنه صافاه وساعده على القيام بمهام منصبه، وقال آخرون أنه تصابر وسكت على مضضه، واقام في دير آخر. وهذا هو المعقول. فالبطريرك الخازني العربي العادات الكريمة، لم يتثقف ثقافة غربية، ولا احتكّ بالعالم المتمدن ولم يعش في اوروبة ليشاهد تطور الشعوب، ولا فهم التيارين اللذين كانا يحركان الغرب، تيار يقظة القوميات وتيار التحرر الديموقراطي من ربقة الاقطاعية الراسخة في جميع البلدان.

والى ذلك الجمود التقليدي في عقليته ظل البطريرك التقي والطيب القلب خازني الهوى والتفكير: لا يرى في وضع أسرته الاقطاعية الا وضعا طبيعيا، سماويا، من ارادة الله ومشيئته، وان الله تعالى هو الذي خلق الناس طبقات ... وهذا الأسلوب من النهج لا يعجب المطران مسعد الذي تثقف في رومة، وسمع كثيراً وشاهد اكثر، وتمنى لو أن الشعب اللبناني يتحرر وان الشرق كله يتمدن! فمن المعقول والحالة هذه أن يكون قد بعد عن الصرح البطريركي الذي صار صرحاً خازنيا. وان يعيش في دير آخر فلا عين ترى ولا قلب موجع.

ولم تطل الأيام اكثر من تسع سنوات وأشهر قليلة وتوفي البطريرك الخازني، ونودي بالسيد بولس مسعد خلفاً له بالصوت الحي. (جميع الذين كتبوا عن انتخابه اتفقوا على هذا التعبير: بالصوت الحي.) وزحف المحبون، وهم ابناء لبنان كله، الى بكركي يهنئون سيدها الجديد ويتبارى الشعراء في تعظيمه.

وفي اليوم الثالث وصل قعدان بك فصل الخازن، زعيم كسروان الكبير، يتقدم وفدا من أسرته للتهنئة. وبعد شرب القهوة والمرطبات وتبادل المجاملات المعهودة في مثل ذلك المقام، وقف الزعيم الخازني وتناول من أحد أنسبائه صرة فيها فروة جاء بها خصيصاً واقترب من السيد مسعد ليلبسه اياها.

وتزعزع بدن البطريرك. ودارت الدنيا في رأسه: ماذا؟ ... أرجل علماني يخلع على رئيس الكنيسة فروة؟

– ماذا، يا بك؟ ماذا؟

– هذه الخلعة يا سيدنا عنوان اخلاصنا للمقام البطريركي، وتعهد من أسرتنا، وتأكيد لحمايتنا لكم في منطقتنا التي نحكمها.

– ولكن هذا التصرف بدعة يا قعدان بك. فانا أعرف تاريخ الطائفة وتاريخ اسرتكم وتاريخ المنطقة معرفة كاملة وجيدة، ولم اقرأ أو أسمع أن بطريركاً لبس خلعة من يد علماني. ولعلك تعرف أن البطريرك الماروني، وحده في الشرق، لا يطلب فرمانا من جلالة السلطان الأعظم، ولا يمارس صلاحيات رئاسته الا بدرع التثبيت والرئاسة من خليفة القديس بطرس ... ثم اني عشت اربعا وعشرين سنة في هذا البيت (بكركي)، كاهنا ومطرانا، واشتركت في انتخاب نسيبكم البطريرك الخازني، وخدمت معلمي السيد الحبيشي سكرتيرا طوال خمس عشرة سنة فعرفت حياته يوما يوما. وعرفت الكبيرة والصغيرة في الكرسي، فما شاهدت ولا سمعت ولا قرأت انكم البستم البطاركة اسلافي الفرو، فعلام تخصوني بها؟

– ان سلفك يا سيدنا واحد من العائلة الخازنية ونحن حماته الطبيعيون. والبطريرك الحبيشي واحد من أقاربنا ومن أصحاب الاقطاع في المنطقة فنحن حماته الطبيعيون ايضا.

– ولكني لا أطلب الا حماية الله يا قعدان بك. واعيش بشفاعة سيدة بكركي مصونا من الأذى.

– كلنا نطلب شفاعتها يا سيدنا. ومع ذلك فان عائلتنا، الحاكمة بأمر من جلالة المتبوع الأعظم، عليها أن تحميك. وانت أيضا ابن كسروان.

وكرر مسعد قوله أن الله تعالى، وحده، يحميه. وتشبّث الزعيم الخازني بسلطان أسرته الاقطاعي. ووصلا الى الجو المكهرب. وكان الصديق الحكيم المطران يوسف رزق حاضرا، وهو أوفى الاوفياء بمسعد (ونذكر أنه هو الذي اقنعه بأن يفسح في المجال البطريركي لسلفه السيد الخازني)، فدنا منه ووشوشه: «ما بيسايل يا سيدنا. اكسر الشر، واقبل الفروة كهدية، ثم احرقها...»

أمسعد يحرق فروة؟ معاذ الله!...

وعمل البطريرك بنصح صديقه السيد رزق وتناول الفروة من يد الزعيم الخازني:

– طيب يا قعدان بك انا أقبل هديتك...

ونادى شماسه وقال له:

– خد هلفروه، يا داهود، وحطها في خزانة تيابي.

ثم التفت الى الحاضرين جميعا، وهم مطارنة وكهنة، ومشايخ ووجوه وفلاحون، وقال:

– تفضلوا على الغدا.

على ذلك التلاقي التاريخي مرت أربع سنوات وأربعون يوما. وفجأة اشتعلت ثورة الفلاحين في كسروان، ليلة عيد الميلاد من سنة ١٨٥٨، صاخبة رهيبة. وكانت ليلة ليلاء على المشايخ ومحازبيهم. ووصلت الأخبار الى قعدان بك في عرمون بمبالغة مزعجة جدا (قيل له إن أربعين الى خمسين شيخا وشيخة من اقربائه قد لقوا حتفهم في مختلف القرى التي يسكنونها. وهدمت منازلهم ونهبت أموالهم. وخمسة وتسعون بالمئة من الخبر كاذب!) فامتطى الزعيم الخازني فرسه ولحق به اثنان من خدمه الى بكركي تحت هطول الأمطار وتساقط الثلوج، وبلغوها قبيل الفجر والماء يزرب من ثيابهم. فأدخل قعدان بك

صالة الاستقبال وأسرع من استيقظ على الصوت من مطارنة وكهنة وخدم وأشعلوا النار للتدفئة. وايقظوا سيد بكركي.

واقبل البطريرك متئدا، وقد بدا القلق والحزن عليه، وشاهد ضيفه يرتجف بردا، واحد الكهنة ينشف عباءته على النار، فنادى شماسه وقال له:

- يا داهود، جيب من خزانة تيابي الفروة اللي قدمها لنا قعدان بك. هلق وقتها: البك بردان.

وامتثل داود وجلب الفروة. ووقف البطريرك العظيم بولس مسعد والقى بها على الزعيم الكبير قعدان بك الخازن.

وسجّل بدء النفوذ الأعلى في الجبل لسيد بكركي.

وفوق مدخل الصرح نقش فنان: «مجد لبنان أعطي له».

(٤) حرب القرم (١٨٥٣ - ١٨٥٤) سببها في ظن الناس أنه خلاف نشب بين الاكليروس الارثوذكسي والمرسلين الفرنسيسكان في القدس على اثني عشر معبدا ومزارا ادعى المرسلون بأن الارثوذكس قد اغتصبوها منهم. فانتصر القيصر لأبناء مذهبه (راجع وصية بطرس الكبير) وانتصر نابوليون الثالث للمرسلين اللاتين. وان صح قول نابوليون يومها بأن الامتيازات التي منحها السلاطين العثمانيون فرنسا لحماية الكاثوليك في الشرق تدعوه الى التدخل في الخلاف، فالصحيح ايضاً أن وراء تدخله مرامي استعمارية من أهمها حرصه على أن تظل فرنسا وحدها الدولة الأكثر مصالح ونفوذا في فلسطين، فمن واجبه أن يحول دون ازدياد النفوذ الروسي فيها.

ولم تكن المماحكة بين بطرسبرج وباريس «رمانة بقدر ما كانت قلوب مليانه» بحوادث كثيرة سابقة، ومطامع روسية مقبلة.

وحاول السلطان عبد المجيد أن يوفّق بين الروس والفرنسيين ولم ينجح.

وأصر القيصر على رفض حكم السلطان، ظاهراً، وهو يرمي الى اغتنام الفرصة لفتح باب «المسألة الشرقية»، وبهذا تقتسم تركة الرجل المريض،

وامله بأن يفوز منها بحصة الأسد. فأخذ يهدّد السلطان بأسلوب هستيري وقح، طالبا الاعتراف له بحق حماية الارثوذكس في القدس، وهادفا الى ابتلاع البلقان السلافي. فنصح سفيرا لندن وباريس للسلطان بأن يرفض التهديد الروسي وفعل، فقال عاقل فرنسي: «من خلاف بين رهبان ستحترق اوروبة بحرب رهيبة لم تعرفها منذ نابوليون!»

ووهم القيصر أن الحرب لن تتجاوز روسية وتركية، وان بطشه بالسلطان هين. ولكن السياسة الانكليزية التي صارت شديدة الانزعاج من تطلعات «الدب الأبيض» ومطالبه في السلطنة العثمانية، ومن احتمال وصوله الى البصرة التي تفتح امامه طريق الهند، اقنعت نابوليون الثالث بوجوب مساندة السلطان فجاراها في سياستها، وانضمت اليهما مملكة بيامونت الايطالية أملا بأن الدولتين تساعدانها على تحقيق الوحدة الايطالية.

واندلعت الحرب وشدت شعوب خمس دول بنارها. وانتهت بانكسار جيش القيصر.. فكم مئة الف بريء قتلوا، وشوّهوا، وشلت فيهم قدرة العمل، بدون أن تكون لهم أية منفعة في قتل بعضهم بعضا!

وعقدت في العاصمة الفرنسية معاهدة صلح بين المتحاربين (٣٠/٣/١٨٥٦) عرفت باسم معاهدة باريس. ومن أهم ما جاء فيها تكريس «الاصلاحات الخيرية» التي أعلنها السلطان قبل أربعين يوما (انظر الهامش رقم (٥) بعد هذا الهامش) فصارت مرتبطة بمعاهدة دولية!

ومما يذكر عن حرب القرم أن القنصلية الانكليزية ببيروت أوعزت الى بضعة وجوه من لبنان بالتطوع مع زلمهم في جيوش السلطان لاكتساب رضاه. فكان من بعضهم أن استغلوا «الحمية!» التي أظهروها لجلالة متبوعهم الأعظم. وزعم احدهم أن معه «ثلاثماية خيال ولم يكن معه اكثر من ماية نفر ... فقبض مبلغاً ليس بقليل، ونال وساما مع لقب عزتلو.» - مذكرات رستم باز، ص ١٠٠.

وهكذا يستوي المسيحيون والدروز والمسلمون في ارث «الشطارة» الفينيقية!

(٥) السلطان عبد المجيد (١٨٢٢ - ١٨٦١): اسمه ألصق جميع السلاطين العثمانيين بأحداث لبنان. هو ابن السلطان محمود الثاني الذي فتك بالانكشارية. ولي العرش في الثامنة عشرة من ربيع الحياة (١٨٣٩)، والسلطنة تضطرب في خضم التنافس الاوروبي لاستغلال الشرق، فواجه المصاعب والمشاكل والأزمات والحروب في مختلف الانحاء من مملكته المترامية الأطراف: في لبنان ومصر والبلقان والقرم (وسيأتي خبر هذه).

اشتهر بالتبذير فبلغت نفقاته السنوية على مطابخه وحريمه وهداياه وبذخه ما يقرب من مليون ليرة ذهبا، وهو عشر الموازنة العامة. تضاف اليه ملايين الليرات التي انفقها على بناء القصور الجديدة وأهمها قصر «ضولمه بغجه» الذي كلف بناؤه سبعين مليون فرنك ذهبا. وبتبذيره الفاحش أوصل خزينة المملكة الى الافلاس.

في اليوم الاول من حكمه تلا عبد المجيد في قصر كلخانة (بيت الورد) بيانا عرف باسم فرمان كلخانة أمر فيه رئيس وزرائه بوجوب اصلاح المملكة لتحقيق «الامن على الارواح، وحفظ العرض والناموس والمال. ولتعيين الخراج وتنظيم التجنيد والجيش، لأنه لا يوجد في الدنيا أعز من الروح والعرض والناموس والمال ...» ولكن السلطان لم يعمل، او لم يستطع عمل شيء، فلحق وعده بعرقوب...

وبعد ست عشرة سنة من فرمان كلخانة أصدر عبد المجيد فرمانا آخر (١٨٥٦/٢/١٨) عرف باسم «الاصلاحيات الخيرية» اعلن فيه أنه قرر «اتخاذ التدابير الفعالة لتحقيق ما جاء في فرمان كلخانة، لأجل رفاهية جميع رعاياه على اختلاف أديانهم وأجناسهم (...) ولمعاملة المسيحيين والمسلمين بلا تمييز (...) وتمحى وتُزال الى الابد، من الكتابات الرسمية، جميع التعابير والالفاظ المتضمّنة تحقير جنس لجنس آخر في

اللسان والجنسية والمذهب من ابناء سلطنتنا السنية الخ... الخ...»

وفي حكم السلطان عبد المجيد نعت القيصر نقولا الاول امبراطور الروس مملكة السلطان بأنها «الرجل المريض». وشاع هذا الاسم حتى صار لقبا لتركية ما يزال يتردد على أقلام الكتاب.

ولا يُذكر السلطان عبد المجيد الا ويخطر بالبال صديقه وصفيه ومستشاره الداهية مستر كانينغ سفير انكلترة لديه. فقد اغتنمت لندن ضعف السلطان ارادة وتفكيرا وأعطت سفيرها المذكور كامل الصلاحيات ليقامر بورقة نفوذها على جذب السياسة العثمانية اليها. ووفق كانينغ توفيقا باهراً فاستطاع اذلال نفوذ فرنسا باخراج حليفها محمد علي باشا من بلاد الشام. كما استطاع اقفال مضايق الدردنيل في وجه الامبراطور الروسي ومنع اسطوله من دخول البحر الابيض المتوسط حتى لا يصل الى الشطآن العربية والهندية الدافئة. وبعد نجاح سياسة كانينغ وفوزه بتوجيه مقدرة السلطنة لقبوه بانه «سيد تركية» وقيل فيه أنه أعظم السفراء الانكليز اطلاقا. وكافأته لوندرة بتنبيله بلقب اللورد فصار اسمه لورد ستراتفورد.

ليلة عيد الميلاد ١٨٥٨

(١) ان القلائل الذين عرفوا اسرار تلك الحركة اجمعوا على القول ان الجمعيات السرية التي عملت للثورة بدأت اعدادها لها وهي تجهل بعضها بعضا، ولا تعرف ان في قرية أخرى جمعية مثلها تدين بمبدئها وتسعى لغايتها. وهذا يدل على أن عقلا واحدا هو الذي أعدّ، في البدء، ودبّر، وسهر على تأليف الجمعيات السرية في تكتم شديد حتى نضجت طبخته وصار لديه ما يقرب من خمسين فدائيا (شيخ شباب) يقودون اكثر من ثلاثمائة مقاتل، فدعاهم الى اجتماع سري للتعارف في عجلتون. وذكر المغفور لهما فيليب وفريد الخازن في «المحررات السياسية»* ان المجتمعين هم:

- صالح جرجس صفير ويوسف الزغبي البسكنتاوي ومخلوف بريدي وطنوس سعد غصن ويوسف طنوس ثابت عن أهل عجلتون.
- حسان صفير وبطرس كنعان كساب عن القليعات.
- باخوس ابي غالب ويوسف انطون نصر عن عشقوت (بلدة البطريرك مسعد).
- الياس المنير وانطون بشاره قطان والياس خضرا وحبيب الجاماتي ويوسف حبالين عن زوق مكايل.
- هابيل وضاهر الخوري العقيقي وحبيب يزبك والياس حبق عن مزرعة كفردبيان.
- سجعان العضيمي وبشاره غانم عن جونيه.

(*) - ج١، ص ٣٩٠.

- حنا ديب ويوسف اغناطيوس عن درعون.
- صليبي القاعي ومارون القيم عن سهيلة وجعيتا والمزارع المجاورة.

ويلاحظ أن طانيوس شاهين لم يحضر الاجتماع العام الاول. ولا حضره أحد من بلدته ريفون وكان عاقدو الاجتماع المذكور قد انتخبوا عنهم وكيلاً عاماً صالح جرجس صفير غير أن صالحا ادرك، او همس في أذنه، ان الحركة جدية جدا، واخطر من أن تكون كالأخويات التي ينشئها متعبّدو القرى، فهي متطورة حتما الى ثورة حقيقية لن يستطيع قيادتها. فجاء الى ريفون مع بعض رفقائه من ممثلي مختلف القرى وطلبوا الى طانيوس شاهين أن يرئس الحركة. قال مؤرخ تلك الثورة المغفور له انطون ضاهر العقيقي:

«فبعد مجادلات عظيمة ومخالفات، قد قبل طانيوس منهم واقاموه وكيلا على قرية ريفون، ثم بعده وكيلا على قرايا كسروان».

ولم تكن الثورة في بدء اندلاع نارها شديدة التطرف بمطالبها، وقد انحصرت غايتها برغبات بديهية، ولكنها خطيرة جداً بالنسبة لزمانها. وهذه هي:

« ١- توزيع ضريبة مال الاعناق على جميع المكلفين بالتساوي - بما فيهم المشايخ الخازنيون الذين يجب أن يؤدوا، هم ايضا، الضريبة أسوة بأبناء الشعب. وان لا يكون للمأمور (الحاكم) الخازني حق زيادة الضريبة على الاهلين.

٢- منع التعدي والظلم. والغاء الضرائب الاضافية التي يتقاضاها المشايخ من الأهلين لأغراضهم الخاصة، وهي منافية للقوانين وللاصلاحات الخيرية التي أعلنها جلالة السلطان.

٣- الغاء هدايا المعايدات ورسوم النكاح والبيع، المفروضة على الفلاحين في الأعياد وعند زواج الشيخ أو عند بيعه قطعة من الأرض.

٤- ان يكون المأمور (الحاكم) واحدا فقط من الأسرة الخازنية، على أن يكون كفؤا للحكم. واما انسباؤه فلا سلطان لهم. ويجب أن

ينتخب في كل قرية وكيل أو وكيلان من ابنائها لتسهيل مهمة المأمور.
٥- حيث أن الدولة العلية، صانها رب البرية، انعمت بالتساوي العام والحرية الكاملة، حتى لا يكون تمييزات، او احتقارات بالمخاطبات، وان تتغير كافة الأصول القديمة بما يخص الكتابة، وصارت رسوم (اوامر) للجميع (بصددها) فنرجو ملاحظة هذا الأمر.
٦- المأمور، وحده، امره نافذ على الجميع. واما اقرباؤه المشايخ فاذا تعدى أحدهم على الأهالي جرى تأديبه بموجب القانون في محاكمة علنية. ومثل هذا يجري على المعتدي من الاهلين.» - («ثورة وفتنة في لبنان» ص ١٦١).

ومما يجب الاشارة اليه أن الامتيازات الاقطاعية في فرض ضرائب المعايدة، والزواج، والمأتم، والبيع الخ... مما يتقاضاه الاقطاعي من الفلاح، لم تكن مقتصرة على آل الخازن. بل كان جميع الاقطاعيين، على اختلاف المذاهب والاماكن، يتقاضونها من فلاحيهم. وكانت من اشد العادات وقعا على الفقراء.

(٢) طانيوس شاهين (١٨١٥ - ١٨٩٤): من اسرة سعادة في ريفون كسروان. عامل ابن فلاح. بدأ حياته بيطريا في قريته، وشوقت له رجولته الجبلية وجرأته ان يعمل مكاريا. والمكاري في ذلك الزمان بريد الضيعة، وقاضي حاجاتها، وعونها في الكروب، ورسولها الى البعيد في الحوادث الجسام، وناقل أخبار المدينة اليها. يعود مساء الى القرية ويرى صبيتها ملاقينه في المطل ليرحبوا به وبما يحمله، فالضيعة كلها بانتظاره وانتظار أخباره ومحموله.

ومن شروط الكرو أن يكون صاحبه قوي العضلات، يستطيع ترويض الدواب التي تنقل له البضائع. وقد رافق قوة عضلات طانيوس شاهين شجاعة وذكاء فطري نادر، وخلق جبلي سمح وأبي، وهذه الصفحات فيه أعجبت الأب فرنسوا ليروا رئيس مدرسة الآباء اللعازاريين في عينطورة فجعلت صاحبها مكاريّ الدير وحصل له الرئيس من

القنصلية الفرنسية ببيروت على شهادة تحميه في المدينة من تبليص موظفيها الذين كانوا يسيئون معاملة الجبليين، ويسخرونهم ويحقرونهم، ويسبون دينهم. وبتلك الحماية وبهمته واختلاطه بجميع الناس، من مشايخ ووجوه وفلاحين، لقضاء حاجاتهم، صارت لطانيوس شاهين شهرة ذاعت في كسروان كله وجعلته ناراً على علم.

كيف انتقل صاحبنا من مكارٍ الى زعيم ثورة و «رئيس جمهورية»؟ مواطنه المغفور له الدكتور يوسف مبارك، رحمات الله على وطنيته وثقافته، درس حياته طوال اربعين سنة، من خلال ما قرأه وسمعه عنه من المعمرين الذين رافقوه أو ادركوا اواخر عهده، واختصر كل ما عرفه بهذه الجملة: «لم ينجب كسروان رجلا في ذكاء طانيوس شاهين ودبلوماسيته، ولو أتيح له أن يتعلم لصار رجل لبنان الأوحد». ونحن في معلوماتنا، غير المنشورة في الكتب، عن طانيوس نستأنس لما قاله عنه الطبيب الانساني، وان غالى الطبيب...

لا ريب في أن ما سمعه طانيوس من أمه عن سوء معاملة المشايخ لزوجها، ولمواطنيها، كان الحافز الاول لاتجاهه الثوري. وقد ذاق صاحبنا في شبابه، وهو فقير يعمل بيطريا، بعض الذي ذاقه أبوه وجيرانه ومواطنوه من تحقير واذلال وتسخير ... ولما عمل مكاريا واحتك بالناس في مختلف قرى كسروان سمع اشياء جديدة أخرى عن سؤ الحكم الاقطاعي. فبدأت تلك المعلومات والمسموعات تتفاعل في نفسه.

وعرف في دير عينطورة راهبا فرنسيا من ابناء ثوار ١٧٨٩ يحسن العربية، كان يحدثه عن تلك الثورة التاريخية ويشرح له مبادئها ومراميها، فيزداد طانيوس ثورية. وهناك كاهن آخر أثّر في توجيهه هو الخوري يوحنا حبيب البتديني (المطران بعدئذ)، الذي تولى القضاء في اواخر أيام الأمير بشير الشهابي الثاني وفي عهد القائم مقاميتين وأسس رهبانية المرسلين اللبنانيين، ولعله هو الذي علّمه بضع كلمات ايطالية

صار يستعملها في مناسبات («اميكو»: صديق، و «سنيور»: سيد) وقد وثق طانيوس بصداقته ونصائحه الى أبعد من اللزوم، فالخوري الذكي لم يكن سوى منفذ سياسة بطريركه آملا بأن يصير مطرانا ... وخيل الى طانيوس أن سماعه حكايات المرسل اللعازاري الفرنسي عن الثورة، وبعض مبادىء تشريعية من الخوري البتديني كاف لأن يقلب نظاماً وينشىء آخر.

واشتهر عنه أنه بعد اندلاع نار الثورة، وفي احاديثه مع سعاة التوفيق، صار يقول: «ان نظام الحكم فاسد فيجب تغييره...» ومن دهائه معهم، وهم القوة الثالثة التي تضم البطريرك وبعض المطارنة والكهنة والاصدقاء وقنصل فرنسا ورئيس مدرسة عينطورة، لما استدرجوه الى وجوب غسل القلوب والتصافي مع المشايخ، على قاعدة أن لا يموت الذئب ولا يفنى الغنم، ايقن أن الثورة عملت عملها وانها ستنجح، فملص من الجواب بقوله أنه لا يستطيع قطع خيط القطن الا برأي جميع أخوانه، عملا بقسمهم، فمن الواجب والحالة هذه أن يرجعوا اليهم جميعاً للتشاور في الأمر. وكان في الوقت عينه يوفد رجاله سراً الى القرى لتحذير الشباب من القبول بالدعوة الى الصلح فهي ترجع المشايخ الى الحكم. ولعل تلك المساعي هي التي عجلته في إعلان الحكم الجمهوري.

ومما رواه عنه مواطنه الدكتور يوسف مبارك، رحمه الله، ان طانيوس شذ عن عادة الفلاح في البخل فعاش غير بخيل. يصلي كل صباح ومساء راكعاً على ركبتيه. لا يأكل اللحم الا في الآحاد والأعياد. قليل الكلام كثير الاصغاء، ولا سيما في ساعات الحسم. ومما أخبرنيه صديقي الطبيب، كرم الله وجهه، ان مستر مور القنصل العام الانكليزي ببيروت حاول بوسائل منوعة جذب طانيوس شاهين الى سياسته، لاكتساب العنصر الماروني الأقوى في كسروان، وبه يسلب فرنسا كثيرين من أنصارها التقليديين، ويصير لانكلترة، المسيطرة على سياسة الاقطاعية الدرزية، النفوذ الحقيقي في الجبل.

ولم يجهل طانيوس شاهين حقيقة مرامي القنصل مور من تودده اليه، مدركاً كل الادراك أنه هو، القنصل، الذي يدافع عن الخازنيين، ويحث الوالي التركي على نصرتهم، فكيف يجمع بين الذئب والغنم؟
وفي ذات يوم زار القنصل زعيم الثورة في بيته القروي المتواضع بريفون، واطلعه على عريضة قدمها له المشايخ يقولون فيها أنهم يطلبون حماية الحكومة الانكليزية وتدخلها لرفع المظالم عنهم وارجاعهم الى اقطاعيتهم. وبعد حوار طويل عرض القنصل حلاً وسطا لعقد الصلح يقضي بتعيين مأمورين اثنين على كسروان، احدهما عن الأهالي ويكون طانيوس، والآخر يمثل الخازنيين ويكون قعدان بك الخازن. وبعد هذا التعيين لا يحق لأي شيخ أن يتدخل في أمور الحكم، وتبطل عادات الهدايا والمعايدات والسخرة. وختم القنصل اقتراحه بأنه، هو، «يكون الساهر على تحقيق الحل المعروض، ويضمن ردع المشايخ عن عاداتهم التي يشكو الفلاحون منها. و... القنصلية مفتوحة الأبواب، دائما، لطانيوس بيك لاستماع ارائه وطلباته...»

سكت زعيم الثورة ولم يجب. لاذ بالصمت كعادته في مواقف الحرج.

واعاد القنصل حديثه متبسطا في بنوده. وزاد في «الرشوة» بقوله ان طانيوس سيكون الحاكم الحقيقي، لان ... انكلترة ... تؤيده ... وظل طانيوس على صمته.

واعاد مستر مور اقتراحه بتفصيل اكثر.. ولم يبح طانيوس بكلمة.
وتبرّم الزائر بسكوته وقال له: «ولكنك ساكت!» وببرودة انكليزية أجابه: «منشوف!»

قال صديقي الراوي الدكتور مبارك: «ان مستر مور رجع الى بيروت شديد الانفعال. ولم يخف عن المقربين اليه اعجابه بمكر الفلاح الريفوني، وقال: «اني ألعب بأصابعي بجميع الزعماء اللبنانيين، ولكن بيطاراً أمياً تحدى بلعبه ممثل صاحبة الجلالة البريطانية!»

وكان طانيوس شاهين يردد أمام الأنصار دائماً:

ليس الفتى كل الفتى   الا الفتى في ادبو (كذا، اي: ادبه)

وبعض اخلاق الفتى   أولى به من نسبو (نسبه)

الا ان ذلك الفلاح العبقري أخطأ في موقف واحد من نضاله الرائد. ولم يكن له من مندوحة في ذلك الزمان عن الوقوع في الخطأ. وحصل ذلك سنة ١٨٦٠ يوم تلاقت استنبول وباريس ولندن، مشتركة، مع الاقطاعيتين المارونية والدرزية، على ايقاظ الفتنة المشؤومة في صفوف الشعب البريء، وقد ماشى المفتنين معظم رجال الدين. فاستيقظت في صدر صاحبنا، على ديموقراطيته الثورية، رواسب مئات السنين الكالحة، العالقة بجدران شرايينه، وقادته الى جمع أنصاره لمقاتلة أخوانه الفلاحين الدروز المضللين بمآرب زعمائهم. غفر الله له، ولنا!

وليس من الحق التجرم على طانيوس شاهين بما اخطأ به وهو القليل الثقافة، والا ضعف من مقاومة قوة جهنمية كامنة في صدره، وصدر كل شرقي وكل عربي وكل لبناني. فالتأثر بالتيار الديني كان - وما يزال. ما يزال حتى كتابة هذه الكلمة - أعظم محرك وأقوى دافع لإثارة جميع الشرقيين والعرب واللبنانيين، واللبنانيين بالتخصيص. ومن كابر للتهرب من الاعتراف بهذه الحقيقة كان محذّراً، او انه في الاكثر الأغلب كاذب على نفسه وعلى الناس...

ولما ولي يوسف كرم قائم مقامية النصارى بالوكالة (١٨٦٠) لقي طانيوس من الحاكم الجديد الشاب سوء معاملة وعدم تقدير، مع أن كرما جنح بعض الجنوح الى تطبيق مبادئه الديموقراطية!

وبعد اعلان نظام جبل لبنان الاول (البروتوكول) سنة ١٨٦١ عين المتصرف داود باشا طانيوس بك شاهين عاملاً على الجرد الكسرواني فظهر مثال الاداري النشيط، العادل، المنصف الجميع على السواء. ولدى المؤلف رسائل من الخوازنة بعد رجوعهم الى منازلهم كتبها أفراد

منهم الى طانيوس بك يطلبون فيها خدمة أو معروفا، او يشكرونه فيها على خدمة أو معروف.

توفي في الثالث من شباط ١٨٩٥ بريفون عن ثمانين سنة ومشى كسروان في مأتمه.

(٣) احمد نظيف باشا، واشتهر باسمه الخاص أحمد باشا، كردي من جبال الموصل خدم في الجيش العثماني ثلاثين سنة. بدأ جنديا وصار يترقى حتى وصل الى رتبة مشير واسندت اليه ايالة الشام وقيادة «جيش عربستان» (البلاد العربية) وهو يشمل سورية ولبنان وفلسطين والحجاز واليمن. وكان أحمد نظيف يحسب نفسه عثمانياً في خدمة الخلافة العثمانية. والكلام الذي قاله عن الدروز والمسيحيين نطق به أمام مستر برانت قنصل انكلترة في دمشق وقد نقله هذا الى سفيره في استنبول. ولم يحصر المشير العثماني رأيه بمذابح لبنان بل نفذه عملياً في ولايته اذ هيّج الغوغاء على مواطنيهم واشترك جنوده في نهب باب توما حي المسيحيين. ولولا شهامة الأمير عبد القادر الجزائري الذي هب من دمّر مع رجاله لنصرة المنكوبين، ولولا مساعدة آل المهايني المسلمين الحقيقيين لما ابقى الرعاع والجنود الارناؤوط والأكراد على مسيحي واحد.

ولما اوفدت استنبول وزير خارجيتها فؤاد باشا الى بيروت ودمشق لوقف المذابح والمآسي المشؤومة انشأ فؤاد باشا محكمة عسكرية وقاضى الزعماء الذين حرضوا على الجرائم، وكان في مقدمتهم المشير احمد نظيف المذكور فحكم عليه بالموت واعدم فوراً في مقر حكمه بدمشق عبرة للناس. وتردّد يومها في اوساط دبلوماسية غربية أن فؤاد باشا أسرع بتنفيذ حكم الموت خوفاً من أن يبوح المجرم بأنه لم يعمل ما عمله الا بأمر من رؤسائه في عاصمة السلطنة.

(٤) لورد دوفرين: على أثر فتنة السنة الستين المشؤومة، اتفقت حكومة جلالة السلطان عبد المجيد العثماني وحكومات حليفاته وصديقاته

انكلترة وبروسية الالمانية وروسية وفرنسا والنمسا على ايفاد لجنة دولية الى لبنان وسورية، برئاسة فؤاد باشا ناظر الخارجية التركية، لأجل ثلاثة مطالب:

١- التحقيق في أسباب الفتنة ومعاقبة مقترفي جرائمها.
٢- التعويض على المنكوبين الذين نهبت بيوتهم، او حرقت، او الخ...
٣- ضمان اقرار السلم بايجاد ادارة نزيهة وعادلة.

واعلنت الدول الاوروبية الخمس ما يفهم منه أنها لا تشترك في المهمة الدولية المذكورة الا لغاية انسانية، وليس لها من غرض آخر، سوى مساعدة حكومة صديقها جلالة السلطان عبد المجيد على تحقيق الرفاهية والعدل الكاملين لجميع رعاياه دون استثناء، وانها قد أمرت مندوبيها بأن يعملوا بالتفاهم التام والتعاون الصادق مع مندوبه الذي سيرئس اجتماعات لجنتهم.

ولتحقيق المهمة الشريفة التي ذكرناها اختارت الملكة فكتورية الانكليزية من بين نبلائها الفارس الكلي الاعتبار لورد دوفرين ليكون ممثلاً حكومتها في اللجنة.

ومنذ اليوم الاول رافقت تصرف لورد دوفرين علامات استفهام: فهو يأتي الى استنبول بحجة «التزود بالتعليمات من السفير الانكليزي فيها، واخذ الافادات اللازمة لقضاء مهمته على أحسن وجه» - كذا - واذا به يحظى، وحده، بالمثول بين يدي جلالة السلطان ويسمع منه المجاملة التي لا يسمعها من جلالته الا المقربون. وقد وصف مثوله بهذا الكلام: «فتلطف جلالته بأن قال لي إنه سرّ كثيراً بهذه المناسبة التي مكنته من مشاهدتي قبل سفري الى سورية. ثم أعرب جلالته عن شدة اشمئزازه مما جرى في تلك البلاد بعبارة شديدة اللهجة الخ...» - «مجموعة المحررات السياسية»: ج ٢، ص ٣٠٣.

ووصل لورد دوفرين الى بيروت على سفينة خاصة أعدها له «صديقه الخاص سمو إلهامي باشا صهر السلطان» وقيل له إن فؤاد باشا وزير

الخارجية ورئيس اللجنة قد ذهب الى دمشق فأسرع اليها ليخلو به طويلا. وليس من يعرف تفاصيل ما دار بينهما. ولكن الأيام اظهرت انهما متفقان اتفاقاً شديداً على العمل يداً واحدة لمقاومة أي مسعى يوطد نفوذ فرنسا في هذه البلاد، ولتقليم اظافرها فيها بقدر المستطاع.

وبدأت اللجنة الدولية أعمالها في بيروت واذا باللورد الانكليزي النبيل أشد زملائه عطفاً على المسيحيين المنكوبين، وأعنف المتكلمين تنديداً بمضطهديهم، حتى انه لم يبق مجالاً لأي مندوب اوروبي آخر يزيد كلمة على كلمات مشاعره الحساسة الشريفة.

وتمر الجلسات الاولى لأعمال اللجنة الدولية واذا بصاحبنا قد درس حقيقة كل مندوب من زملائه، ووزن فهمه وادراكه، وعرف مراميه، فراح يلعب بهم جميعا. يداورهم ويكذب عليهم. يثير مندوبا على مندوب. يوحي الى واحدهم بفكرة ويشجع الآخر على فكرة تنقضها، وبخلقه البلبلة في تيارات اللجنة، وباطالة جلساتها، حتى ملّ المندوبون الآخرون، استطاع أن يوجه عملها.

وقابل جميع المتزعمين من اقطاعيين ورجال دين بكياسة ساحرة وجاملهم بلطف مسكر. وبدا مع الدروز عبداً لمولانا الحاكم بأمر الله، وبدا مع المسيحيين رسولاً للصليبية.

وفي جلسات اللجنة، وفي خلواته بأصحاب الشأن، قاوم مبدأ استقلال لبنان مقاومة عنيفة. وحارب الابقاء على أي امتياز للمسيحيين فيه يحميهم كما كانوا في الماضي، وهي امتيازات أقرها السلاطين! وأصر على أن يكونوا رعايا للسلطان مثل الآخرين، واحتج بأنه اذا كان لا بدّ من حماية للمسيحيين اللبنانيين فيجب أن تشمل هذه الحماية جميع المسيحيين في لبنان وسورية وفلسطين، وان توضع الأقطار الثلاثة تحت الرقابة الاوروبية.

وبهذا التدبير يقل عدد الموارنة في ديار «الهلال الخصيب» فيقل شأنهم مسيحيا.

وبهذا يتضاءل النفوذ الفرنسي في المشرق ويضعف قدرا.

وحرض لورد دوفرين زميله المندوب الروسي على المطالبة بفصل الارثوذوكس عن الموارنة واعطائهم قائمقامية خاصة بهم كي لا يكونوا تحت رحمة أخوتهم «المتوحشين»، فاندفع المندوب الروسي الى غايته، وما أغلاها هدية، وحشر زميله الفرنسي في دائرة مارونية – لا مسيحية – ضيقة، فضعفت حجته في المطالبة باعادة الامارة اللبنانية.

وبهذا تبقى سورية تركيةً تحركها الأصابع الانكليزية، في الاكثر...

ونعت الشهم الانكليزي الدروز والموارنة والدمشقيين بالهمجية والوحشية، الا انه دافع دفاعاً حاراً عن «كبار زعماء الدروز وقال بوجوب المحافظة على طبقة اشرافهم» – «مجموعة المحررات السياسية»: ج ٣، ص ١٥٨.

واتهم الموارنة بجرائم لم يتهمهم بها خصومهم، غير أنه وعد فؤاد باشا رئيس اللجنة الدولية بتسليفه خمسة آلاف ليرة انكليزية ذهبا من ماله الخاص ليبدأ بها التوزيع على المنكوبين، ريثما يأتيه المال المطلوب. ثم اوجد صاحبنا عملاً للمنكوبين الهاربين الى بيروت كي لا يجوعوا فكلفهم شق طريق ونقدهم اجورهم من جيبه. اي ملاك هو في جسم انسان!

وبقي لورد دوفرين في جميع خططه الرئيسية متفقاً اتفاقاً وثيقاً مع الداهية التركي فؤاد باشا، السابح حتى ذقنه الشائبة في محيط التبسط الانكليزي في أرض الرجل المريض. فما تفسير ذلك التصرف كله؟

ان لورد دوفرين من زملاء الداهيتين الوصوليين دزرائيلي وبالمرستون اللذين رأسا الوزارة الانكليزية في عصر الملكة ڤكتوريا. والثلاثة من أرباب الفلسفة التجارية البريطانية التي لمعت في ذلك العصر وعملت المستحيل بذكاء أو ثعلبة، وبجرأة أو غدر، لجعل بلدان الشرق كله سوقاً للتجار الانكليز ولاستثمار موادها الخام. وان في هذا الشرق: الهند، معجن الشعب الانكليزي، والمزرعة الأخصب والأوسع لرأسماليه، ودولاب معامل ليفربول ومصانع مانشستر.

ولما اختارته الملكة ڤكتورية ممثلا لحكومتها في اللجنة الدولية الاوروبية، رسم لورد دوفرين في مقدمة خططه – «الانسانية البحت!» – حماية التجار الانكليز في بلدان الهلال الخصيب، وحماية طريق الهند.

ونحن نذكر أن تينك الحمايتين هما اللتان دفعتا لندن الى محاربة محمد علي لأنه حالف فرنسا وأدناها من طريق الهند، ولأنه احتكر التجارة في لبنان وسورية وفلسطين فالحق الأضرار الجسيمة بالتجار الانكليز.

بعد المطاف الطويل، وما اصعب تعارجه، وبعد ان حطم اللورد الانكليزي جميع المساعي التي حاولت بعث الامارة اللبنانية «المستقلة»، وبعد فشل جميع مداوراته لجعل سورية الجغرافية خديوية تركية مستقلة، على غرار مصر، يحكمها فؤاد باشا مدى الحياة، وتكون حليفة المصالح البريطانية – بعد ذلك المطاف الطويل ادرك اللورد الانكليزي أن لا حيلة له في القضاء على لبنان قضاء مبرما، كما تشتهي فلسفة التجارة البريطانية، فسلّم وسلّمت حكومته بوضع نظام جديد لحكم لبنان عرف باسم البروتوكول، سلخ عنه أخصب أراضيه وحصره في جباله الجرد. فأوجد «المسألة اللبنانية».

وذلك الحصر الذي قصد مندوب الملكة ڤكتوريا من ورائه تجويع اللبنانيين لتركيعهم، انتج وثبة الفلاح الجبلي الى مختلف المهاجر ليبني أسس لبنان جديد.

ومن «مآثر» لورد دوفرين في سياسته الامبريالية الشرقية أن حكومته انتدبته للاشتراك في معالجة الأزمة المالية التي تخبطت فيها مصر من جراء تبذير حاكميها سعيد باشا والخديوي اسمعيل باشا (جد فاروق لابيه) اللذين اغرقاها بالديون، فقام لورد دوفرين بمهمته عابثا بكرامة مصر وسيادتها، ومهد لاحتلالها.

وعلى أعماله المجيدة في ما قدمه من خدمات للعرش كافأته حكومته بتعيينه حاكماً عاماً على الهند، يذبح فيها بظفره!

مواطنون يتذابحون

(١) السمية: (او: العهدة)، هي في الزمان الاقطاعي انتماء ابناء الشعب الى سيد الاقطاعية التي يعيشون فيها. ومن موجبات السمية أن المنتمي يخدم سيده في جميع الظروف السلمية والحربية، بمعنى أن دمه يخص مولاه، وذلك لقاء حماية الاقطاعي لابن سميته، والحدب عليه، ومساعدته بالمال في ضيقه، كأنه واحد من اخصائه الاقربين المجبور باعالتهم والدفاع عنهم.

وكان من مراسم السمية أن الأمير (أو الشيخ) صاحب الاقطاعية يخلع على ابن سميته في حالة رضاه عنه عباءة أو «صاكو» او مشطاً. ومتى لبس المنتمي المخلوع عليه هذه العباءة، او حمل المشط، وحضر اجتماعاً شعبيا حقّت له الصدارة فيه واطاعه المجتمعون، وحكم في خلافاتهم الجزئية. (راجع قصة الخلعة الخازنية على البطريرك بولس مسعد.)

وبعد معركة عين دارة وتوزيع منتصرها الرئيسي الأمير حيدر اقطاعات اليمانيين المهزومين على أنصاره القيسيين، كانت مقاطعة الشحار التي تبدأ بالدامور من نصيب المشايخ النكدية. وهؤلاء شجعان شديدو الشكيمة، اباة، لا يميلون الى اللين. ولما ظهر الوعي الفلاحي في الشوف كان فلاحوهم في قراهم المسيحية طلائع الواعين. وظاهرة أخرى من شدة الشكيمة النكدية أن مقاطعة المناصف (قاعدتها دير القمر) كانت من نصيبهم ايضاً بعد عين دارة، فجرت لهم قصص مع مسيحييها اضطرتهم الى النزوح عنها.

(٢) بطرس كرامه (١٧٧٤ - ١٨٥١): متأدب ذكي من حمص وظّفه بشير الشهابي عنده مراعاة لالتماس ابن خاله حنا البحري المستشار

الرئيسي لابرهيم باشا، وصاحب الرأي المسموع لديه. والمظنون أن بطرس كرامه بدأ مهمته في سراية بيت الدين «عيناً» لابن خاله المذكور، وبالتالي لوالي مصر، ينقل اليه أخبار الحكم.

وبلين ملمسه، وإحنائه رقبته، وترديده أمام سيده الشهابي قوله: «من بعد أمر الدولتلي (اي صاحب الدولة الحاكم - وصدق سيدنا الميرا!» استطاع المعلم بطرس أن يكسب رضى الحاكم عن عبوديته. وبتملقه ونظم القصائد في مدحه ومدح ابنائه وحلفائه، ومدح اولي الأمر العثمانيين، صار بطرس الأمين العام (كتخا) لامارة لبنان. وهكذا، وبواسطة حنا البحري ابن خاله، صار في الاحتلال المصري صلة الوصل بين محمد علي باشا وابنه ابرهيم المتجول في بر الشام والاناضول من جهة وبين الأمير بشير من جهة أخرى.

وفي السنتين الأخيرتين من حكم الاحتلال المذكور، الذي بدأ مثالياً على ما أجمع عليه المؤرخون وانتهى منحطاً ومغضوباً عليه، اخذت الشيخوخة والعوامل النفسية والجسدية الناشئة من ممارسته الحياة الزوجية الشبقة تفعل فعلها في قوى عقل الأمير بشير، اذ انكسر خاطره من قسوة معاملة رجال ابرهيم باشا له، بعد أن وهم أن حليفه وصديقه محمد علي بعث مئة ألف جندي مصري وألباني وسوداني الى لبنان لأجل توطيد الحكم الشهابي، وانفق الملايين عليهم كي تكون حملتهم العسكرية في خدمة ابنائه الامراء الطائشين، ولما ساد الحكم العسكري، والأيام أيام حرب جدية، استأثر بطرس كرامه بأكثر ما بقي للإمارة من صلاحيات ثنوية تافهة، وغرق في ممالأة أسياد العهد، دون أن يبالي بمصالح الشعب، ولاهمه بؤسه، والارجح أنه اشترك في تعذيبه بدليل أن رجال الثورة على الاحتلال طلبوا في البند الثاني من شروطهم على الأمير الحاكم كي يوقفوا ثورتهم «ان يُرفع بطرس كرامه من ديوانه.» (الشدياق: ص ٥٩١).

ولما نفي ابو سعدى الى مالطه واستنبول رافق المعلم بطرس سيده الى المنفى في عداد الخدم الذين رافقوه. وبسحر ساحر عين ترجماناً عربيا في الباب العالي! نعم: بسحر ساحر انتقل من خدمة السياسة المصرية الفرنسية الى خدمة السلطنة العثمانية الناقمة على محمد علي!

وجنى المعلم بطرس ثروة محترمة بدّدها ابنه ابرهيم. وهذا الابن كان ذكياً مثل ابيه ومتعلماً يتقن التركية والفرنسية والعربية. وقد عينه فؤاد باشا وزير الخارجية التركية عند رئاسة اللجنة الدولية الاوروبية مترجماً عربياً في عداد موظفيه، ولكنه ساء سلوكاً وارتشى مراراً «واوشك أن يلحق عاراً بالمحكمة غير العادية التي عينت لمحاكمة المتهمين» بايقاظ الفتنة، مدعياً أنه يمثل فؤاد باشا مما اضطر الوزير الى زجه في السجن.

(٣) الحوالية، وقيل لهم ايضا الضابطيه: هم جنود العهد الاقطاعي. ومهمتهم تشبه مهمة الدرك في ايامنا بعض الشبه. كانوا يكلفون تنفيذ اوامر الحاكم باعتقال المجرمين والمطلوبين الى السراية، وبتحصيل الغرامات المفروضة على قرية أو على أحد افرادها، فيحلون بالمكان ويرهقوزن سكانه بارغامهم على تقديم الأكل لهم والعلف لخيولهم، مصرين على طلب الطيبات وعلى ذبح الخراف والدجاج، ثم يسرحون في الجنائن آكلين فاكهتها. واذا حلوا بلدة مسيحية طلبوا العرق والخمر. وكثيراً ما وقع أنهم ما غادروا المكان إلاّ بعد نفاذ المؤنة منه. فذلك التضييق على السكان كان من اكره ما يلقاه الجبلي من ظلم الحكومة ومن جور الحوالية.

وكان ممثّلو الدول الاجنبية الذين وضعوا نظام جبل لبنان قد سمعوا بما يرتكبونه من مظالم، وادركوا تأثير تصرفهم السيء في علاقة المواطن بحكومته، فنصوا في البند الرابع عشر من النظام المذكور على وجوب «نسخ (إلغاء) الحوالية وابطال نزول الضابطية على البيوت.»

ولكن عمل الحوالية استمر في جميع عهود المتصرفية والانتداب والاستقلال. وما يزال أثر منه في بعض الجهات النائية...

(٤) لورد بالمرستون (١٧٨٤ – ١٨٦٥): اسمه الأصيل هنري تِمپل، وقد كافأته الملكة ڤكتورية على الخدمات التي خدم بها العرش البريطاني، الفاتح فاه للاستعمار واستغلال الشعوب المستضعفة، فنبّلته بلقب «لورد بالمرستون» واشتهر به.

مواطنوه الانكليز يعدّونه من افذاذ رجالهم الذين بنوا عصر الملكة ڤكتورية – العهد الڤكتوري – في القرن التاسع عشر، واستطاعوا أن يجعلوا من جزيرتهم انبراطورية مخيفة لا تغيب الشمس عن الأراضي التي اغتصبتها أو سيطرت عليها في المشارق والمغارب.

ومما يؤثر عن لورد بالمرستون أنه جدد شباب مملكة الانتلجانس سرفيس، اعرف دائرة للتجسس في العالم. فجعل في كل وزارة من وزارات الحكومة البريطانية دائرة مستقلة من الانتلجانس سرفيس لمراقبة سيرها واطلاع المركز الرئيسي على اعمالها.

واللورد بالمرستون هو الذي قال بأن تكون للانتلجانس سرفيس «املاك خاصة بها، واسهم في مشاريع رأسمالية دولية ضخمة (السكك الحديدية والبواخر)، وان تسيطر على مصارف ومصانع ومزارع وشركات عظيمة لا تحصى في سائر انحاء المعمور. وقيل ان نصف المستعمرات الانكليزية ملكها.» ومن أغنى ما تملكه في العالم العربي آبار النفط...*

انتخب هنري تمپل نائباً عن حزب المحافظين وهو في الثالثة والعشرين من شبابه. وخاض غمار السياسة مكافحاً بجرأة وذكاء أوصلاه الى كرسي وزارة الخارجية، جاعلا نصب عينيه أن تسود سياسة جزيرته انحاء العالم كله. فقد نشأ معجباً بالغطرسة الرومانية التي اتخذ أبناؤها شعاراً لهم: «انا مواطن روماني – CIVIS ROMANUS SUM». وأراد ان

(*) «النفط مستعبد الشعوب»، فصل «سيدة العالم».

يكون هذا التباهي شعار الانكليزي ايضا، واراد أن يثق كل انكليزي «بأن ذراع حكومته القوية تحميه أنّى عاش»، فراح يحرضه على كونه الشعب الاول في العالم، ومن حقه السيطرة عليه. وبهذه النفسية المستعلية يُعَد لورد بالمرستون الاستاذ الحقيقي لكل من الطاغيتين موسوليني وهتلر في الانتفاخ وحب السيطرة.

ومنذ الساعة الاولى من قيادة بالمرستون سياسة انكلترة الخارجية رسم خطّها الرئيسي بأنه متابعة العداء الانكليزي للتبسط الفرنسي، والعداء الانكليزي للتبسط الروسي، وهو العداء عينه الذي حمل نابوليون الاول لواءه طوال حروبه التبسطية ضد انكلترة وضد روسية وحليفاتها. فحمل بالمرستون بدوره هذا اللواء حتى موته.

وكان نصيب لبنان من عواقب تلك السياسة مشؤوما ومنكودا: فقد وقف بالمرستون من جميع رزايانا، وطوال وجوده في الحكم، موقفا أنانياً لئيماً، لا لكراهيته لفئة منا، ولا لعطفه على فئة أخرى، ولكن عملاً بخطه في معاداة فرنسا التي يرتبط بها الموارنة بعلائق كثيرة، ومثيرة وعتيقة، وشاء القدر أن نكون مجاوري طريق الهند، وفي احدى دروبها، وفي واحد من الممرات العالمية الى ديار العرب، وان تكون سياسة فرنسا هي التي تنافس مطامع التجار الانكليز الساعين الى ابتلاع خيرات الهند وحدهم، والاستئثار بتجارة العالم العربي. فلما كانت الفتنة المفتعلة، الغبية، التي أدت الى قسم لبنان قسمين طائفيين وانشاء القائم مقاميتين فيهما، ذكر كارل ماركس، ما عمله النبيل الانكليزي فقال:

«... في سنة ١٨٤١، قدم اللورد بالمرستون (وكان وزيراً للخارجية البريطانية) للدروز أسلحة ما يزالون يحتفظون بها حتى يومنا هذا (١٨٦٠)، كما انه عقد في سنة ١٨٤٥ مع القيصر (الروسي) نيقولا معاهدة أدّت عمليا الى الغاء السيطرة التركية عن قبائل لبنان العاصية، مانحاً اياهم استقلالاً زائفا لم يورثهم – بسبب إحكام تدبير المتآمرين

الأجانب – سوى موسم من الدم.»* ولكارل ماركس في كذب النبيل الانكليزي وشروره أقوال كثيرة.

وأذلّ بالمرستون حكومة اليونان لأنها «لم تعتبر» سمساراً يهوديّا مشرقي الأصل اسمه حاييم شالوم (باتشيفيكو) مشمولاً بالحماية الانكليزية.

وقاوم المساعي للوحدة الايطالية وللوحدة الألمانية اذ رآهما تنذران بضرّ النمسا، وهو يريد الحفاظ على هذه الانبراطورية الكبيرة، المتعددة الجنسيات والأديان، لأنها الحليفة التقليدية للمطامع البريطانية. وكان يرى في نمو «الزولفرين»** ضرراً بتجارة الرأسمالية الانكليزية.

وعاكس بالمرستون مساعي الوطنيين البولونيين للتحرر من الاستعباد الروسي، في حين أنه كان يكره روسية! وقد أصدر يساريو الانكليز بياناً سنة ١٨٥٥ ضد سياسته هذه قالوا فيه: «ما دام بالمرستون في خدمة العرش فكل اقتراح لإعادة بناء بولونية انما هو فخ وخداع.»

وكما اشتهر بالمرستون بالخبث والنفاق كذلك اشتهر بقدرته على التصنع وإخفاء نياته الشريرة بطبعها بطابع المروءة والشعارات الانسانية. من ذلك انه اثيرت سنة ١٨٥٧ مشكلة التخلف في حكم سعيد باشا ابن محمد علي، واتهمت المعارضة الانكليزية بالمرستون بانه، بالاشتراك مع فرنسا، يتآمر على استقلال وادي النيل. فكتب اللورد المذكور ينفي التهمة عنه بقوله: «نحن لا نريد مصر، حتى وان صارت لنا لقاء تركنا مراكش لفرنسا، فان هذا يثير مشاعر الانسانية!»

وماذا كانت النتيجة لمراعاة المشاعر الانسانية؟

كانت ان انكلترة احتلت مصر وأذلّتها ونهبت خيراتها، واحتلت فرنسا مراكش واذلتها ونهبت خيراتها. والاحتلالان اشتركا في ايجاد

(*) من مقال لكارل ماركس ترجمته جريدة «الحرية» البيروتية في عددها الصادر في ٢٥ من ايلول (سبتمبر) ١٩٧١، وهو ينشر للمرة الاولى باللغة العربية.

(**) جمعية الاشتراك الجمركي بين الدويلات الالمانية قبل وحدتها.

الأسباب الرئيسية لإشعال نار الحرب العالمية الاولى.
وقيل ان الكومندان اوربلي رئيس أركان حرب فؤاد باشا اثناء مهمته في لبنان وسورية هو ابن بالمرستون.

جنون

(١) المرابون في دير القمر: سمع المؤلف كبير قومه الشيخ الجليل مسعود افرام البستاني، احد أصحاب الكلمة العاقلة في دير القمر، يتحدث عن أسباب الفتنة المشؤومة، والدور الذي حكم على ابناء بلدته أن يقوموا به فيها، سلبا وايجاباً، وكان من رأي الشيخ مسعود، رحمات الله عليه، ان العنجهية الاقطاعية النكدية من جهة واستبداد المرابين من أبناء الدير من جهة أخرى، يحملان، هما ايضا، قسطا من الأخطاء التي ايقظت الفتنة في السنة الستين وباعدت بين المواطنين الأخوة. فقد كان المرابون المذكورون يرهقون فلاح المنطقة – كل فلاح يستدين – بيهظ الفوائد يتقاضونها على ما يستدينه منهم. واذا اتفق أن مَحَلَ موسم الشرانق الانتاج الرئيسي للفلاح، وهو دائماً تحت رحمة المحل، اضطر المزارع المنكود الحظ لإرجاء وفاء دينه. فكان المرابي يضغطه بزيادة الفائدة ضغطاً قاسياً لا يتفق والمروءة اللبنانية، والفلاح يمتثل مكرها لشروطه المستبدة والحقد يملأ صدره. وكثيرون من المستدينين المقهورين كانوا دروزا فبديهي أن يحركهم صوت الفتنة ليثوروا بعامل الانتقام، لا بدافع الدين، على الذين ضغطوهم واستغلوهم وضيقوا عليهم، فراح المرابون، وكثيرون منهم غير موارنة، يستصرخون «أخوتهم» المسيحيين ان الدروز يغدرون بهم.
ورُبَّ فلاحين مسيحيين استبدّ بهم المرابون واذاقوهم المرّين، لبوا «اخوتهم» المرابين «المغدور بهم» في الدير!

(٢) سمع المؤلف من عمه الشيخ فارس نمر يزبك ان صديقه الزعيم الدرزي البشاموني عباس بك بو براهيم كان في حوادث السنة الستين

ممتطياً جواده الى دير القمر، وقبيل وصوله الى البلدة التقى ديريتين هائمتين هرباً بدون غطاء على رأسيهما، فغضب وثارت نخوته قائل: «الله يجازيكم يا دروز!» ثم انتزع من عن وسطه زناره الكشمير وقطعه وأعطى القطعتين للهاربتين حتى تغطيا رأسيهما.

ونشأت «المسألة اللبنانية»

(١) تيوقراطي: كلمة يونانية الأصل معناها: صاحب السلطان الالهي، وتدل على أن الملك أو السلطان أو الأمير المنعوت بها يستمد قوته من الله. اذن، فانه مطلق المشيئة، ولا يجوز لأحد أن يحاسبه أو يراقبه أو يرفع صوته أمامه. وهذا كان حال ملوك اليهود في التوراة.

وعلى الرغم من أن الاسلام لا يقر هذا النوع من الحكم، وقد اجاز، بل أمر، ايّ مؤمن بأن يوقف السلطان، وان هو خليفة، عند حده فيما اذا انحرف، فان اكثر الخلفاء العثمانيين قد غالوا في الاوتوقراطية، وذلك لأن أكثر رجال الدين جاروا استبدادهم وانحرافهم تزلفاً وطمعاً بالنفع والكسب. وقد رأى حكيم الشرق الاستاذ الافغاني أن ذلك التصرف اللا مسلم، من رجال الدين، هو من أسباب تخلف الشرق.

(٢) المتصرف: ترجمة لكلمة «بلينيبوتانسيار» الفرنسية وتعني: الكامل السلطان. كانت تطلق على رسل الملوك الى المفاوضات الاجنبية وتشير الى أنهم مزودون بتفويض من موفديهم لاجراء ما يرونه مناسباً لتحقيق مهمتهم. وبعد المجزرة العالمية الاولى كثر استعمال هذه الكلمة في الصحافة العربية وترجموها بـ «المطلق الصلاحية» اي الكامل السلطان.

وفي مفاوضات اللجنة الدولية الاوروبية اختلف الأعضاء على الاسم الذي يطلق على حاكم لبنان العام، وكانت السلطنة العثمانية ترفض أن يلقب بأمير ولا تسمح بهذه اللفظة، وأصر المندوب الفرنسي على تلقيبه بأمير ما دام هو يقوم بمهمته. ودار جدل في اللجنة وعرضت اسماء عدة انتهت باقتراح من المندوب النمسوي أن يسمى حاكم لبنان العام بالكلمة الفرنسية الأصل «بلينيبوتانسيار»، اي الكامل

السلطان. وكان على صواب في اختياره الكلمة فوافقوا عليها وترجموها بكلمة متصرف. ونعم الترجمة.

وبعد مدة قليلة نظمت الحكومة العثمانية مقاطعات السلطنة تنظيماً جديداً واطلقت اسم متصرف على الموظف الاداري الذي يلي الوالي. وقال داود باشا متصرف الجبل يوماً: ان الحكومة تعمدت هذه التسمية تقليلا من مقام حاكم لبنان في حين أنه يحمل رتبتي وزير ومشير!

وظل متصرفو لبنان يرون ان مقامهم هو في مقام الوزير والمشير. وكان مظفر باشا يقول: «اني أعظم شأنا من خديوي مصر، فهذا تعزله استنبول واما متصرف لبنان فلا يعزل إلا بموافقة الدول الست التي تحمي بروتوكول استقلال الجبل».

يوسف كرم

(١) عندما تناقشت اللجنة الدولية الاوروبية في وضع القانون الأساسي (الدستور) للبنان الجديد، وبحثت في حدوده، قدم المندوب الفرنسي لزملائه خارطة رسمها أركان حرب الحملة العسكرية الفرنسية، تضم تربة الجبل ووادي التيم والبقاع – وهي اراضٍ لبنانية في أغلب الأحيان منذ الانتشار التنوخي في هذه الأرض بعد هربه من شمالي سورية، وبعد ارتكاز الدعوة التوحيدية الحاكمية (الدرزية) فيها، ووادي التيم تصفه الكتب التوحيدية بالوادي الأنور، اشارة الى إشعاع الدين التوحيدي الحاكمي (الدرزي) منه. وكذلك ضمت خارطة الحملة الفرنسية الى جانب هذه الأرض: صور وصيدا وبيروت وطرابلس وعكار. واقترح المندوب الفرنسي أن يكون لبنان الجديد مجموعة الأراضي التي رسمت في الخارطة. فاعترض المندوب الانكليزي على اقتراحه، تمشيا مع القاعدة المرسومة له بمعاكسة كل اقتراح فرنسي وكان جدل. واستطاع المندوب الانكليزي اقناع معظم زملائه بأن تصغير لبنان يقلل من المشاكل التي تزعج حكومة السلطان، فتزعج بالتالي حكومات اوروبة. وكان هذا الرأي هو الرأي المعلن في الجلسة، واما في السر فقد استطاع لورد دوفرين اقناع كل واحد من زملائه، على حدة، بسبب يلائم مصالح حكومته. والحجة الاولى في ذلك الاقناع السري قامت على أساس أن فرنسا هي وحدها المستفيدة من تكبير لبنان الذي يوطد قدمها في المشرق، ويمنح تجارتها المكاسب الرئيسية في المنطقة كلها، والى ابعد من المنطقة. وكان بديهياً أن ترفض اللجنة بالاجماع مشروع تكبير لبنان. فامتلأ صدر فؤاد باشا

ارتياحاً لتلك النتيجة اذ إنه استطاع حصر اللبنانيين في الجبل الصغير، وهذا يؤدي الى تجويعهم وتضييق مداهم الحيوي واستسلامهم...
غير ان اللبنانيين لم يستسلموا.
وحفظت خارطة الحدود التي رسمها أركان الحملة العسكرية في وزارة الحرب بباريس ستين سنة. وظلت الأحزاب الاستقلالية التي تبنت «المسألة اللبنانية» تطالب باسترجاع الأراضي المسلوخة عن الجبل، حتى أعلن «لبنان الكبير» على أساس الخارطة المذكورة بعد تغيير قليل فيها، وبعد اقتطاع بضع قرى في حدود الجنوب «منحها» الاحتلال الفرنسي للاحتلال الانكليزي في فلسطين، بمسعى من الصهونية.

(٢) الاغتراب الى اميركا عامة، والى الولايات المتحدة خاصة، عاد على الجبليين بفوائد كثيرة. غير أن مغتربي الولايات المتحدة رجعوا الينا بذهنية مستحدثة. وقد اعتنقوا «دينا» عجيبا لا عهد لنا به. وفاجأوا ذويهم بمبدأ: «شو بيسوَا؟ - كم يساوي؟»، فأنت، في رأيهم، اذا ملكت مئة دولار بلغ ثمنك مئة دولار، واذا ربحت مليوناً صار قدرك مليونا. واذا رجعت فارغ اليدين إلا أن عقلك قد امتلأ علماً وفلسفة، فانت لا تساوي دولارا. وكان المقيم يسأل العائد: كيف حال نسيبنا طنوس؟ كيف حوال جارنا ابن محمود؟ ويقلب الراجع شفتيه ويقول: «اوه ... وِل ... طوني (طنوس) بيسوا خمسين ميّه ... تشارلي (ابن محمود) بيسوا مِيّت ميه!»
وجميع هؤلاء الراجعين اشتركوا في بناء الجبل، وارسلوا صغارهم الى المدارس. وارتفع عدد المنازل ذات الهندسة الفلورنسية الضاحكة، وعدد الاولاد المتعلمين الى درجة متقدمة لا نسبة لها، ولا شبه نسبة، في الشرق كله. ولم تخل قرية، حتى في الأعالي والأقاصي، من مدرسة وان هي بقايا «تحت السنديانة». (مدرسة تحت السنديانة كانت المدرسة الوحيدة في القرية، في القرنين السابع عشر والثامن عشر. وقصتها انه كان في جوار كل كنيسة سنديانتان أو ثلاث، يستظل

الصغار احداها في الهواء الطلق، ويتعلمون مبادىء قراءة السريانية والعربية مع كتابتهما، من الكاهن أو شماسه لقاء رغيفين أو مغرفة دبس أو دهن أو فنجان من الزيت يؤديه التلميذ اجراً للمعلم مرة في آخر كل اسبوع. وفي القرن التاسع عشر قامت عمارات المدارس الاكليريكية والداخلية. «ومدرسة تحت السنديانة» البدائية، تلك الخليّة الرسولية المباركة، هي صاحبة الفضل العميم في مطاردة الامية من الجبل، رحم الله معلميها! وكان الجبلي يحب شجرة السنديان ويراها عنوان الصلابة والقوة والثبات. وقد جعلها في العهد المعني أحد رسمي علمه الوطني، اولهما رسم الارزة والآخر رسم السنديانة.)
اما ذهنية «كم يساوي فلان» التي رجع الينا بها المغتربون فهي وليدة التشريد والتشتيت والاضطهادات التي لقيها يهود اوروبة في القرون الوسطى واضطرتهم لأن يكنزوا المال ويجعلوه بديلاً للوطن الذي فقدوه، فصار الواحد منهم يساوي ما يحمله من هذا المال.

(٣) يوسف كرم (١٨٢٣ - ١٨٨٩): من ابناء اعرق اسر البورجوازية في لبنان الشمالي. وليَ جدوده اقطاعة اهدن وتوابعها قرنين ونصف القرن. ولما توفي والده خلفه عليها مع شقيقه. واشتهر بعض الكرميين بالجرأة والتصلب ساعة المروءة - او ساعة يخيل اليهم أنهم يلبون داعي الحق - فكانوا يصرون على تصلبهم وإن اغضبوا الآخرين من كبار وصغار. ولعل تفرد الشيخ بطرس كرم (والد يوسف) في بقائه على الولاء لابرهيم باشا بن محمد علي، بعد ان انقلب عليه اكثر المتزعمين اللبنانيين بتحريض من الانكليز بسبب أخطاء الحكم المصري - يدل على أصالة الشهامة في البيت الكرمي.
وفي فتنة السنة الستين عين يوسف بك كرم وكيل قائم مقام النصارى (١٧ تشرين الثاني/نوفمبر) خلفاً للأمير بشير احمد اللمعي السيء التصرف، وكانت القائم مقامية تبدأ من طرابلس وتنتهي في طريق الشام، وهي الطريق عينها التي نعرفها اليوم بين بيروت وصوفر، مع

انحرافات الى اليمين أو اليسار. وكانت منطقة البقاع ضمن هذه القائم مقامية. وما ان أعلن تعيين كرم حتى غصّت الاقطاعية المارونية، وبنو الخازن بالتخصيص، وقد املوا بأن يكون واحد منهم خلفاً للّمعي، وحجتهم ان كرماً ليس باقطاعي اصيل فان امير لبنان لم يكتب الى جدّه او ابيه بلقب «الأخ العزيز»!

ولم يعبأ القائم مقام الشاب بالتحرض الاقطاعي، وتسلم منصبه ونقل عاصمته الى جونية، مرفأ الاقطاعية المارونية التي ضاقت به عينا. وشمّر عن ساعد الجد بذهنية جريئة وتفكير شخصاني ينزع الى التفرد في التقرير والتنفيذ، فوقع في أخطاء شجعت الحركة الشعبية الديموقراطية (طانيوس شاهين) والزعامة الدينية (البطريرك مسعد) والاقطاعية المكسورة الظهر (بني الخازن وبني حبيش) على معارضته. وشارك الاحتلال الفرنسي المعارضين في إزعاجه وإلهائه عن تحقيق منهاجه الثوري المبتكر الرائع، الذي أعلنه على أثر تعيينه، ولم يسمع بمثله الشرق من قبل.

– منهاجه؟

– اجل

وهو باكورة التقدمية، وآية الآيات في زمانه: فاللبنانيون، بل العرب في جميع ديارهم، يسمعون لأول مرة في نداء رسمي يذاع عليهم عبارة: «يا ابناء الوطن»، فهذه لغة جديدة في سمعهم، مجهولة منهم، ولا عهد لهم باستعمال كلمة «وطن».

وإن منهاجه يقول، ببيان ووضوح، باسناد الوظائف «الى الاستحقاق والاهلية، لا الى مجرد الجنسية والسلالة، او الغنى والرفعة (...) ان من اعتمد، في الارتقاء الى الرتب السامية، على مجرد كونه مولوداً من جنس أو من عشيرة، او سلالة اعطتها جهالة الأجيال السالفة، او التقادير، او نشاط مؤسس مجدها، امتيازاً او شرفا على غيرها، لا يظن

إنه يحصل على هذا الارتقاء، اذا لم تعطه الطبيعة المواهب التي تؤهله للارتقاء.»

وان منهاج القائم مقام يوسف كرم يؤكد، بصراحة وجلاء، ان الرجل عازم على الشدة في قمع الشرور، وفي الاقتصاص من المسؤولين المتهاونين.

ومنهاجه يقول بوضوح، ما بعده وضوح، وبكل جرأة: بوجوب «وضع حاجز بين الرياسة اي السلطة الروحية، والسياسة اي السلطة المدنية (...) واننا لا نبالغ اذا قلنا أنه يستحيل (في حالة مزج السلطتين) وجود التمدن، وحياته، ونموه...»

ومنهاجه يدعو باللسان العربي المبين جميع المواطنين والأجانب الى تعلم اللغة العربية ذات الفضل على التمدن.

ومنهاجه يدعو، بكل بلاغة تعبير، الى الاقبال على العلم والاتحاد والإلفة ونبذ «تعصباتكم الدنيئة، وتحزباتكم المذهبية، وعداواتكم الذميمة، واغراضكم النفسانية...» (– ان منهاج كرم واقواله واعماله في منصبه المذكور، مبسوطة كلها في كتاب: «يوسف بك كرم قائمقام النصارى» – مطبعة المرسلين اللبنانيين، جونية – وهو واحد من الكتب الغنية بأخبار البطل اللبناني وبحياته ووثائقه ومنشوراته، التي جمعها بجهد وعناء مشكورين مواطنه المغفور له سمعان خازن، فاثبت بعمله الشاق هذا أنه أشد الناس وفاء بكرم. فاستحق الشكر وإنْ هو كتب بمحبة النسيب عن نسيبه فتحزب ولم يراع الموضوعية، رحمه الله).

وكان في باكورة أعمال القائم مقام الشاب الثورية أنه أعاد النظر في حالة الألقاب السائدة، فصار يخلع لقب شيخ على أفراد من الشعب خبر فيهم خلقا كريماً ووطنية نزيهة وعقلا واعياً، متحديا بعمله هذا الجريء تراثاً تقليديا مهترئا، فزاد في إغضاب اصحاب الألقاب، وفي حقدهم عليه وتبرمهم به.

وحورب يوسف كرم على جبهات متعددة في محاولاته الاصلاحية:
دس عليه كثيرون من الاقطاعيين.

وعاكسته البطريركية التي صعب عليها أن تسمعه يقول بفصل الكنيسة عن الحكومة.

وحاربه الجنرال دي بوفور القائد الأعلى للحملة العسكرية الفرنسية، الساعي بيديه ورجليه الى تعيين المير مجيد قاسم (حفيد بشير الشهابي الثاني) اميراً على لبنان. ورأسمال مجيد هذا جهله القراءة، وجمال للوجه، وتقلبه في الدين من مسلم الى مسيحي اكثر من مرة بحسب المصلحة ورياحها.

وحورب يوسف كرم من قنصل فرنسا المدعو دي بنتيفوليو، وهو كونت إيطالي الأصل فتح دكانة نفوذ فرنسي بالاشتراك مع بعض الأساقفة وتجار. وروى عنه الزعيم الشيخ نصيف بو نكد انه «تبرع» ايام الفتنة بخمسماية ليرة فرنسية ذهبا لكبير عشيرته الشيخ حسين ... (رواية المغفور له عارف النكدي للمؤلف). وكان لذلك القنصل أخت باهرة الجمال اسمها مدام فاليسكا، تحسن استقبال زائريها، وقد ربطتها صداقة بالشاب الجميل الأمير مجيد شهاب المتكالب على امارة الجبل، وبالضبط الشبان الذين في حاشية الجنرال دي بوفور، تحيي لهم ليالي الأنس والانشراح والترفيه، مما سمح لها بخلق جو من الكراهية الفرنسية الرسمية ليوسف.

وطال ذلك الدس والمعاكسة والمعارضة، واشتد بأس اصحابها الحاقدين، وهم عصبة في جبهات وهو وحيد، حتى بدأ يضيق بهم ذرعا. وكان اشدها ايلاما في نفسه محاولات الفرنسيين إرغامه على تنفيذ إراداتهم العشوائية، وإن كرها، وهو الذي رضع حب «الأم الحنون» مع الحليب، شأن معظم الموارنة المفتونين، واستحال عليه التصديق ان فرنسا لا يهمها من الموارنة إلا أن يبنوا لها جسراً الى نيل اغراضها المشرقية. ضاق يوسف كرم صدراً بما قاساه فاستقال حتى لا يغضب حبيبته فرنسا!

ووصل داود باشا متصرفاً على لبنان وحاول، اول ما حاوله، جلب الزعيم المستقيل الذي يؤيده الشعب باكثره، وحاول ضمه الى جبهته، وعرض عليه تعيينه قائم مقام على جزين، او قائداً للجيش الوطني المقرر انشاؤه، فلم يفلح. ولم يتفقا على أمر لأسباب كثيرة ومعقولة. والوثائق المحفوظة، ثم المكتشفة تباعاً، عن تلك الأيام تحمل على الرأي ان كرماً تألم جداً من افتقار الدستور الجديد (البروتوكول) الى أجهزة الاستقلال ومقوياته، وتألم كثيراً من غموض في حقيقة هذا الاستقلال، والموقف عصيب، وتألم اكثر من أن داود باشا جارى هوى الفرنسيين ففضل عليه الامير مجيداً واسند اليه ادارة اكبر وأعظم مقاطعة في المتصرفية (كسروان والبترون حتى الأرز). بديهي أن تؤثر تلك الأسباب كلها في صاحبنا، وقد نشأ مشبعاً بحب لبنان وحب البأس والتفرد بالسلطة، فرفض التعاون مع المتصرف.

وانتهى موقفه ذلك من داود باشا الى تباعد فخصام، ادى الى نفيه في مطلع سنة ١٨٦٢ الى استنبول.

ثم رجع يوسف سراً الى لبنان (تشرين الثاني نوفمبر ١٨٦٤) راجيا أن يعيش بين قومه ناعم البال في انتظار ما سيكون، إلا ان الظروف اضطرته لأن يعود الى معاندة المتصرف ومعارضته، فحاربه بشدة وحارب الجيوش العثمانية التي اسرعت الى نجدة الحاكم. وهبّ معظم الشمال يؤيد زعيمه، ولكن بعض الكسروانيين خذلوه فبطش بهم وتابع زحفه قاصداً بيت الدين لاعتقال داود باشا، فهرب هذا الى بيروت واضطرب قناصل الدول الموقعة على البروتوكول، وقامت الارض وقعدت...

وتدخلت حكومة الانبراطور في فرنسا من جديد، واشتركت البطريركية في تدخلها لأنها كانت ترى في ثورة كرم خطراً عظيماً على مصير لبنان ومصير المسيحية في الشرق. واستطاع المرجعان اقناع يوسف بالكف عن الحرب وبقبول دعوة من الانبراطور نابوليون الثالث لينتقل الى الجزائر ويعيش في ضيافته ورعايته.

ومن اكبر اخطاء كرم – وقد يكون خطأه الرئيسي – اعتقاده ان فرنسا تعطف على لبنان، وعلى الموارنة بالأخص لوجه الله، فيجب مطاوعتها وعدم معاكستها. وبذلك الوهم الذي نكب به الموارنة قروناً عديدة ضعف صاحبنا واستسلم لمشيئتها، ورمى سلاحه وخرج من وطنه في موكب لم يشهد الجبل وبيروت مثله منذ وجدا. واقلته دارعة فرنسية الى الجزائر أرسلها الانبراطور خصيصاً لنقله (٣١ من كانون الثاني ١٨٦٧).

وطالت هجرة المبعد في اوروبة احدى وعشرين سنة علّل نفسه فيها بالرجوع الى وطنه. وجميع قوى الشر من فرنسية ولبنانية وتركية تشترك مع مزاجه السريع العطب والانفعال والاندفاع، في معاكسته وتعذيبه. وراح يتنقل من مدينة الى أخرى، ومن عاصمة الى عاصمة (باريس، روما، اثينا، بروكسل، فيينّا، الخ...) ينشىء البيانات والتقارير المسهبة والمفصلة عن «المسألة اللبنانية»، وعن مأساته، ويردّ على الصحف بلا كلل ولا ملل، ويعدّ مشاريع اقتصادية وحملات عسكرية وخططاً لثورات لبنانية وعربية. وظل على ذلك الجهاد المتواصل العنيد حتى انهار فجأة، نفسيّا وجسديا، فلجأ الى بلدة هادئة اسمها رازينا على مقربة من مدينة نابولي واختارها مقراً نهائيا له. وقد زارها المؤلف مفتشاً عن آثاره فيها فلاحظ أن موقعها الجغرافي شديد الشبه بموقع زغرتا.

وكانت ڤيلا يوسف كرم في رازينا على مقربة من القصر الذي نزل فيه الخديوي اسمعيل بعد نفيه من مصر. وفي تلك الدارة مرض كرم مرضه الأخير الشديد (نزلة صدرية مع جفاف في شرايين القلب) وعيناه تشخصان الى الشرق، وهو يدغدغ اطيافاً تأتيه من لبنان، فيفتح لها ذراعيه مستروحاً اريج الارز من جبل العطور، ولكنه لا يلبث أن يرى ذراعيه فارغتين، وانها لأطياف ... والمزار بعيد!

ومات ميتة الأبرار في ٧ من نيسان/ابريل ١٨٨٩.

الى عقيدة لبنانية متمدنة

(١) بدأت الوظيفة في متصرفية البروتوكول وكأنها مهمة رسولية موقرة. «والاوادم» في الجبل، وهم كثر، يهابون الإقدام عليها ويتهيبونها. وسمع المؤلف من معمري قريته (الحدت) ان آباءهم كانوا يعتذرون عن ترشيح نفوسهم لمشيخة الصلح أو للمختارية أو عضوية البلدية، خوفا من التقصير في خدمة الضيعة، او من عدم القيام بالوظيفة حق القيام. ولما دعي ابناء الحدت في اول مرة لانتخاب شيخ ومختار للبلدة، جمع الكاهن المعمرين تحت سنديانة الكنيسة وطلب اليهم الاتفاق على ترشيح اثنين يليقان للوظيفتين حتى ينتخبهما المواطنون. فاتجهت الأنظار حالاً وتلقائياً الى فاضلين يتمتعان باحترام الناس لهما، ومدت الأيدي كلها اليهما. فاضطرب الرجلان، واحمرا خجلاً، واستغفرا الله: «العفو، يا قرايبنا، انا أقل الناس لياقة. انا رجل خاطي، غير صالح. بشوف انو ننتخب اخوتنا الشيخ بو يوسف والشيخ بو لياس...»

واضطرب المرشحان الجديدان، بو يوسف وبو لياس، واحمرّا بدورهما واستغفرا، واشارا الى اثنين سواهما، فاعتذر هذان، وهكذا دواليك، حتى ضاق الكاهن بهم ذرعاً فقال لهم: «انا ألهمتني السيدة، عليها السلام، ان يكون الشيخ بو يوسف شيخ صلح، والشيخ بو لياس مختاراً. هيك السيدة بدّا ... والهرب من اتمام الناموس خطيئة ...» وقبل المرشحان مرغمين، امتثالاً لارادة شفيعة الضيعة. وتم الاقتراع تحت السنديانة وجميع الناس في ارتياح وفرح.

تلك كانت خلقية جدودنا الذين اعتبروا مشيخة الصلح، والمختارية، شيئا مقدساً لا يقربه إلا الانقياء الضمائر. ومثلهما كانت الوظيفة

الحكومية. ولم يطرأ على تلك الخلقية تبدلٌ إلا في أيام واصا باشا رابع المتصرفين اذ تلوثت فجأة. ثم أخذ الفساد، رشوة واضاعة حقوق الضعاف، يشتد حتى عمّ معظم الدوائر. وذلك بتدخل صهر المتصرف، ارتين كوبليان، الذي قرّب اليه بعض من لا أخلاق لهم وعينهم قضاة ونوابا، والفوا عصابة سمسرة لاستغلال النفوذ، لم يعرف لبنان مثيلاً لها إلا بعد نيله استقلاله كاملاً...

والمؤسف أن رذيلة الفساد غلبت الخلقية الكريمة في ميدان الخدمة الحكومية، حتى صارت هذه الخدمة مطمحا وامنية، وموضوع تعالٍ وتكسب. ثم تتابع تعاظمها مع تتابع المتصرفين حتى باتت حلم الوصوليين – وما أكثر الوصوليين في الناس! – وكلما جاءت أمة لعنت اختها. واكثر اصحاب الوظائف من بقايا بيوت الاقطاعية والوجاهة والنعمة الحديثة وصار الكثيرون يبيعون من ارزاقهم ليؤدوا ثمن الوظيفة التي يزحفون اليها، يقدمونه هدية للمتصرف (بواسطة رجل ثقته)، وللقنصل، وللمطران.

وعهد البروتوكول، ذلك، اورث حكم الانتداب رجاله. وموظفو الانتداب صاروا أعلام «الاستقلال التام أو الموت الزؤام» وابناء الأم الحنون صاروا أعلام العروبة...

(٢) تضاربت الروايات في أصل الحزبية الجنبلاطية أو اليزبكية فالشيخ طنوس الشدياق يرجعه في تاريخه الى أيام الأمير يوسف الشهابي الذي استفاد من خلافات وحزازات قديمة بين أسرة المشايخ آل جنبلاط وأسرة المشايخ آل العماد (يزبك) منذ الحكم المعني، فأوقع بين زعيميهما الشيخ علي جنبلاط والشيخ عبد السلام العماد، المستعدَّين للخصام والتقاتل. وحازب كلاً منهما فريقٌ من ابناء الاسر الأخرى. وازدادت المحازبة انتشاراً حتى شملت الدروز جميعاً باستثناء المشايخ النكدية، واعتنقتها فئة من الاقطاعية المارونية وبعض أفراد من الاقطاعيين الشيعة في الجنوب. وبنو العماد اكراد الأصل من قبائل

العمادية في شمالي العراق، نزحوا الى الجبل الأعلى في سورية الشمالية ومنه الى لبنان.

ويعود نفوذ آل جنبلاط الى علي الذي تزوج ابنة الشيخ قبلان القاضي التنوخي، «كبير مشايخ الشوف» وصاحب الثروة العظيمة، ولم يلبث هذا الرئيس الكبير أن توفي (١٧١٢) بلا عقب ذكر، فورثه صهره علي جان بولاد، مالاً ومقاماً، وصار كبير مشايخ الشوف. وبسلوكه العاقل اكتسب المحبين والأنصار من جميع الطوائف، وصار أحد المراجع التي تُقصد بعد الحاكم الأمير. ومن سلالته الشيخ بشير عمود السماء. والشيخ علي هو الذي تنسب اليه الرواية القروية أنه قتل، او أوعز بقتل، مخاصمه الشيخ عبد السلام العماد في صيدا فانقسم الشوف ثم الجبل الى جنبلاطي ويزبكي.

ومع أن الشدياق هو أكثر المؤرخين اللبنانيين اطلاعاً على أخبار الجبل في القرن الثامن عشر، وحتى انتصاف القرن التاسع عشر، ومن اكثرهم معرفة بخباياها ومعانيها، اذ إنه عرفها من والديه وذويه الذين خدموا بعض المشايخ العماديين ومعظم الامراء الشهابيين المتنافسين على الحكم – خدموهم بعقولهم واقلامهم وسيوفهم منذ ان بدأ الحكم الشهابي في الجبل، وقد اشترك المؤرخ الشيخ طنوس نفسه في هذه الخدمة زمناً طويلاً، حتى صح القول بأنه نشأ في قلب أزمات الإمارة الشهابية – فإن روايته عن نشأة الغرضية الجنبلاطية اليزبكية ناقصة وتحتاج الى تدقيق.

[انظر «تاريخ الأعيان»: ص ١٣٧ وما يليها.]

والراجح في اعتقادنا أن الحكم الشهابي الذي نزع الى الاستئثار بالسلطان كله، بعد أن أوجد طبقة اقطاعية جديدة، وحرم أخرى سابقة – وبهذا أنشأ مجتمعا جديداً على انقاض القيسية واليمانية ذات الأثر العميق في البلاد – لم يستطع أن يمحو من صدور مهزومي عين دارة ذكريات عزهم، ولا أن يطفيء فيها مطامح الأمل بالانبعاث. فما

إن افسح التقاتل الجنبلاطي اليزبكي لأولاد اليمانية المبعدين عن مسرح الحكم والشأن بأن يظهروا من جديد بحجة الاشتراك في الحزبية الناشئة حتى هبوا الى الانضمام اليها، وهي متنفسهم الى العودة.
وسواء أمال بعضهم الى الجنبلاطية بسبب، أم ومال الآخرون الى اليزبكية بسبب معاكس، فان اشتراكهم في الغرضية الجديدة قد زاد في بوقها نفخا، فانتشرت في طول الامارة وعرضها.
واخذ الأمير الحاكم، ومنافسوه من انسبائه ومخاصموه من ذوي الاقطاع، يستغلون هذه الغرضية لتحقيق مطامعهم فاستفحلت تفاهتها.
وما ان أطل عهد المتصرفية حتى كانت الناس من مختلف الطوائف في المناطق الدرزية والمناطق المشتركة تساق الى أغراض المتزعمين دون أي تفكير، والقرى والعائلات ينشق بعضها عن بعض بلا حساب ولا تروٍّ.
ومع تقلب الأحكام وتفتح الأفهام زالت الغرضية من أصحابها المسيحيين زوالاً تاما. وضعفت في الأوساط الدرزية التي انطلق أحرارها الى تسفيه مراميها الاقطاعية. وهي اليوم في سبيلها الى الزوال.
ومما يشار اليه في الختام أن الأسر التي تحزبت للجنبلاطية هي الأسر الغنية (ومنها بنو الخازن)، واما الأسر التي انتصرت لليزبكية فليست بذات ثراء يذكر. وهذا واحد من الأسباب التي جعلت بعض المتزعمين اليزبكية يقف في مناسبات عديدة، وفي مختلف العهود، الى جانب الزعيم الجنبلاطي الثري، والكريم.
واذا احب القارىء أن يقارن بين التعبير العصري والتعبير القديم عن الغرضية، جاز له التشبيه بأن اليزبكية هم جماعة «اليسار»، والجنبلاطية هم جماعة اليمين. ولله، بعد هذا، في خلقه شؤون!

فهرس

الجذور التاريخية للحرب اللبنانية

من الفتح العثماني الى بروز القضية اللبنانية

هذا الكتاب وضعه يوسف ابرهيم يزبك، والدي،
إبان الحرب التي عصفت بنا في نيسان ١٩٧٥ وأسموها
حرب السنتين. وقد قرر كتابة هذه الحقبة من تاريخنا إجابةً
عن أسئلة كان يطرحها الناس آنذاك وما زالوا يطرحونها:
لمَ الاقتتال؟ من المستفيد؟ إلامَ؟

في مطلع العام ١٩٧٧ حمل يوسف ابرهيم يزبك كتابه
معه في هجرته إلى باريس حيث حقق حواشيه ووضع هوامشه
واستذراكاته لكنه لم ينشره. ويوم سألته، بعد سنوات،
لماذا الانتظار قال لي إن نشر هذه الوقائع التاريخية سابقٌ
لأوانه. فالجميع في هيجان والأحقاد على أشدّها وليس من
مواطن يتقبّل هذه الوقائع، وإن كانت حقائق: فالحديدة حامية
ولا بدّ من انتظار أن تبرد. ثم دفع إليّ بالمخطوط قائلاً: احتفظ
به وانشره أنت، إذا كنت أنا قد رحلت، ساعة تسنح الظروف.

رحل... ومرّت عشر سنوات، والحديدة لمّا تبرد. كأنّ هناك
وفاقاً دولياً على عدم الوفاق اللبناني. فرأيت أن ينشر الكتاب
اليوم، ما دام في لبنان لبنانيون!

ابرهيم